العرب والإسلام

في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط

من فتح المغرب وفتح الاندلس
الى آخر عصر الولاة (١٣٨هـ = ٧٥٦ م)

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي
أستاذ زائر في جامعة دمشق لتاريخ الأندلس

الطبعة الاولى
بيروت ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م

منشورات المكتب التجاري - بيروت

الطبعة الاولى
١/٣٠٠٠/٣/٥٩

رمضان ١٣٧٨
آذار ١٩٥٩

هذا الكتاب

تظَلُّ الأُمّةُ حَيّةً ما دامَ أبناؤُها يَشْعُرونَ أنّهُمْ مُتّصِلونَ بأسْلافِهِمْ اتّصالاً واضحاً، وما داموا يُؤدّونَ رسالةَ أُمّتِهِمْ تأدِيةً تُوافِقُ حاجاتِهِمُ المُتطوِّرَةَ معَ الزّمَنِ وتحفَظُ عليْهِمْ مُثُلَهُمُ العُليا سَليمةً بارزةً وتجعَلُ من تُراثِهِمُ الروحِيِّ نِطاقاً يحْمي وَحْدَتَهُمْ ويُسَدِّدُ خُطواتِهِمْ .

فإذا تناسَى الأحْفادُ صِلَتَهُمْ بأسْلافِهِمْ وتناسَوْا رسالةَ أُمّتِهِمْ فَقدوا شَخْصِيّتَهُمْ وضَعُفَ أمْرُهُمْ فَسَهُلَ طُغْيانُ غَيْرِهِمْ عَلَيْهِمْ فيَحْمِلُهُمْ طَلَبُ العَيْشِ حينَئذٍ عَلى أنْ ينْتَحِلوا خصائصَ جيرانِهِمْ مِنْ صَديقٍ أوْ عَدُوٍّ ويَتزَيَّوْا بزِيِّ المُتغلِّبينَ عليْهِمْ ويَتَخلّقوا بأخلاقِهِمْ ويُقلّدوهُمْ في مَظاهِرِ حياتِهِمْ ثُمّ يَنْتَهي بِهِمُ الأمْرُ إلى أنْ يَذوبوا في مَنْ حَوْلَهُمْ فتَنْقَرِضَ دَوْلَتُهُمْ وتزولَ حَضارَتُهُمْ ويَخْلوَ مَوْكِبُ التاريخِ مِنْ أُمّتِهِمْ ومِنْ اسْمِ أُمّتِهِمْ .

فهرس الكتاب

المغرب : نطاقه وتعريفه

إذا نحن اعتبرنا « **المغرب** » من حيثُ الدلالةُ اللغوية عند العرب ، فلا مناصَ لنا من أن نَعْنِيَ به جميع البلاد التي تقع غربَ الشام ، في آسية (آسية الصغرى ، بلاد الروم) وفي إفْريقِيَّةَ (١) . أما اذا أعتبرناه من حيثُ الدلالةُ السياسية والادارية ، تلك الدلالة التي كانت ملموحة بوضوح في العصر الأموي ــ عصر الفتوح الإسلامية ــ فانه يكون حينئذ تلك البلادَ التي تمتد على السواحل الشمالية من قارة افريقية ، على شواطئ البحر الأبيض المتوسط (٢) وعلى شواطئ المحيط الأطلنطي (٣) أيضاً .

غير أننا اذا تأملنا تاريخ مصر وأدبها وثقافتها رأيناها كلها ألصقَ بتاريخ المَشْرق وأدبه وثقافته منها بتاريخ المغرب وأدبه وثقافته . فالتاريخ المِصْريّ

---

(١) افريقية بكسر الهمزة وتسهيل الياء ، وقد تشدد الياء .

(٢) البحر الابيض المتوسط يسمى البحر الرومي (راجع مقدمة ابن خلدون ١٢٢ ، راجع ٧٤ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٠ الخ .) « ويسمى البحر الرومي البحر الشامي أيضاً نسبة الى اهل عدوته الشامية (مقدمة ابن خلدون ٤٥٢ ، راجع ١٠٩ ثم ١٨ .) ــ راجع صفة جزيرة الأندلس ٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٦٢ الخ .

(٣) « ويسمى البحر المحيط ، ويسمى أيضاً لبلاية بتفخيم اللام الثانية ، ويسمى أقيانس . ويقال له البحر الاخضر والاسود » (مقدمة ابن خلدون ٧٢ .) ولكن اسم البحر المحيط عليه أشهر (مقدمة ابن خلدون ٧٢ ، ١٢٨ ، راجع ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢٠ ، ١٣٤ .) راجع صفة جزيرة الاندلس ٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٥٥ ، ٥٦ الخ .

كان دائماً جزوءاً من تاريخ الشام والعراق ، والأدب في مصر كان دائماً مشرقي الخصائص . وكذلك كانت الثقافة في مصر جانباً من الاتجاه الفكري في المشرق : فبهذا النظر وحده تخرج مصر من نطاق المغرب ولكنها تظل ، على كل حال ، جزوءاً منه من الناحية الجغرافية .

على أن التعبير **شرقاً و غرباً** تعبيرٌ مضّلل في كثير من الأحيان : ان كل شعب على الكُرَةِ الأرضية شرقي بالاضافة الى جيرانه الغربيين وغربي بالاضافة الى جيرانه الشرقيين (١) . ألسنا نحن في الشام مثلاً غربيين بالأضافة الى ايران والهند والصين ثم شرقيين ، في الوقت نفسه ، بالاضافة الى مصر واليونان وتونس وايطالية ؟ ولكن المفهوم التاريخي والوضعي جعل أوروبة والعالم الجديد (الاميركيتين) غرباً بالاضافة الى العالم القديم الذي نشأ فيه الدين والفن وبدأ تدوين التاريخ ، في الهند وبابل وفي مصر أيضاً . من أجل ذلك يسمي الاوروبيون والأميركيون أنفسهم **غربيين** بالاضافة الينا ويسموننا **شرقيين** بالاضافة اليهم ثم يَشْرَكون في التسمية معنا سكان مصر وتونس والمغرب الأقصى ، كما نسمي نحن أهل المغرب الأقصى والأندلس **مغاربة** ويسموننا هم **مشارقة** .

* * *

ثم اذا نحن تأملنا البحر الأبيض المتوسط من الناحية العسكرية والحربية رأيناه مقسوماً حوضين اثنين : الحوضَ الشرقي والحوضَ الغربي ، يفصل بينهما خط يمتد من جزيرة سِقِلِّيَةَ (٢) جنوب ايطالية الى الرأس الطيِّب (٣)، في الطرف الشرقي الشمالي من القطر التونسي . ولقد ذكر العالم الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته ما يشير صراحة الى استقلال أحد حوضي هذا البحر عن

---

(١) راجع « الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط » ، تأليف جورج سارطون ، نقلها الى العربية الدكتور عمر فروخ ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٣٧٢هـ=١٩٥٢ ، ص ٥٧-٥٨.
(٢) سقلية أو صقلية جزيرة كبيرة مصاقبة لجنوبي ايطالية .
(٣) « رأس بون » الذي يظهر على الخرط الحديثة هو المقابل الفرنجي للاسم الاصيل : الرأس الطيب .

حوضه الآخر في الأعمال الحربية فقال (١) : « وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه ، من سواحل الفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية (٢) لا يَتَعَدّونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح (٣) » . ثم يقول ابن خلدون أيضاً (٤) : « وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام الى أن انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره...... فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك (٥) وبقيت بأفريقية والمغرب فصارت مختصة بها . وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد (٦) موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيَّفه (٧) عدو ولا كانت لهم به كرّة » . ويتكم ابن خلدون على الافرنج (الصليبيين) فيقول (٨) : « ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغَلَب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدّد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم » . ثم قال أيضاً (٩) : « ... وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب (١٠) بالأساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الأساطيل البحرية » .

ولقد وجد الجغرافيون أن قسمة البحر الأبيض المتوسط حوضينِ اثنينِ ، من

---

(١) المقدمة ٤٥٥-٤٥٦ . راجع ١٠٩-١١٠.
(٢) جرز بحر ايجه (الايوني) .
(٣) سفن « وحملناه على ذات ألواح ودسر » (سورة القمر ، ٤٤ : ١٣) .
(٤) المقدمة ٤٥٦ .
(٥) رسم الوظيفة ، يقصد قيادة الاساطيل . هناك ، أي في الجانب الشرقي من البحر الابيض المتوسط .
(٦) في زمن ابن خلدون .
(٧) تحيف الشيء : تنقصه ، أخذ منه ، من « حيفه » أي أخذ من نواحيه (القاموس) .
(٨) المقدمة ٤٥٧-٤٥٨ .
(٩) المقدمة ٤٥٨ .
(١٠) ابو يعقوب المنصور الموحدي ، سلطان المغرب .

الناحية الجغرافية والناحية التاريخية والناحية الثقافية ، أمر صحيح نظرياً وعملياً : لقد وجدوه ينقسم في الحقيقة قسمين : قسماً شمالياً غربياً وقسماً جنوبياً شرقياً يُدعيان في العادة وحباً بالاختصار الحوضَ الشرقي والحوض الغربي (١) .

ومع أن البحر الأبيض المتوسط حوضان مستقلان متميزان ، فان الصلة ظلت عبر التاريخ وثيقة بينهما ، ثم بينهما وبين ما حولهما (٢) .

ان البحر الأبيض المتوسط حديث النشأة بمعنى أنه تشكل من انخفاض في البقعة التي يحتلها اليوم بعد أن كان الانسان قد وجد على هذه الأرض (٣) . وكان الأقدمون قد قسموا هذا البحر بحاراً صغيرة متفاوتة الأحجام مختلفة الأشكال وأطلقوا عليها أسماء مأخوذة من المناطق الساحلية التي تجاورها .

أما الحوضان الرئيسيان نفساهما فيختلفان في نواحٍ متعددة . ان الحوض الاول الغربي شبه مستطيل الشكل تبلغ مساحته نحو ٣٣٠,٠٠٠ ميل مربع (٨٥٠,٠٠٠ كيلو متر مربع) ، وهو محاط بسلاسل من الجبال الكلسية الممتدة فيه من الغرب الى الشرق على ساحليه الشماليّ والجنوبي ، في اسبانية وايطالية وفي افريقية . غير أن هذا الحوض الغربي يكاد يكون مستوى الشواطئ قليل التضاريس بالاضافة الى الحوض الشرقي (٤) . أما الحوض الشرقي فهو أكبر مساحة من الحوض الغربي ، إذ تبلغ مساحته نحو ٦٥٠,٠٠٠ ميل مربع (١,٧٥٠,٠٠٠ كيلو متر مربع) ، ثم هو مملوء بالجزر الصغار والكبار ، سواء منها تلك القريبة من الشاطئ أو البعيدة عنه .

والذي يلاحظه المؤرخ البصير أن مجرى الحروب في الحوض الشرقي كان مختلفاً من مجرى الحروب في الحوض الغربي . كانت الحروب في التاريخ القديم

---

(1) Newbigin 26, cf. 26-32.

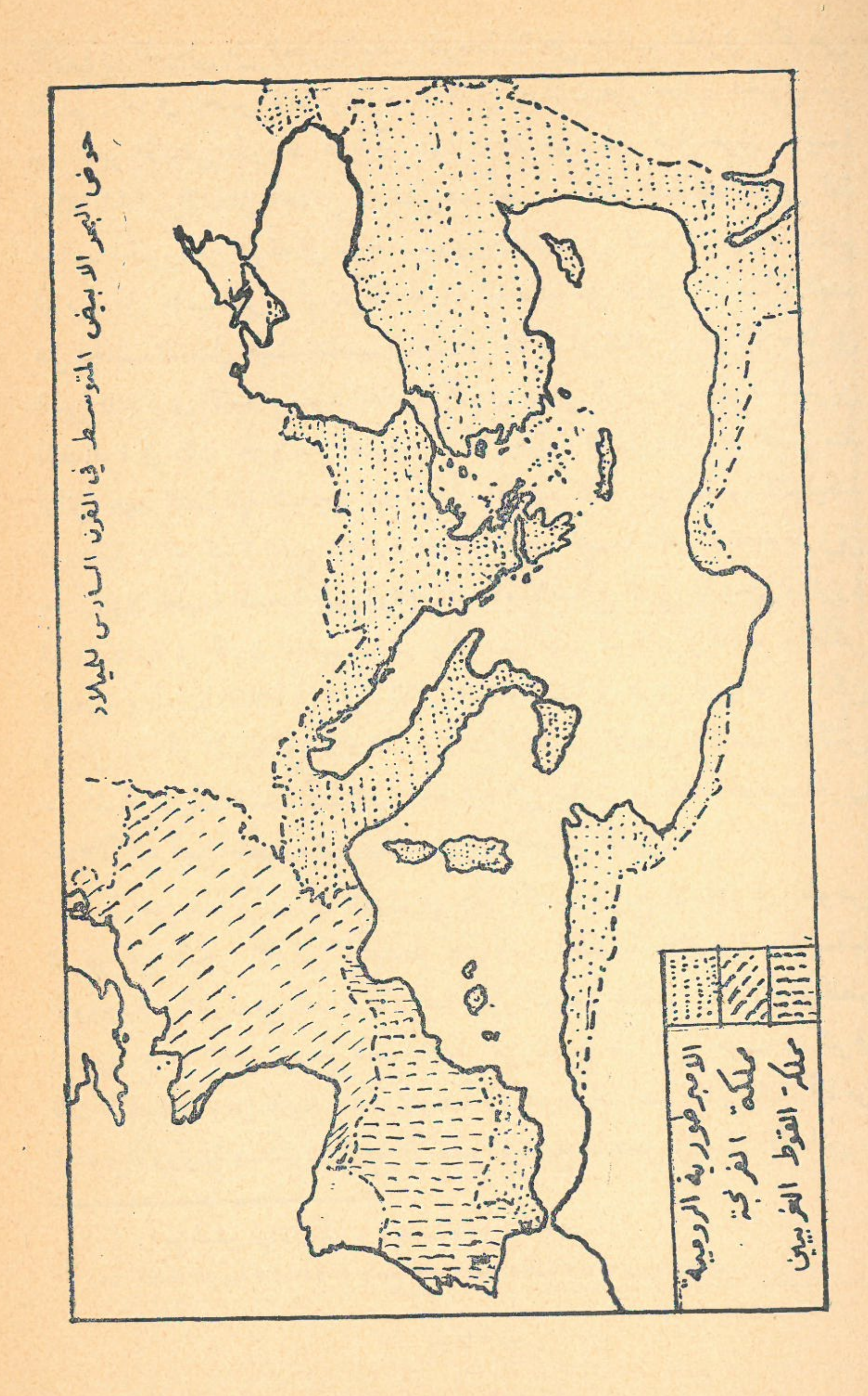
(2) Vgl. Der Alte Orient (Gemeinverstandliche Darstellung) Leipzig 1903 ff. s. 7. Jahrgang, Heft 2: Die Euphrat-Laender und das Mittelmerr (Leipzig 1905), von Hugo Winkler, S. 16.

(3) Semple 16 .

(4) Semple 60 ff.

تدور رحاها في الحوض الشرقي بين الفرس واليونان ، وكان الفينيقيون يصطلون بنار الفرس أحياناً ، وكانوا أحياناً أخرى يتحالفون مع الفرس على اليونان ، أو يتحالف بعضهم مع الفرس على بعض ، كما اتفق لما أعانت صورُ الفينيقية الفرسَ على صيداء الفينيقية . ومع أن الحروب كانت متوالية بين المصريين والفرس وأهل ما بين النهرين ، فان حروبهم كلها دارت بينهم وحدَهم في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، ولم يخطر لأحد منهم أن يحمل الحرب الى الحوض الغربي منه . ولما انشأ الفينيقيون مستعمرتهم المشهورة قرطاجة في القرن التاسع قبل الميلاد ، عند مدينة تونس اليوم ، ثم اتسعت وقويت وأزدهرت حتى فاقت أمها صور ، انقطعت كل صلة لها بأمها صور في الحوض الشرقي وأصبحت جميع حروبها تدور مع رومية على السيادة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط . ومع أن اليونان والرومان قد حملوا لواء الحروب في الشرق والغرب معاً ، فان امبرطورية اليونان كانت في الاكثر شرقية وامبرطورية الرومان كانت في الأكثر غربية .

والمسلمون هم الذين وحّدوا حَوْضَيِ البحر الأبيض المتوسط مدة طويلة من الزمن : وحّدوه في الفتح ، فان جيوشهم التي فتحت في الشام والعراق هي التي تابعت الفتح في مصر وافريقية والمغرب الأقصى والأندلس وبلاد الفرنجة . وكذلك وحّدوه في أول الأمر في الإدارة ، فان ولاة الأندلس ظلوا مدة يُعَيّنون من مصر أو من دمشق نفسها . ولقد كانت دعوى عبد الرحمن الداخل العظمى أن ملك بني مروان في الأندلس كان استمراراً لملكهم في الشام . أما في اللغة والدين والحضارة فان المغرب ما يزال الى اليوم مشرقياً في كل شيء . غير أن التاريخ وحده كان أحياناً ينفصل مجريين فرعيين أو أصيلين. وظل الروم، حتى بعد أن وحّد المسلمون حوضي البحر الأبيض المتوسط ، يتبعون سياستين حربيتين اثنتين في ذينك الحوضين . لقد ظلت قوى المسلمين البحرية متكافئة في الحوضين بينما قوى الروم لم تكن كذلك . لقد كانت الحرب بين المسلمين والروم في الحوض الشرقي غارات متبادلة على الاسكندرية وقبرس ،



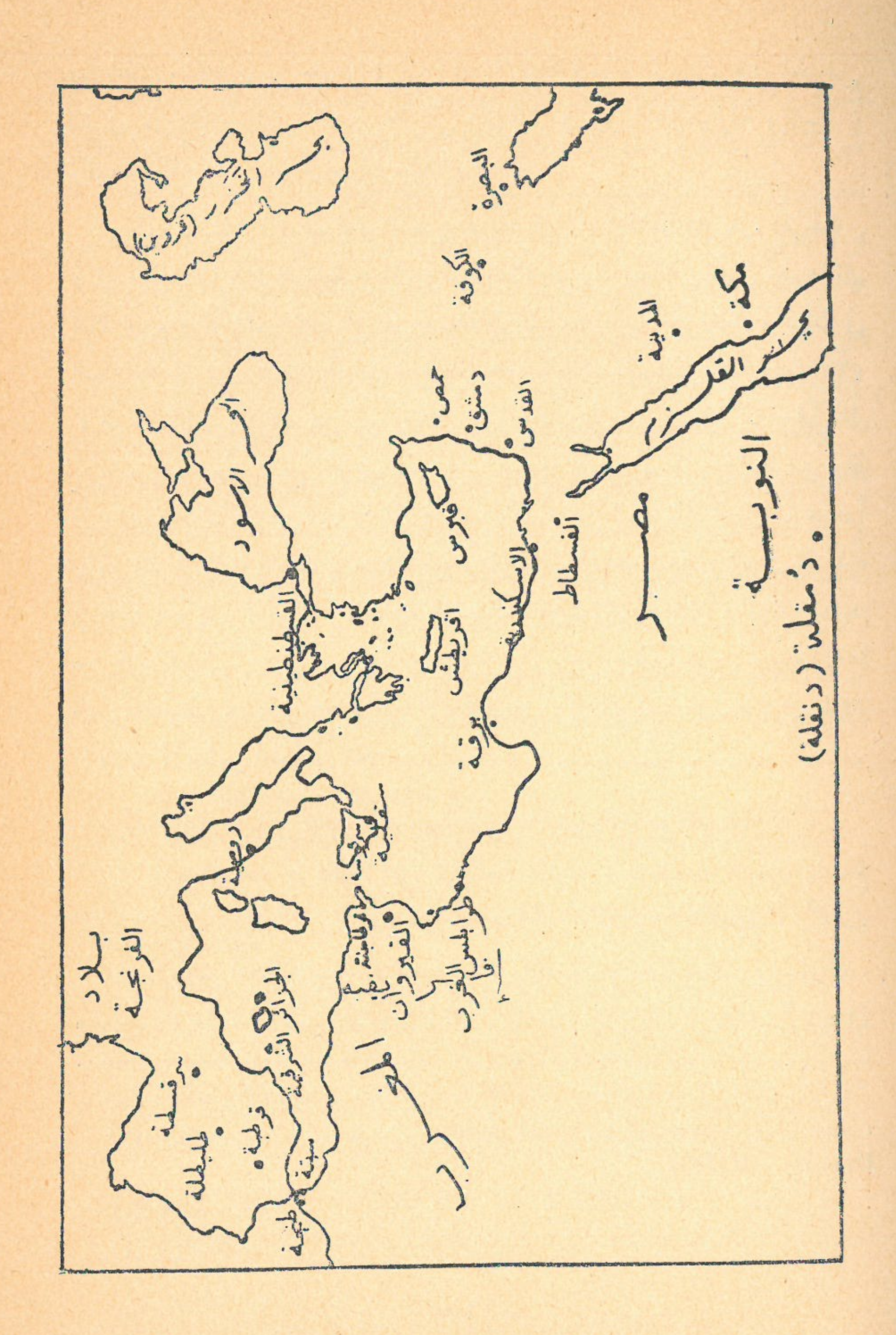
أما في الحوض الغربي فلم تكن كذلك ، كان المسلمون يغيرون على سردانية وسقيلية من غير أن يستطيع الروم الأغارة على شواطئ المغرب (١) . وأخيراً في القرنين السابع والثامن للميلاد (الأول والثاني للهجرة) قسم الروم أسطولهم الحربي عمارات جعلوا ثلاثاً منها في الحوض الشرقي ، لاتساعه وتعدد سواحله ولاهميته بالاضافة الى قربه من بلادهم ، وجعلوا اثنتين منها فقط في الحوض الغربي (٢) .

ثم عاد حوضا البحر الأبيض المتوسط الى الانفصال ، حتى بالاضافة الى العرب أنفسهم . ولقد أخبرنا ابن خلدون طرفاً من ذلك في مقدمته (٣) . وكذلك حاول المسلمون المشارقة أن يستنجدوا في أثناء الحروب الصليبية بأخوانهم المغاربة ، مرة في أيام يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين ومرة في أيام المنصور الموحدي ، على ما سيأتي في مكانه بالتفصيل ، ولكن استنجادهم في المرتين لم يثمر .

وجاء الأتراك العثمانيون الى الشرق الادنى في القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر للميلاد) ثم اندفعوا يفتحون البلاد شرقاً وغرباً فما استطاعوا أن يتعدّوا في فتوحهم الثابتة بلاد الحوض الشرقي ، الا وَثَبات الى القطر التونسي والقطر الجزائري من المغرب لم تكن تحمل طابع الفتح الذي كان مألوفاً في ذلك الحين ، ولا كانت على كل حال كوثبات الرومانيين الوثنيين من قبلهم والصليبيين النصارى من بعدهم الى الشرق .

ولقد أصاب جورج سارطون لما رأى البحر الأبيض المتوسط منطقة جغرافية تامة تنقسم وحدات صغيرة ، ثم رأى فيه تشابهاً واختلافاً في وقت واحد (٤) . ولكن هذا الذي رآه سارطون صدق في التاريخ على الجانب الشمالي

(1) Lewis 69 ff .
(2) Lewis 73 f .
(٣) راجع فوق ، ص ٨-٩.
(4) George Sarton (d. March 22. 1956) .
« The Unity and Diversity of the Mediterranean »
OSIRIS, vol. II, pt. 9, Sept. 1936, pp. 404-440 .



الأوروبي المسيحي من البحر الأبيض المتوسط لا على الجانب الجنوبي الأفريقي المسلم . أما في الجنس فاننا نرى جميع الذين يعيشون على الجانب الجنوبي من من البحر الأبيض المتوسط عرباً أو يقولون بالرجوع الى أصل عربي ، بينما سكان الجانب الشمالي أجناس لا يحصرهم العد . وكذلك اللغة العربية هي لغة الجانب الجنوبي من شرقه الى غربه ، سوى جماعات في القسم الغربي منه تتكلم البربرية الى جانب العربية أو تعرف العربية لغة دينية على الأقل . ان هذا لا نجده على الجانب الشمالي حيث تتشعب اللغات أو تختلف أو تتنافر . وأما اذا جئنا الى الدين فاننا نرى الاسلام يسود الجانب الجنوبي ، على الرغم من جهود المبشرين المتضافرة في ذلك الجزء من العالم (١) . أما الجانب الشمالي فانه قد انقسم منذ أوائل عهد النصرانية شيعتين كبيرتين : الأرثوذكسية اليونانية والكاثوليكية الرومانية ، مع كثرة الشيع المتنافرة المتعادية فيهما كليهما تنافراً وعداء بارزين جداً تناولا العقيدة المسحية نفسها (٢) . ثم جاء الاصلاح الديني المسيحي والثورة البروتستانتية في القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد (التاسع والعاشر للهجرة) فأحدثا انقلاباً في الحياة الاجتماعية والعقلية في غربي أوروبة ، ولكن لم يكن لهما أثر البتة في بلاد الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . وليس من المستغرب أن تختلف خصائص الحضارة التي سادت في بلاد الحوض الغربي اختلافاً كبيراً من الحضارة التي سادت في بلاد الحوض الشرقي .

من أجل هذا رأيت أن أتناول في هذا الكتاب تاريخ الاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط بعدوتيه الجنوبية الافريقية والشمالية الاوروبية : أتناول من العدوة الأفريقية القطر التونسي والقطر الجزائري والقطر المغربي مع ما اتصل بتاريخ هذه الأقطار من تاريخ طرابلس الغرب في شرق تلك الأقطار ، ومن تاريخ المناطق الواقعة في جنوبها اذا اتصل التاريخان . أما من العدوة الاوروبية فسأتناول تاريخ الأندلس وتاريخ ما دخل في ملك الأندلس ،

---

(١) راجع التبشير والاستعمار ، وخاصة ١٢٤ – ١٢٦ .

(٢) الثقافة الغربية ٢٧–٢٨ ، وراجع تحت ، ص ٢٥–٣٧ ، ٥٢ وما بعدها .

بين الحين والحين ، من جنوبي فرنسة وشمالي ايطالية والجزر المنتشرة في الحوض الغربي من البحر المتوسط : الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة ويابسة) وكورسيكة وسرذانية وقوصرة ومالطة وصقلية .

ونظراً لأتساع المغرب فقد غمض تعريفه قليلاً واختلط بتعريف افريقية . ذكر ياقوت (١) أن افريقية « بلاد واسعة قبالة جزيرة صقلية وينتهي آخرها الى قبالة جزيرة الأندلس » ، أي من مدينة طرابلس في ليبية الى مدينة وهران في القطر الجزائري . ثم يمد ياقوت على الصفحة التالية تعريف افريقية فيجعلها (٢) « من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية الى بجاية ، وقيل الى مليانة . » ثم ذكر ياقوت نفسه على الصفحة نفسها أن افريقية تمتد من برقة الى طنجة طولاً (من الشرق الى الغرب) ، ثم من البحر الى السودان عرضاً (من الشمال الى الجنوب) . وهكذا يكون ياقوت قد جمع معظم شمالي افريقية في هذا التعريف . أما المغرب خاصة فجعله ياقوت (٣) « بلاداً واسعة حدّها من بلاد مليانة — وهي آخر حدود افريقية — الى آخر جبال السوس التي وراءها البحرُ المحيط . وتدخل فيه جزيرة الأندلس » . وكذلك يقول ابن عذارى (٤) : « وبلاد الأندلس أيضاً من المغرب لاتصالها به » .

قد عرفنا من قبل كيف جاء اسم المغرب فكيف جاء اسم **افريقية** ؟

ان الرومان بعد أن تغلبوا على قرطاجة القديمة ، قرطاجنة افريقية ، عام ١٤٦ ق.م. ، أطلقوا اسم افريقية على المقاطعة التي دخلت في حكمهم ، وكانت تتناول الأرض المحيطة يومذاك بمدينة تونس الحديثة ثم تمتدد قليلاً الى الشرق . ولم يكن غريباً ان يتناول العرب هذا الاسم نفسه ، لما ورثوا الرومان والروم في

(١) ياقوت ١ : ٣٢٤ .
(٢) ياقوت ١ : ٣٢٥ ، راجع ١ : ٦٣ السطر الخامس وما يليه ، ٣٢٥ ، ٤ : ٥٨٣ ، Enc. Isl. III 108d.
(٣) ياقوت ٤ : ٥٨٣ .
(٤) البيان المغرب ١ : ٦ .

الشرق والغرب ، وأن يطلقوه على الأرض التي كان الرومان قد سمّوها به ؛ غير أننا قد لا نصل الى نتيجة مجدية اذا بحثنا عن **معنى كلمة افريقية** . زعم بعضهم (١) أنه اسم فينيقي ، أو ساميّ على كل حال ، وأن معناه « الرِحلة » و « التنقل » . ولم أجد أنا في معاني « فرق » ما يدل على هذا (٢) . ولعل اسم « افريقية » جاء من الجذر « برق » الذي تتصل به أسماء أماكن كثيرة في آسية وفي افريقية : برقة (بضم الباء وفتحها)، براق (بضم الباء وتسهيل الراء)، برّاق (بفتح الباء وتشديد الراء) ، أبرق ، الابرقان ، أبارق ، أبراق (٣) .

وكما أن الخلاف موجود في تعريف المغرب فانه ملموح أيضاً في حد الأندلس وأصل اشتقاقها ومعناها : أن **الاندلس** تعريب كلمة فانداليسيا (فاندليسية) ، وهو الأسم (٤) الذي خلعته قبائل الفاندال (٥) الجرمانية لما استقرت نهائياً في القسم الجنوبي من شبه جزيرة إبارية (٦) أو ايبيرية (اسبانية والبرتغال) . أما العرب فقد أطلقوا لفظ **الاندلس** على شبه جزيرة إبارية كلها ، أو على القسم الذي سيطروا عليه منها ، على الأصح (٧) : وقد رأينا أن ياقوت الحموي وابن عِذاري مثلاً قد جعلا الأندلس داخلة في المغرب (٨) :

(1) Isaac Taylor, p. 72, note 4.
(٢) راجع القاموس المحيط ، راجع اللباب (في اللغة الآرامية والسريانية والكلدانية) لجبرائيل القرداحي ، في مادة « فرق » .
(٣) القاموس المحيط ٣ : ٢١١ – ٢١٣ .
(4) Vandalucia.
(٥) الفندال أحد أفراد القبائل الجرمانية التي غزت غربي أوروبة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ثم استقرت في اماكن كثيرة من غالية واسبانية في الاكثر نحو ٤٢٨–٤٢٩ م ، ثم هاجر قسم منهم الى شمالي افريقية Oxford Dict., vol. X, part II, page 34, والكلمة « فندال » مأخوذة من لفظة هي في الالمانية اليوم Wandeln ، وفي الانكليزية Wend, Wander ومعناها كلها : الرحلة (Isaac Taylor, P. 72, note 4)
(٦) الروض المعطار .
(٧) ياقوت ، ١ : ٣٧٦ ، Enc. Br. I 893d, Enc. Isl. I 349d ويبدو ان العرب أطلقوا لفظ الاندلس على غير شبه جزيرة ابارية (ياقوت ١ : ٣٧٨) .
(٨) راجع ما قبل ، ص ١٦ .

ونرى نحن تسهيلاً للبحث أن نجعل أسماء المناطق الواقعة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وحدودها على الشكل التالي (١) :

١ ــ مِصر = من بحر القُلْزُم (شمالي البحر الاحمر) الى التخوم الشرقية لبرقة ؛

٢ ــ بَرقة (بفتح الباء) = القسم الشرقي من مقاطعة لوبية (ليبيا) ، الى بنيغازي .

٣ ــ افريقية = القسم الغربي من مقاطعة لوبية ، وتعرف اليوم بطرابلس الغرب وما يتصل بها من تونس .

٤ ــ المغرب = جميع البلاد وراء طرابلس الغرب الى المحيط الأخضر (الاطلنطي) ، ويقسم أقساماً ثلاثة هي على وجه التقريب :

أ) المغرب الادنى = القطر التونسي الحديث ، ويعرف في المصادر عادة باسم افريقية .

ب) المغرب الأوسط = القطر الجزائري ولم يكن في العصر الذي نؤرخه قطراً مستقلا بل كان بعضه تابعاً لافريقية (القطر التونسي) وبعضه تابعاً للمغرب الاقصى .

ج) المغرب الأقصى = القطر المغربي ، أو المملكة المغربية اليوم ؛ والمشارقة والاوروبيون يسمون هذا القسم « مُرّاكش » ، ولكن ينتج من ذلك وهم كثير . أن مراكش مدينة في جنوبي المغرب الأقصى . وقد يجوز أن ندعو تلك المدينة وما يحيط بها وما يترامى وراءها «مراكش» ولكن لا يجوز أن نسمي المغرب الأقصى كله مراكش ؛

٥ ــ الأندلس = وهو القسم الذي استولى عليه العرب من شبه جزيرة إيارية ؛

---

(١) راجع ياقوت ١ : ٦٣ ، ٣٢٥ ، البيان المغرب ١ : ٥ ، ٢ : ٢ ، مقدمة ابن خلدون ٥٧ وما Enc. Isl. II 453d - 454a.

(٢) ياقوت ٤ : ١٥٨-١٦١ .

٦ ــ جنوبي فرنسة : بين حائط إفرنجة (ساحل فرنسة الجنوبي على المحيط) وبين وادي الروذون (نهر الرون) ، ثم بين جبال البُرْت (البرانس) ونهر اللوار . هذه البقعة الواسعة من الأرض الكبيرة (فرنسة) تتألّف من سهول في غربيها ثم في جنوبيها (أكويتانية ــ حوض نهر الغارون) ثم من الكتلة المركزية في شرقيها الجنوبي ؛

٧ ــ ويدخل في الحوض الغربي ، من الناحية التاريخية المتعلقة ببحثنا على الأقل ، الجانب الغربي الجنوبي من سويسرة ثم الشواطئ الشمالية الغربية من شبه جزيرة ايطالية .

٨ ــ ويدخل فيه أيضاً الجزائر الشرقية (جزائر الباليار : يابسة ، ميورقة ، منورقة) ثم جزيرة كورسيكة وجزيرة سرذانية (سردينية) ثم جزيرة سقلّية أو صقلية . وهنالك أيضاً ، بالقرب من الشاطئ الأفريقي ، جزيرة مالطة وجزائر أخرى أقلّ شأناً .

العالم الوسيط

وتوزع البرابرة في أوروبة

•

لما ولد محمد رسول الله في عام الفيل ، ٥٧٠م ، كان العالم — من اقصى الشرق الى اقصى الغرب — غارقاً في نزاع جنسي وسياسي وديني لم يستطع النجاة منه قط . وكذلك كان يسوده تفكك وانحطاط اجتماعيان وغفلة روحية : ولم يكن فيه من مظاهر الحياة سوى بقية من مدنية مادية سابقة تتعلق بآلة الحرب خاصة ويكاد يستبد بها الفرس والروم وحدهم . على أن هذه البقية من المدنية كانت من العوامل التي عجلت في القضاء على الامبرطورية الفارسية الساسانية وعلى الامبرطورية اليونانية الرومية (البيزنطية) بما كان فيهما من عناصر النزاع الداخلي بجميع وجوهه وبما توالى بينهما من الحروب . فاذا نحن أضفنا هذه العوامل من الضعف الداخلي الى قيام أمة فتية شجاعة تحمل عقيدة راسخة وايماناً بالقضاء والقدر ينتزع من نفوس أبنائها الخوف من الموت ثم يجمعها هدفٌ واحد في جميع أحوالها : الجهاد في سبيل الله (أي في سبيل الأمة لا في سبيل نفر من أفرادها) لم نستغرب قط أن تنهار تانك الامبرطوريتان المفككتان — على قوتهما — أمام العرب والاسلام انهياراً سريعاً تاماً .

أما شبه القارة الهندية فقد كانت من السعة وتنافر الأجناس واللغات بحيثُ لم يمكن توحدُها . كان فيها أهلها الدرافيديون السُمْر ، مقسمين فيها سياسياً

واجتماعياً ولغوياً ، حينما طرأ عليها الآريون البيض من الشمال ليزيدوا في تنافر حياتها اللغوية والاجتماعية والسياسية ، وليزيدوا في مشاكلها القديمة مشكلة جديدة : ذلك لأنهم أقاموا أنفسهم حكاماً على السكان الأصليين فزادوا على أوجه النزاع القديمة وجهاً جديداً . وكان في الهند أربع طبقات اجتماعية : الكشاترية (طبقة الأشراف والفرسان الذين يَرْجِعون بأنسابهم الى الفاتحين الآريين) ، والبراهمة (الحكماء ورجال الدين) ، والفايسيا (الزّراع والفلاحون) ، ثم السودرا (الذين يحترفون المهن الدنيا وتتجنب سائر الطبقات مخالطتهم) . وكثرت في الهند الديانات وكان أشهرَها المجوسيةُ والبرهمية والجينا والبوذية ، وكلها كانت قديمة . وفي أواخر القرن الرابع قبل الميلاد قاد الاسكندر المقدوني حملته على السند (غربي الهند) ففتحها عام ٣٢٧ ق.م. وقضى على وَحدة ذلك الجزوء منها . وسَرعان ما انسحب الاسكندر من السند فقامت على أنقاض فتوحه فيها أسر محلية كثيرة تولت حكماً اقطاعياً دينياً (هندوكيا) دام ثلاثة قرون ثم زال لما فتح العرب السند سنة ٩٣هـ (٧١١م) في العام الذي فتحوا فيه الأندلس :

والى شرق الهند تقوم الصين ، تلك البلاد الواسعة التي لم يمتزج تاريخها الاول بتاريخ العالم الا قليلاً . ففي النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد بني الامبرطور تشي هوانغ تي (٢٤٦—٢١٠ق.م.) سور الصين المشهور ليرد عن بلاده قبائل من البرابرة كانوا يجوبون أواسط آسية ليجدوا مدى حيوياً لهم يعيشون فيه . ومع أن تشي هوانغ تي قد رد تلك القبائل (١) عن الصين ، فانه قد زاد في عزلة الصين عن العالم : وكان يسود الصين منذ القرن الخامس قبل الميلاد ثلاثة أديان هي الكونفوشية والطاوية والبوذية ، ولكن هذه كانت مذاهب عقلية أخلاقية أكثر مما كانت عقائد وعبادات : ولقد شهدت الصين في القرن الذي سبق ظهور الاسلام اضطراباً مريعاً لكثرة ما نشأ فيها من الأمارات المتنازعة ، ثم عادت الصين الى شيء من الهدوء والأزدهار . ويبدو أن الاسلام وصل الى

(١) يبدو أن هذه القبائل هامت في أواسط آسية مدة طويلة قبل ان يصل أحفادها الى أوروبة في القرن الخامس للميلاد ، ولعلها هي القبائل التي يشار اليها باسم يأجوج ومأجوج (بالهمز وبالتسهيل) .

الصين في أيام الرسول نفسه ، فقد نزل وفد من المسلمين سنة ٧ للهجرة (عام ٦٢٨م) في مدينة كانتون ، في جنوبي غربي الصين ، ثم استقر افراده هناك .

التركستان وسكانها الاولون

التركستان هضبة واسعة متفاوتة الارتفاع تقع في أواسط آسية ويحدها من الشمال سيبيرية ، ومن الغرب بحر الخزر (قزوين) ، ومن الجنوب إيران والافغان وشبه جزيرة الهند ، ومن الشرق بلاد المغول وصحراء غوبي . وهي تقسم منطقتين : التركستان الغربية ثم التركستان الشرقية التي هي في الحقيقة جزءٌ من الصين يدعى اليوم سين كيانغ .

هذه الهضبة كثيرة التلال وفيها جبال ترتفع أحياناً الى نحو ثلاثة آلاف متر : وفيها أيضاً منخفضات تصل الى نحو مائة وخمسة وعشرين متراً تحت سطح البحر . ثم ان الجانب الشرقي من التركستان أكثر ارتفاعاً وانخفاضاً من الجانب الغربي وأكثر تفاوتاً .

وقد كان الآريّون ، أسلاف الهنود والجرمان والصقالبة ، ينزلون في فجر التاريخ في التركستان الشرقية ، وكذلك كان الهيطل (الهون البيض) ينزلونها في القرن الثاني قبل الميلاد .

الفرس والروم

لم يعرف العرب أمة كما عرفوا الفرس ، فقد عرفوهم منذ الجاهلية البعيدة : كان الفرس جيران العرب ، وكان طريق التجارة الفارسية عبر بلاد العرب ؛ وكان للفرس نفوذ كبير في جنوبي بلاد العرب وفي شماليها معاً . ولقد استطاع الفرس في أيام الدولة الساسانية أن يستولوا على اليمن والعراق وان يبسطوا نفوذهم الفعلي على نجد ، حتى أنهم كانوا يقسمون المراعي بين القبائل الشمالية . غير أن الضعف عاد فدب في الفرس فأخذ العرب يخلعون عنهم النير الفارسي شيئاً فشيئاً . ففي مطلع القرن السابع للميلاد نشبت معركة ذي قار وانتصر فيها العرب على

الفرس لأول مرة في تاريخهم . ولم يضعف الفرس بالنزاع الداخلي فقط ، بل بالحروب المتوالية بينهم وبين الروم زماناً طويلاً . ولما جاء الاسلام لم يجد العرب صعوبة كبيرة في التغلب على العداء الفارسي ، ففي معركة القادسية سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) رد العرب الفرس عن العراق كله . أما بعد معركة نهاوند سنة ٢١ للهجرة (٦٤٢م) فقد فُتحت فارس كلها أمام الجيوش العربية ؛ ثم ان الفرس دخلوا في الاسلام مرة واحدة وزالت كل منافسة بين الأمتين الى حين .

على أن الأمة التي نشأ النزاع بينها وبين العرب مع ظهور الاسلام فهي الأمة اليونانية . وقد عرف العرب اليونانيين باسم اليونان والروم وبني الأصفر ، كما عرفوا الأغريق اسماً لهم . ولكن يبدو أنهم لم يعرفوهم باسم البيزنطيين .

جاء في القاموس (١) أن اليونان جيل انقرضوا . وزاد تاج العروس ذلك شرحاً فقال (٢) : « اليونان جيل انقرضوا ... قيل يونان جزيرة كان حكماء الروم ينزلون بها ». فنحن نلمح في هذا صحة النسبة ، فان **أيونية** أو **يونيا** تطلق على البحر المحيط ببلاد اليونان وعلى الجزر الموجودة فيه . ولهذا أطلق العرب كلمة **يونان** على اليونانيين القدماء ، فقد ذكر ابن عبد المنعم الحِمْيَري في كتابه الروض المعطار (ص ٣) هؤلاء فقال : « وفيها (٣) آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة » . وقال ابن عبد المنعم في مكان آخر : « ومن أعجب الآثار بها الصنم المنسوب الى هذه الجزيرة (٤) ، بناه أركليش ، وهو هرقلس ، أصله من الروم الاغريقيين ، وكان من قواد الروم وكبرائهم على زمن موسى عليه السلام ، وقيل أنه أول معدود لملوك اليونانيين (٥) .

---

(١) القاموس المحيط ٤ : ٢٧٩ .

(٢) تاج العروس ٩ : ٣٧٣ .

(٣) يقصد : في الاندلس .

(٤) يقصد جزيرة في الاندلس .

(٥) الروض المعطار ١٤٥ .

و **بنو الاصفر** هم الروم عامة، أو ملوك الروم خاصة . جاء في القاموس (١) : « وبنو الأصفر ملوك الروم » : أما تاج العروس فقال (٢) : « بنو الأصفر الروم ، وقيل ملوك الروم » ثم استشهد على ذلك بقول عدي بن زيد :

وبنو الأصفر الكرام ملوك الر ... وم لم يبق منهم مذكور ؛

وهنالك اشارات أدبية كثيرة تدل على أن بني الأصفر هم الروم البيزنطيون عموماً ، فقد قال أبو تمام في قصيدته « فتح عمورية » : عن معركة عمورية :

أبقت بني الأصفرِ المصفرّ كاسمهم ... صفرَ الوجوه وجلّت أوجه العرب ؛

أما أشهر الاسماء التي عرّف العرب بها سكان بلاد اليونان فاسم **الروم** ؛ قال الفيروزابادى (٣) : والروم جيل من ولد الروم بن عيصو ، رجل رومي ، وجمعها روم ... وابن الرومي متأخر »(٤) . أما في القرآن الكريم ، فان الروم هم البيزنطيون (٥): « غُلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غَلَبِهم سيغلبون في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ... » .

وأطلق العرب لفظة « روم » أيضاً على النصرانية ، جاء في تاج العروس (٦) « ودخل في الروم طوائف من تنوخ و نَهْد وسُلَيْم وغيرهم من غسّان كانوا بالشام . فلما أجلاهم المسلمون عنها دخلوا بلاد الروم واستوطنوها فاختلطت أنسابهم » . وكذلك أطلق العرب اسم الروم على أهل ايطالية ، وسموا جميع سكان أوروبة النصارى في الأندلس والفرنجة وما وراءها روماً ، كما نسمي

(١) القاموس المحيط ٢ : ٧١ .
(٢) تاج العروس ٤ : ٣٣٨ .
(٣) القاموس المحيط ٤ : ١٢٣ ، راجع تاج العروس ٨ : ٣٢٠ .
(٤) الشاعر العباسي علي بن العباس بن جريج الرومي .
(٥) القرآن الكريم ، سورة الروم (٣٠ : ٢) .
(٦) تاج العروس ٩ : ٣٢٠ .

نحن جميع الغربيين فرنجة . أما كلمة **أغريق** للدلالة على أهل اليونان فنادرة في اللغة العربية . ان « غاريقون » أو « أغاريقون » لفظة يونانية تتعلق بالنبات ، كما في القاموس » (١) . وأما الكلمة **بيزنطيون** فلم يعرفها العرب .

البـــرابرة

البرابرة اسم أطلقه اليونان والرومان على جميع الشعوب سواهم ، ثم خُصّت به شعوب بدأت تنتشر في بسائط أوروبة منذ القرن الثالث للميلاد ، بعد أن كانت قد غادرت مواطنها الاصلية في أواسط آسية منذ فجر التاريخ في الأغلب. وليس من شأننا في هذا الكتاب أن ندرس أحوال هذه الأقوام يوم كانت لا تزال تعيش في مواطنها الاولى في شمالي شبه جزيرة الهند وفي سهول التركستان ، ولا أن ندرس تبدّل ألوانها وقاماتها ولغاتها وعاداتها . ولكن يهمنا أن نعلم أن جموعاً من تلك الأقوام قد وصلت الى شمالي أوروبة والى تخوم أوروبة الشرقية قبل الميلاد ببضعة قرون .

ويبدو أن اليونان والرومان استطاعوا أن يردوا هذه الجموع البربرية المتوحشة عن تخوم امبرطوريتيهم : الامبرطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) والامبرطورية الرومانية الغربية زمناً طويلاً ، ثم قدروا أن يحولوا بين تلك الجموع وبين اجتياز نهر الطونة (الدانوب) الى شبه جزيرة البلقان ، واجتياز نهر الراين الى شبه جزيرة ايطالية والى غالية وما وراءهما . ولكن لما بدأ الضعف ينخر جسم هاتين الامبرطوريتين بالترف والتنازع وبالدهر ، منذ القرن الرابع للميلاد ، جرؤت تلك الجموع على الدنوّ من حدود الامبرطوريتين ومن اختراق تلك الحدود أيضاً .

أجناسهم وممالكهم

كان البرابرة أجناساً منهم الجرمان ، أكثر تلك القبائل عدداً وأعظمها أثراً

(١) القاموس المحيط ٣ : ٢٧١ ، راجع تاج العروس ٧ : ٣٤ .

في تاريخ أوروبة في العصور الوسطى . ومن أشهر القبائل الجرمانية قبائل القوط الذين انحدروا ، منذ أواسط القرن الثاني للميلاد ، من مساكنهم يومذاك على شواطئ نهر الفستولا (١) الى سهول أوكرانية ، شمال البحر الأسود . وهنا انقسم القوط قسمين :

(أ) قبائل عرفت باسم « ترفينغي » (سكان الغابات) ، الذين عرفوا فيما بعد باسم **القوط الغربيين** .

(ب) قبائل عرفت باسم « غرويتونغي » (سكان السباسب أو السهوب — السهول الواسعة) ، وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم **القوط الشرقيين** .

وكان نهر الدنيستر يفصل بين مساكن الفريقين .

وكان مقام القوط الغربيين بين مصب نهر الدنيستر ومصب نهر الدانوب ، على حدود البلقان مباشرة ، سبباً لنشر الدين المسيحي بينهم ، ولكن على يد الدعاة الاريوسيين ، ولذلك تقبل القوط الغربيون المذهب الاريوسي . والمذهب الاريوسي أوجده الأسقف الاسكندري أريوس ، في عام ٣١٠م . هذا المذهب يجعل المسيح انساناً كاملاً وينفي عنه الألوهية ويقول بأن الله خلقه من لا شيء » .

وصولهم الى غربي أوروبة

في مطلع القرن الخامس للميلاد كان عدد من القبائل الجرمانية قد انتشر في غربي أوروبة: في غالية وإبارية . أما الفاندال فكانوا قد انحدروا من مساكنهم ، بين نهر الفستولا ونهر الاودر (٢) ، الى المنطقة التي تعرف اليوم باسم بايَرْن (بافارية) ، جنوبي شرقي ألمانية . ثم أنهم جاءوا الى غالية وإبارية . وفي ابارية

(١) الفستولا نهر بولونية ، وتقوم عليه فرصوفية عاصمة بولونية .
(٢) الاودر Oder نهر في شرقي ألمانية ، يفصل اليوم بين شمالي ألمانية وشمالي بولونية .

سكن الفاندال في منطقتين : في رقعة ضيقة من شمالي غربي ابارية وفي رقعة واسعة من جنوبي ابارية ، بين نهر آناس (وادي آنه) وبين الشواطئ الجنوبية على البحر المتوسط والمحيط الاطلنطيقي . وعلى هذه الرقعة خلع الفاندال اسمهم فاندالوسية (أندالوسية ، الأندلس) . وكذلك كان السوابيون (١) ، وهم شعب جرماني أيضاً، قد نزلوا في شمالي غربي إبارية ، جنوب منازل الفاندال الشمالية .

القوط الغربيون في ايطالية

أما القوط الغربيون فكانوا لا يزالون في شرقي أوروبة ينازعون أباطرة المشرق (الروم البيزنطيين) ، فقد هاجموا البلقان وخاضوا مع الروم معركة أدريانوبوليس (أدرنة) ، عام ٣٧٨م ، وانتصروا عليهم . وفي هذه المعركة خرّ الامبرطور والنس صريعاً فخلفه على عرش القسطنطينية ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩—٣٩٥م) . ولكن القوط الغربيين كانوا يزدادون مع الأيام قوة . وفي العام الذي توفي فيه ثيودوسيوس وانقسمت الامبرطورية الرومانية عملياً قسمين شرقياً وغربياً ، وكان ذلك من علامات تطرّق الضعف اليها ، قدّم القوط الغربيون للرئاسة عليهم زعيماً منهم اسمه ألاريك (٣٩٥—٤١٠م) . ثم أخذوا يبحثون عن أرض يستقرون فيها لينشئوا عليها ملكاً لهم . وتغلب القوط الغربيون على الروم في البلقان مراراً ، ولكنهم كانوا يودون دائماً النزول في ايطالية نفسها . وقطع ألاريك بقومه الألب ، عام (٤٠١م) ، وسار على رومية . ولكن الرومان أقنعوه بالرجوع عنها بعد أن خلعوا عليه لقب « قائد الجند » وعقدوا معه معاهدة . فأنسحب ألاريك من ايطالية ليعود اليها بعزم أشد في صيف ٤٠٣م وليغزوَها ويقضيَ على سلطانها . ولكن ألاريك تُوفي في ذلك العام نفسه فخلفه زعيم آخر أسمه أدولف كان صِهْراً لألاريك . وسار أدولف بقومه ، عام ٤١٢م ، حتى نزل في أكويتانية الصغرى (جنوبي غربي غالية) . وكان الحكم

(١) السوابن او الشوابن قبائل جرمانية عرفت مساكنها منذ القرن الثالث للميلاد ، في جنوبي غربي ألمانية بين نهر الراين ونهر النيكر Necker ونهر الطونة .

في القوط الغربيين لا يزال الى ذلك الحين رئاسة بالعصبية ، ولم يكونوا قد أسسوا لهم دولة بعد . وفي عام ٤١٤م دخل القوط الغربيون الى إبارية .

وتُوفيّ أدولف في آخر عام ٤١٥م فاستبد بالأمر بعده فاليا (٤١٥–٤١٩م) وأسس للقوط الغربيين دولة جعل عاصمتها تولوز (٤١٩م) ، في غالية . ولما رأت رومية أن القوط الغربيين قد قَوُوا كثيراً وأصبحوا لها مصدر قلق دائم لم تجد بداً من مصانعتهم والرضا باستقلالهم فأقرّتهم على النزول في أكويتانية الصغرى على أن يتخلّوا عن سائر الأراضي التي كانوا قد استولّوا عليها .

القوط الغربيون في ابارية

وكان من حسن حظ القوط الغربيين ، في ذلك الحين ، أن كان عليهم ملك قدير هو ثيودوسيوس الاول (٤١٩–٤٥١م) . وحاسن ثيودوسيوس السوابيين وأقتسم معهم السيطرة على شبه جزيرة ابارية . ثم انه سكت عن استيلائهم على منازل الفاندال الشمالية ، بينما كان هو يتوسع في الجنوب ويدفع الفاندال عن شبه الجزيرة كلها .

الفاندال في افريقية

وفي أيام غونداريك بن غوديغيسل (٤٠٦–٤٢٨م) ، ملك الفاندال ، اشتد ضغط القوط الغربيين في ابارية على الفاندال ، وأخذ الفاندال منذ ذلك الحين بمغادرة ابارية فنزلوا ، أولَ ما نزلوا ، في الجزائر الشرقية (٤٢٣م) . فلما توفي غونداريك خلفه أخوه غايسيريك أو غانسيريك (٤٢٨–٤٧٧م) .

في هذه الاثناء كان النزاع يعصف في الامبراطورية الشرقية كما كان الضعف قد أقعد الامبراطورية الغربية : كان النزاع الديني بين الاريوسيين وبين الكنيسة الجامعة (١) على أشده في كل مكان ، في شرقي أوروبة وفي غربيّها . وكان

(١) يقصد بالكنيسة الجامعة القائلون بأن المسيح هو الله بالذات ، خصوم الاريوسيين .

الوطنيون من أهل افريقية ثائرين على الامبراطورية الغربية فتوقف ورود القمح الأفريقي الى رومية وهُدّدت رومية بمجاعة . ثم ان نظام الدفاع الروماني كان قد ضعف مع شيخوخة رومية . ويبدو فوق ذلك كله أن نزاعاً نَشَبَ بين بونيفاسيوس ، الحاكم العسكري في افريقية ، وبين والنتينيان الثالث امبراطور رومية (٤٢٥–٤٥٥م) . فيقال (١) ان بونيفاسيوس عمد الى استدعاء غايسيريك للنزول في افريقية ، إغاظة لوالنتينيان .

وفي أيار من عام ٤٢٩ أبحر غايسيريك من يوليا ترادوكتا (جزيرة طريف) في نحو ثمانين ألفاً من قومه ، فيهم نحو ألفٌ وخمسمائة مقاتل . ويبدو أن بونيفاسيوس قاومهم ، في المغرب الاوسط ، بجيش جمعه على عجل (٤٣٠م) ، أو رثاءً . وأستطاع غايسيريك أن يستولي على الشاطئ الأفريقي ، ولكن إيبّبو ريغوس (بونة ، عنابة) ، وكيرتا (قسنطينة) وقرطاجة ظلت في سلطان الرومان . وقد كان للقديس أغوسطينوس ، الذي توفي في ٢٨ آب من عام ٤٣٠ ، في أثناء حصار بونة ، أثر كبير في إطالة المقاومة في تلك المدينة — ولا غرو فانه كان كاثوليكياً كالرومان ، بينما الفاندال كانوا أريوسيين . ومع أن الفاندال فقدوا عدداً كبيراً من قومهم في هذه المغامرة ، فانهم قلصوا حكم الرومان عن أفريقية . ووجد الامبراطور والنتينيان نفسه عاجزاً عن رد الفاندال فعقد معهم معاهدة (١١ شباط ٤٣٥) أقرهم فيها على النزول في المغرب على أن يتطوعوا في جيش الامبراطورية .

واستقر الفاندال في المغرب واتخذوا بونة عاصمة لهم . ولم يتمكن الرومان من فرض نصوص معاهدتهم على الفاندال ، للضعف الذي كانوا فيه ، فهاجم غايسيريك قرطاجة وفتحها (١٩ تشرين الاول ٤٣٩) من غير أن يلقى مقاومة تذكر . وأعلن غايسيريك نفسه ملكاً في قرطاجة واتخذها عاصمة له . ثم انه تشدد في سياسته الدينية فأبعد الكاثوليكيين من الاشراف ورجال الدين عن البلاد

(1) Cf. Camb. Med. Hist., I 305.

واستعبد العامة من الكاثوليكيين ممن لم يرضوا مغادرة البلاد أو لم يكونوا قادرين على مغادرتها . وكذلك صادر غايسيريك أموال الكاثوليكيين وأملاكهم وأعطاها للاريوسيين .

وفي عام ٤٤٠م هاجم غايسيريك جزيرتي سردانية وسقلية ، فبعث الروم البيزنطيون أسطولاً لاستنقاذهما منه. فلما وصل ذلك الأسطول الى سقلية اضطر الروم الى رده لأن الهون والفرس كانوا قد أخذوا يهاجمون تخوم الامبرطورية ؛ ثم اضطر والنتينيان الثالث الى عقد معاهدة جديدة مع غايسيريك (٤٤٢م) يعترف فيها بسيادة الفاندال الكاملة على الشاطئ الأفريقي .

وعاد القوط الغربيون الى محاسنة الفاندال والسوابيين ، فقد أعطى ثيودوريك احدى بناته الى هاينريك بن غايسيريك (٤٤٢م) كما أعطى بنتاً أخرى من بناته الى ملك السوابيين ، وذلك قبل موته بعامين فقط .

أما العداوة بين الفاندال والامبرطورية الغربية فكانت في ازدياد ، ففي عام ٤٥٥م اقتحم غايسيريك مدينة رومية وأباحها لجنده أربعة عشر يوماً . وفي العام التالي استولى على جزيرة سردانية ، ثم استولى على جزيرة كورسيكة في عام ٤٦٩م

سقوط رومية

في هذه الأثناء كانت الامبرطورية الرومانية في الغرب قد ضعفت وتوالى على عرشها أباطرة ضعاف كسالى فأخذ القادة الجرمان يعزلون منهم من شاءوا ويولون من شاءوا . وكان في الحرس الامبرطوري المرابط في رافنّا (١) قائد من الجرمان اسمه آدوفاكر (٢) ؛ ورأى آدوفاكر حال الأباطرة والامبرطورية فخلع روموlوس أغوسطولوس آخر أباطرة الرومان وأعلن نفسه ملكاً في ايطالية ، عام ٤٧٦م ، ثم كتب الى زينون (٤٧٤–٤٩١م) امبرطور القسطنطينية يخبره بما فعل ويقر بسلطته عليه . فلم يجد زينون بداً من اقرار آدوفاكر على عرش رومية

(1) Ravenna .
(2) Odoacer, Odowakar, Otacher.

كَرْهاً . وهكذا انقسمت أوروبة قسمين اثنين : قسماً شرقياً هو الامبرطورية البيزنطية ، وقسماً غربياً نشأت فيه الدول الجرمانية المختلفة التي كانت منها الدول الاوروبية الحديثة . وهكذا كان عام ٤٧٦م تاريخاً لسقوط رومية ولانقراض الامبرطورية الرومانية الغربية ولنهاية العصور القديمة وبدء العصور الوسطى .

مقتل آدوفاكر

وحكم آدوفاكر مملكته بعد سقوط رومية بالعدل والحلم ثم وسع رقعة ملكه لما استولى على دالماسية ، على الساحل الغربي من شبه جزيرة البلقان . وهال ذلك الامبرطور زينون فدفع ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين الى الهجرة بقومه من شبه جزيرة البلقان الى ايطالية وعينه حاكماً عسكرياً عليها . وهكذا يكون زينون قد تخلص من القوط الغربيين وخلق لخصمه آدوفاكر منافساً قوياً ، وذلك في عام ٤٨٨م . وفي العام التالي اشتبك آدوفاكر وثيودوريك في حرب انهزم فيها آدوفاكر فلجأ الى مدينة رافنّا وكانت حصينة جداً . وبعد حصار دام عامين ونصف عام اضطر آدوفاكر الى الاستسلام فاستأمن من ثيودوريك ؛ ولكن ثيودوريك غدر بآدوفاكر وذبحه بيده ، في منتصف آذار من عام ٤٩٣ ، ثم تتبع أصحابه بالقتل واحداً واحداً .

اضطراب أحوال الفاندال

لما توفي غايسيريك ، ملك الفاندال ، في ٢٥ كانون الثاني (يناير) من عام ٤٧٧ ، لعبت الفوضى في مملكته زماناً طويلاً . ويرجع السبب الأول في ذلك الى أن الايمازيغن (١) الذين لم يكونوا راضين على حكم الرومان لم يرضوا أيضاً عن حكم الفاندال . ففي عام ٥٢٥م ، في أيام هيلديريك (٥٣٤–٥٣٠م)

(١) « الايمازيغن » كلمة بربرية معناها « الاحرار » ، وهو الاسم الذي كان يطلقه أهل المغرب على أنفسهم ولا يزالون .

استطاع الايمازيغن أن يستعيدوا ساحل طنجة وأن يحموا جنوبي المغرب الأوسط كله . وانهزم هيلديريك أمام الايمازيغن هزائم منكرة .

وأثارت هذه الهزائم نبلاء الفاندال فخلعوا هيلديريك وقدموا عليهم زعيماً أسمه غيلمير (ويقال غلمار وغيليمير) . فخلع غيلمير هيلديريك وألقاه في السجن ثم ملك مكانه . واستنجد هيلديريك بيوستنيانوس الاول (٥٢٧–٥٦٥م) فان هيلديريك كان مشايعاً للروم وعلى مذهبهم ، بينما غيلمير كان أريوسياً ، وأراد يوستنيانوس أن ينجد هيلديريك لأنه كان يطمع في استرداد المقاطعات التي كانت قد تساقطت من الامبرطورية الرومانية في غربي أوروبة وشمالي افريقية تحت سنابك البرابرة الجرمان . ولكن الاضطراب الذي كان سائداً يومذاك في الامبرطورية الشرقية حال دون ذلك . ثم ساءت حال القسطنطينية خاصة ونشبت فيها فتنة ، عام ٥٣٢م (من ١١ – ١٨ كانون الثاني) ، سقط فيها ثلاثون ألف قتيل على الأقل (وقال بعضهم بل خمسون ألفاً) . ورأى يوستنيانوس أن الأمر قد خرج من يديه وأن ملكه زائل لا محالة ، فأراد أن يهرب من القسطنطينية ناجياً بنفسه ؛ غير أن زوجته ثيودورا ثبّتته واستثارت نخوته حتى عزم على التمكين لنفسه ولعرشه .

ولما هدأت الحال في القسطنطينية عاد يوستنيانوس الى التفكير بشمالي افريقية وبهيلديريك وغيلمير ، فأرسل حملة على شمالي افريقية ، عام ٥٣٣م ، بقيادة أعظم قواده بليساريوس ؛ فانهزم غيلمير ثم استسلم (آذار ٥٣٤) ، وقُضي يومذاك على مملكة الفاندال .

على أن القضاء على مملكة الفاندال في شمالي افريقية لم يرد شمالي افريقية الى الامبرطورية الرومانية الغربية ولا جعل شمالي افريقية تستقر تحت سلطان الامبرطورية الرومانية الشرقية . ذلك لأن الايمازيغن استمروا في ثوراتهم على الروم . ومع أن الروم قد حاولوا اخضاع الايمازيغن في فترات مختلفة ، في ٥٣٨ ، ٥٣٩–٥٤٤ ، ٥٤٦–٥٤٨م ، فانهم لم يستطيعوا أن يفرضوا على شمالي افريقية سوى ظل خفيف من سلطانهم ، وعلى عدد قليل من المراكز الساحلية فقط .

تبسط القوط الغربيين في ابارية

لما وثب ثيودوريك الأكبر ملك القوط الشرقيين في ايطالية على آدوفاكر وذبحه أصهر الى الفرنجة فتزوج بنت ملكهم كلوديفيك (كلوفيس) ، وقيل بل أخته (١) . وقد غل هذا التقارب بين القوط الشرقيين وبين الفرنجة يد الرومان ثم مكّن القوط الغربيين من التوسع في غربي أوروبة ، اذ استطاعوا في مطلع القرن السادس للميلاد أن يحتلوا بقيادة زعيمهم الاريك الثاني (٤٨٤–٥٠٧م) معظم ابارية . ولكن سرعان ما بدأ النزاع بين الفرنجة وبين القوط الغربيين ، وأخذت مملكة القوط الغربيين تتسع في ابارية وتضيق في افرنجة حتى تقلصت عن إفرنجة كلها الا رقعة صغيرة على ساحل البحر الأبيض . وحاول الفرنجة التقدم الى ابارية ولكن القوط الغربيين ردوهم . وفي عام ٥٠٧م نشبت معركة بين كلوفيس ملك الفرنجة وألاريك الثاني ملك القوط الغربيين في فوغله أو فوييه (٢) قرب بواتيه سقط فيها ألاريك الثاني صريعاً . واستولى الفرنجة على ما كان قد بقي للقوط الغربيين من الأرض في غالية وأحتلوا عاصمتهم تولوز ، فنقل القوط الغربيون عاصمتهم الى طليطلة .

وكان لا يزال للروم البيزنطيين سلطان خفيف على عدد من المدن الساحلية والداخلية في ابارية ، فجعل القوط الغربيون ينتزعون منهم تلك المدن واحدة واحدة ، كما ضموا اليهم (٥٨٥م) مملكة السوابيين . وهكذا تمّ في أيام ليوفيغلد (٥٧٣–٥٨٦م) توحيد المملكة القوطية .

الفرنجة في غالية

بدأت غزوات البرابرة لغالية في القرن الرابع للميلاد : غزاها القوط الغربيون والفاندال والهيطل (الهون) ، ثم غزاها الفرنجة في القرن الخامس .

(1) Enc. Br. 26:799.
(2) Vouglé, Vouillé, Vgl. Der Grosse Brockhaus I 141 .

وأقام ميروفيك مملكة للفرنجة في غالية عام ٤٤٨م . ثم لما توفي (٤٥٨م) خلفه ابنه شيلديريك . وجاء بعد شيلديريك ابنه كلوديفيك — ويسميه العرب قلوديه (١) والفرنسيون كلوفيس — وحكم واحدة وثلاثين عاماً (٤٨١—٥١١م) . وقاتل كلوديفيك الرومان كما قاتل بعد ذلك القبائل الجرمانية النازلة في غالية : قاتل الالمانّي والبورغنديين والقوط الغربيين ، ثم وحّد الفرنجة وحكم غالية كلها وأسس فيها المملكة الفرنجية . وصبأ كلوديفيك الى النصرانية وتقبل المذهب الكاثوليكي من أول أمره ، قيل باغراء من امرأته قلوطلد (٢) — أو كلوتيلد .

ولما مات كلوديفيك تقسم ابناؤه الأربعة مملكته . وأشهر أقسام المملكة الفرنجية بعد كلوديفيك :

(أ) نوسترّية (المملكة الغربية) ، وكانت تقع ما بين نهر اللوار ومقاطعة بريتانية ، وما بين بحر المانش ونهر الموز .

(ب) أوستراسية (المملكة الشرقية) ، أو الجزء الشمالي الشرقي من غالية ، وكانت عاصمته مدينة متز (قاعدة اللورين) .

وتنازع ابناء كلوفيس وأحفاده وتحاربوا فقوي النبلاء في ممالكهم ، ثم أصبح رؤساء النبلاء حجّاباً في بلاطات ملوك الفرنجة . ثم ان هؤلاء الحجاب أخذوا يستبدون بالحكم شيئاً فشيئاً الى أن حجروا على الملوك مرة واحدة وأصبح الحكم لهم على الحقيقة ولأولئك الملوك على المجاز .

الهيطـــل (الهون)

الهيطل جموع آسيوية تتصل بأسلاف المغول والأتراك في النسب البعيد . والهيطل قوم قصار أشداء قساة عتاة .

وفي أواسط القرن الرابع للميلاد كان الهيطل قد استقروا على التخوم الشرقية من قارة أوروبة . ثم انهم هزموا القوط الشرقيين وسائر القبائل الجرمانية في

(١) و (٢) الروض المعطار ٢٧ .

شرقي أوروبة واندفعوا غرباً حتى استقروا على الدانوب وبنَوا امبرطورية امتدت في القرن الخامس للميلاد من جبال القوقاس ونهر الدانوب الى بحر البلطيق في الشمال .

وتمت قوة الهيطل في أيام زعيمهم أتيلا (٤٤٥—٤٥٣م) الذي قطع بهم نهر الراين وسقط على إفرنجة . ولكن ميروفيك ملك الفرنجة تحالف مع القوط الغربيين وهزم الهون في معركة شالون (١) ، عام ٤٥١م .

وأستطاع الهون أن يصلوا ، في عام ٥٥٨م ، الى أسوار القسطنطينية . غير أن امبرطورية أتيلا تقطعت بعد موته إرْباً .

أواخر ايام القوط في أبارية

وبدأ عامل جديد من عوامل الضعف ينخر في جسم المملكة القوطية ، ذلك هو النزاع الديني . في أواسط القرن السادس للميلاد كان على عرش القوط في ابارية ملك اسمه أخيلا (٥٤٩—٥٥٤م) ، وكان في أيامه نبيل أسمه اتاناغيلد (اتاناخيلدو) يطمع بأن يعصب رأسه بالتاج . فلم يرَ اتاناغيلد أهون من أن يُسِرّ المذهبَ الكاثوليكي ثم يستنجد بيوستنيانوس على آخيلا الاريوسي المذهب. وأرسل يوستنيانوس جيشاً روميا الى ابارية ، عام ٥٥٤م ، دحر آخيلا بمساعدة اتاناغيلد ورفع أتاناغيلد على العرش ثم أعاد سلطان القسطنطينية على عدد من مدن الجنوب الساحلية والداخلية (٢) . ولكن أتاناغيلد لم يرض عن محاولة الروم لاسترداد سلطانهم على ابارية فأخذ يحاربهم . ولما توفي أتاناغيلد في عاصمته طليطلة ، في أواخر عام ٥٦٧م ، ظل العرش بعده خالياً — بما تبع موته من النزاع — الى ربيع عام ٥٦٨م ، أو الى صيف ذلك العام . وتسنم عرش القوط الغربيين ابن لاتاناغيلد اسمه ليُوفا أو لُوَيْفا . ولكن ليوفا لم يستطع أن يحكم البلاد حكماً مطمئناً واخوته ينازعونه. فقبل أن يشرك معه في الحكم ، في آب من عام ٥٦٩م،

(١) تقع شالون على نحو ١٥٠ كيلومتر من باريس جنوباً في شرق .

(2) Cf. Bréhier, i 30, Historia de Espana 95-96.

أخاً له أسمه ليوفيغيلد ، ثم تخلّى له عن ابارية كلها، اي عن جزئي المملكة ، وقنع هو بالقليل الذي كان قد بقي للقوط في جنوبي غالية . ومات ليوفا في عام ٥٧٣م وخلص الملك لأخيه ليوفيغيلد .

وحمي وطيس النزاع الديني في ابارية ، ولكن وراء ستار شفيف من السياسة.

كان القوط الغربيون أقلية أريوسية تعيش في بحر من الجموع الكاثوليكية . أن الرومان أصحاب الامبرطورية كاثوليك، وجيران القوط من الشرق وخصومهم كانوا كاثوليكاً . والفرنجة جيران القوط في الشمال وأعداؤهم الالدّاء كانوا كاثوليكاً منذ اليوم الذي اعتنقوا فيه النصرانية . وكذلك كان كثيرون من سكان ابارية ، ممن كانوا من أصل رومي أو روماني أو من سكان البلاد الاصليين ، كاثوليكاً . وفي أيام أتاناغيلد صبأ الملوك السوابيون الى المذهب الكاثوليكي . لقد كان ذلك كله من أقوى الأسباب التي دفعت اتاناغيلد الى أن يؤامر نفسه في اعتناق المذهب الكاثوليكي تخفيفاً لعداوة جيرانه وتزلفاً الى أباطرة الروم وباباوات رومية في سبيل غاياته السياسية .

في هذا الجو الخانق من النزاعين الديني والسياسي كان ليوفيغيلد قد تزوج ثيودورا بنت سابريانو ، وكانت كاثوليكية، فرزق منها ولدين : هرمانينغليلد وريكاردو اللذين نشأا أريوسيين على مذهب أبيهما . ثم ماتت ثيودورا فتزوج ليوفيغيلد غوئسبنتا (أو غودسفنتا) أرملة أتاناغيلد ، وكانت أريوسية متحمسة .

وثار النزاع في البلاط لما تزوج هرمانينغيلد ، عام ٥٧٩م ، إنغونديس بنت ملك اوستراسية الفرنجي زيغوبرت ، وكانت كاثوليكية . لقد كانت الحماة غوئسبنتا تصر على حمل الكنة على اعتناق الأريوسية ، بينما كانت الكنة تحاول التأثير على زوجها ليصبأ الى الكاثوليكية . وأراد ليوفيغيلد أن ينقذ ابنه من هذا الجحيم فبعث به حاكماً على اشبيلية . وكان المذهب الكاثوليكي غالباً على منطقة اشبيلية ، فاجتمع الجو الكاثوليكي مع رغبة الزوجة — وربما مع التلويح له بأن يتولى الملك وشيكاً أيضاً — فانقلب هرمانينغيلد كاثوليكياً. وفعلاً أعلن هرمانينغيلد نفسه ملكاً في جنوب ابارية وحالف الروم ثم عقد العزم على محاربة أبيه. وغيظ

الوالد ثم دبّر مقتل ابنه ، في ١٣ نيسان ٥٨٥ ، في حديث طويل . وفي العام التالي توفي ليوفيغيلد نفسه .

وغبر بعد ذلك نصف قرن من الدهر تعاقب فيه على عرش القوط ثمانية ملوك امتلأت أيامهم بالمنازعات الدينية بين الكاثوليك والاريوسيين ، وبالنزاع على العرش ، وبالاضطهاد الاجتماعي لليهود خاصة . في هذه الاثناء جاء سوئنتيلا الى العرش عام ٦٢١م (قبل الهجرة بعام واحد) . ومع أن سوئنتيلا كان أول ملك توحدت ابارية في أيامه ، فان القوط خلعوه في عام ٦٣١م (قبل وفاة الرسول بعام واحد أيضاً) ؛ وأقاموا مكانه ملكاً اسمه فامبا . غير أن الاضطراب استمر . ثم نهض في الشمال نبيل اسمه باولو تسمى بالملك ولم يتحوب من أن يستعين بالفرنجة على قومه . في هذه الاثناء ، في أيام عبد الملك والوليد ، كانت الجيوش العربية قد وصلت الى المغرب وأخذت تتحفز للوثوب على القوط من الجنوب .

ونقم رجال الدين والنبلاء على فامبا وخلعوه ثم ردوا الى العرش وارثاً من أسرة كنداسبنتو يدعى ارفيغ (ارفيغليو ، اربيخيو) عام ٦٨٠م . واشتط ارفيغ في معاملة أنصار فامبا ، ثم عزم على استئصال اليهود من ابارية وحمل قوماً منهم على الصبوء الى النصرانية بالقوة وأخضعهم لمراقبة دقيقة حتى يعرف مقدار ولائهم لدينهم الجديد . أما الذين لم يكونوا قد صبأوا الى ذلك الحين فأعطاهم مهلة عام واحد آخرها أول شباط من عام ٦٨٢ حتى يصبأوا . ومع ذلك فان سياسته هذه كانت أرحم من قوانين ريسسفنت (٦٤٩—٦٧٢م) لأنه لم يأمر بقتلهم.

وقبل أن يتوفّى ارفيغ (٦٨٧م) سمى آخيكا ، أحد أقرباء فامبا ، خلفاً له . ولكن القلاقل والمؤامرات في البلاد استمرت واتسعت . ورأى أخيكا ، جرياً على عادة ملوك القوط ، أن يشرك ابنه غيطشة معه في الحكم (٦٧٨م) . فلما توفي آخيكا (٧٠٢م) استمر غيطشة في حكم البلاد وحده ، وكان شاباً حليما ليّناً فعفاعن كثيرين من الذين كادوا لأبيه أو اضطهدوه. ولم يَخْطُ غيطشة في أثناء حكمه خطوة الا كان فيها ضربةٌ تَنزِل بالمملكة القوطية ، فان الفتن والمكائد لم

تنقطع في أيامه قط . ولعل أعظم كارثة حلت بالمملكة القوطية على يده كانت خلافه مع أوربان ، سيد افريقية الطنجية وصاحب سبتة في افريقية والجزيرة الخضراء في الأندلس (١) .

كان أوربان هذا — والعرب يسمونه بليان (٢) ، والشعراء الأسبان يدعونه الكونت خوليان (٣) — بربرياً من قبيلة غُمارة وعلى المذهب الكاثوليكي . وكان أوربان قد دافع العرب عن شمالي افريقية دفاعاً شديداً ، ثم رأيناه يستسلم في أوائل سنة ٩٠هـ (مطلع عام ٧٠٩م) لموسى بن نصير فجأة . ونحن لا نعلم سبباً لذلك (٤) : أهو خلاف سياسي أو ديني ، أم هو انقطاع للمدد عنه من قِبَل غيطشة لفقر الدولة أو لاضطراب حبل الأمن فيها وللنزاع الداخلي على العرش ؟ أو لعل سبب ذلك ما يحكى عن لذريق من أنه فضح أوربان في ابنته ، وذلك — إن صحت الرواية — بغيطشة الشاب أليق !

واختلف المؤرخون في موقفهم من غيطشة (٥) : فقومه يذكرون عهده بالسوء. أما العرب فيصفونه بالحسنى والعدل والادارة الحكيمة . وتوفي غيطشة في أوائل عام ٧١٠م (٩١هـ) ، فخلقت وفاته فوضى لا أمل في السيطرة عليها . ولقد حرّصت أرملة غيطشة على أن ترد الملك الى أحد أبنائها آخيلا . ولكن نفراً كثيرين من النبلاء القوط لم يرضَوا بآخيلا (ربما لسوء سياسة أبيه ولينه وللفوضى التي نبعت في أثناء حكمه) فاختاروا نبيلاً أسمة لذريق (أو رودريق) ليَلِيَ الملك على القوط . وكان لغيطشة أخ أسمه أبّا (أوباس) كان غيطشة قد جعله أسقفاً على اشبيلية . فوقف أبّا في جانب ابن أخيه آخيلا وفي وجه لذريق .

(١) ابن فتوح مصر ٢٠٥ ، البيان المغرب ٢ : ٤ .

(٢) فتوح مصر ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، أخبار مجموعة ٥ ، البيان المغرب ٢ : ٤ .

(3) Don Juliàn, cf. Historia de Espana, tomo III, pp. LI, LII, LIV,136

(4) Historia de Espana, t. III, p. LII.

(٥) لعله وخشندش الذي ذكره ابن عذاري (البيان المغرب ٢ : ٢–٣) : Witiza

سطح المغرب وإبارية

•

المغرب على الحصر هو الزاوية الشمالية الغربية من قارّة افريقية ، وهو يمتد من تخوم طرابلس الغرب الى المحيط الاطلنطيكي غرباً ، ومن البحر الأبيض المتوسط الى نهر النيل ، **نيل السودان** (١) جنوباً . وعلى هذا تكون مساحته نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون كيلو متر مربع . ويتألف المغرب على الحقيقة من منطقتين مختلفتين : منطقة جبلية في الشمال ومنطقة سهلية صحراوية في الجنوب .

أما المنطقة الشمالية فهي هضبة تمتد فيها جبال الأطلس (٢) . وتحجز هذه الهضبة بين مياه البحر (الأبيض المتوسط) وبين الصحراء . وتاريخ المغرب يدور في هذه الهضبة ، كما أن حياته الاقتصادية تتجمع في هذه المنطقة .

وسلسلة جبال الأطلس تخترق المغرب كله وتمتد من رأس غير (بكسر الغين) شمال أغادير ، على المحيط الاطلنطيكي في الجانب الجنوبي الغربي من الهضبة الآنفة الذكر ، الى الرأس الطيب (٣) من ساحل القطر التونسي ، في الجانب الشمالي الشرقي من هضبة المغرب ، مسافة ألفين وخمسمائة كيلو متر . وترتفع سلسلة جبال الأطلس فجأة في المغرب الأقصى ثم تأخذ بالانحدار تدريجاً ، إلاّ قمماً هنا وهنالك ، حتى تبلغ أدنى انخفاضها في القطر التونسي . وهكذا نرى

(١) نيل السودان الذي تقع عليه غانة وتكرور (مقدمة ابن خلدون ٩٠ – ٩١) ، وهو نهر النيجر . ويحسن أن نلاحظ أن كلمة Niger (نيجر ، بالجيم المصرية ، معناهـا في اللاتينيـة « الاسود » أو « المسود » . فهي اذن كلمة « السودان التي ذكرها ابن خلدون .

(٢) ان كلمة « أطلس » الدالة على هذه السلسلة من الجبال قديمة العهد. ولعلها تشويه يوناني للكلمة البربرية « أدرار » ، أي الجبل .

(٣) في الافرنسية Cap Bon ، وهي نقل لمعنى التسمية العربية .

أن سلسلة جبال الأطلس تدل على وحدة المغرب الجغرافية ، تلك الوحدة التي جعلت منه أيضاً وحدة جنسية ثم وحدة سياسية في معظم أدوار تاريخه .

وسلسلة جبال الاطلس تنقسم ثلاثة فروع : الأطلس الأوسط (في الشمال) ثم الأطلس الأكبر أو الأعلى (في الوسط) ، أو جبال الأطلس على الحصر . ثم الأطلس الأصغر (في الجنوب الغربي) ، وهو على الحقيقة هضبة واسعة عظيمة الأرتفاع . ومركز السلسلة كلها في المغرب الأقصى ، وهنالك تبلغ أقصى ارتفاعها اذ يرتفع عدد من قممها ، في الشمال والجنوب ، ما بين ألفين وخمسمائة وبين أربعة آلاف (٢٥٠٠—٤٠٠٠) متر فوق سطح البحر .

وينشأ من الأطلسين الأوسط والأكبر امتدادات تسير مصاقبة لساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهي التي تربط بين أقطار المغرب وتخلق وحدته . أما الأطلس الأصغر فيقع كله في المغرب الأقصى . وهو يتصل بالأطلس الأكبر ، وقد يُعدّ معه .

وجميع الدروب والمخارم في سلسلة جبال الأطلس تتجه من الشرق الى الغرب . من أجل ذلك كان قطع تلك الجبال من الشرق الى الغرب أهون من قطعها من الشمال الى الجنوب .

وسكان المغرب وحدة جنسية لا شك في ذلك ، على ذلك أجمع الدارسون . وقد عُرف المغرب ، من قبل أن يَعرف (هو) الأفرنج ، ببلاد أمازيغ أي الوطن الحر ، وعُرف سكانه ... باسم الإيمازيغن أي الرجال الأحرار (١) .

غير أن تسمية سكان المغرب بالبربر تسمية قديمة صحيحة عرفها اليونان والرومان والساميون ، كما عرفها العرب. ولقد ذكرها امرؤ القيس في شعره ذِكْرَ كلمة فصيحة مشهورة . أما وجه اشتقاق الكلمة فقد غاب ، لقدمه ، عن رواة اللغات وعلمائها .

ولسنا نعرف في تاريخ المغرب حدوداً طبيعية بين أقطار المغرب السياسية التي ظهرت على الخرط منذ الاحتلال الفرنسي . ثم ان هذه الحدود لا تزال الى اليوم

(١) الحركات الاستقلالية ، و .

حدوداً عرفية رسمتها السياسات الدولية لا الشعور الوطني . على أن هنالك تسميات اقتضتها المسافات الجغرافية كالمغرب الأدنى للقطر التونسي ، والمغرب الأوسط للقطر الجزائري ، والمغرب الأقصى للقطر الذي عرف في التاريخ الحديث خطأ باسم مرّاكش .

المغرب الادنى (القطر التونسي)

المغرب الادنى أصغر الأقسام السياسية في المغرب اليوم . وهو بلد زراعي في الاكثر . والقطر التونسي منطقتان : المنطقة الشمالية الجبلية والمنطقة الجنوبية السهلية . أما المنطقة الشمالية فتتألف من التلّ التونسي ، أو الأطلس التلّي ، وبها تنتهي سلسلة جبال الأطلس . وهذه المنطقة الجبلية تتخللها أودية خصيبة وسهول داخلية . وأما المنطقة الجنوبية فسهوب واسعة تتمتع بشي من الريّ في شمالها وتطغى الصحراء على الجزء الجنوبي منها . وفي هذه المنطقة يكثر النخيل . أما شواطئ القطر التونسي فكلها خصيبة .

وليس في القطر التونسي من الأنهار المهمة سوى نهر مَجْرَدَة ، وهو نهر ينبع على مقربة من سوق أهْرَاس في المغرب الأوسط (الجزائر) ثم يخترق المنطقة الشمالية من القطر التونسي الى أن يصل الى مقربة من مدينة تونس . وهنالك أيضاً وادي زُرُود ، وهو نهر يصل الى مقربة من مدينة القيروان .

المغرب الاوسط (القطر الجزائري)

يتألف المغرب الأوسط من أربع مناطق تمتد متوازية من الشرق الى الغرب : أقليم التلّ ثم النجود ثم الأطلس الصحراوي — وهذه المناطق الثلاث تتألف من امتداد سلسلة جبال الأطلس في القطر الجزائري — ثم أقليم الصحراء .

والمغرب الأوسط وفير المياه كثير الأنهار ، فمن أشهر أنهاره : وادي مَجْرَدَة الذي ينبع على مقربة من سوق أهْرَاس ويصب في القطر التونسي . ثم وادي سِيبُوس الذي ينبع شرق مدينة عين البيضاء ويحمل حوضه الأعلى

(الجنوبي) اسم وادي الشّارِفْ . أما حوضه الأدنى (الشمالي) فهو الذي يعرف باسم وادي سِيبُوسْ . وهو يصب عند مدينة عَنّابة أو بُونَة. ثم هناك وادي الرمل أو وادي الرّمّال ، وهو يمر بمدينة قُسَنْطِينة. (واللفظ الشائع في المغرب : قَسَنْطِينَه) ثم وادي سِبَاوْ الذي ينبع من جبال الجَرْجَرَة ويخترق بلاد القبائل الكبرى . ثم وادي الشليف ، وهو أطول أنهار القطر الجزائري وأهمها ويعرف منذ خروجه في جبال عَمّور جنوب جبل سيدي عقبة باسم وادي صباغ ثم باسم الوادي الطويل ثم باسم وادي البيضاء ، ثم اذا اتصل بنهر واصل أصبح اسمه وادي الشّليف حتى يصب بين المرسى الصغير ومُسْتَغَانِمْ .

المغرب الاقصى ، وهو المغرب على الحصر

يقع الجزء الاوفي من سلسلة جبال الأطلس في المغرب الأقصى . ويتألف المغرب الأقصى من منطقتين : مختلفتين : المنطقة الشمالية (أو الشمالية الغربية) وهي منطقة جبلية ثم المنطقة الجنوبية (أو الجنوبية الشرقية) ، وهي منطقة صحراوية . ويمتد على سواحل المغرب الأقصى سهل يتسع أحياناً فيبلغ عرضه نحو ثمانين كيلو متر عند الدكّالة ويضيق حتى يكاد ينعدم عند الرِباط مثلاً :

وتكثر الأنهار الدائمة والأودية المتقطعة في المغرب الأقصى . فمن الأنهار الكبار وادي سَلْوِيت ووادي مَلْوِيّة ، وهما يصبان في البحر الأبيض المتوسط ثم هنالك وادي سبو ، وهو يصب شمال القنيطرة (بورليوطي سابقاً) ، ووادي أم الربيع ، ووادي تَانْسِيفْت (ويقال : تَنْسِيفْت) ، ووادي سوس ، ووادي الذراع (١) ، وكل هذه تصب في المحيط الاطلنطيقي . ويعد وادي الذراع حداً فاصلاً بين الخصب والجفاف ، بين الأرض المروية والصحراء .

(١) يلفظ اسم هذا النهر في المغرب « الدراع » ، بالدال المهملة . وقد يقال له « درا » باسقاط العين أيضاً . ويقال له أيضاً درعه .

ليبيـــة

ويتبع المغرب بقعة تقع شرقه وتبلغ مساحتها نحو مليوني كيلو متر مربع تعرف باسم ليبية (١) :

تتألف ليبية من منطقة ساحلية ومنطقة داخلية عميقة تتصل بالسودان من أواسط قارة افريقية . أما الشاطئ فينقسم قسمين كانا وما زالا متميزين في طبيعتهما : بَرقة المتصلة من الشرق بالتخوم المصرية ، وطرابلس المتصلة من الغرب بالقطر التونسي . وهذا الشاطئ في الحقيقة امتداد طويل من الصحارى والتلال الكلسية والواحات ، ولكن المياه فيه قليلة جداً .

على أن بَرقة على الأخص خصبة ، وخصوصاً منطقة الجبل الأخضر بما فيها من الأشجار الحرجية والأشجار المثمرة ، من النخيل والزيتون والكروم ومن الزروع . غير أن خط الفتح العربي كان يسير والشاطئ ، وقل ما مال العرب في فتوحهم هناك الى الداخل .

جزيرة الاندلس (إبارية ، ايبرية)

جزيرة الأندلس اسم كان يطلق في الأصل على بقعة صغيرة هي شبه جزيرة في أول المجاز المسمى بالزُقاق (مضيق جبل طارق) ، وهي الجزيرة الخضراء التي عرفت فيما بعد باسم جزيرة طريف (١) . غير أن العرب أطلقوا **جزيرة الاندلس** على جميع شبه جزيرة **إبارية** أو **إيبرية** (اسبانية والبُرتغال). وهي شبه جزيرة في الطرف الجنوبي الغربي من قارة أوروبة مساحتها نحو ستمائة ألف (٦٠٠,٠٠٠) كيلو متر مربع .

على أن **جزيرة الاندلس** أو **الاندلس** كانت تطلق في الواقع على البلاد التي حكمها العرب من شبه جزيرة ايبرية . من أجل ذلك كان هذا الأسم يطلق على

(١) في فتوح مصر : لوبية (ص ٣٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٠) .
(٢) الروض المعطار ١٢٧.

رقعة من الأرض كانت تتسع وتضيق باتساع الحكم العربي هناك حيناً وتقلصه حيناً آخر . وربما مدّوا هذه التسميّة الى ما وراء جبال البرانس من ارض إفرنجة (١) .

وسمى العرب هذه البلاد **جزيرة** لأنهم في الدرجة الأولى لم يكونوا يفرقون في التسمية بين الجزيرة وشبه الجزيرة . ثم ان ايبرية تحيط بها المياه من معظم جهاتها (٢) : يحدها البحر الشامي (الأبيض المتوسط) من الشرق والجنوب الشرقي ، ويحدها البحر المظلم المحيط (الأقيانوس الأطلنطي) من الجنوب الغربي والغرب ، ويحدها بحر الانقلشيين (البحر الانكليزي) ، بحر غسقونية المتصل بالبحر الانكليزي) من الشمال الغربي . ثم أن جبال البُرْت أو البورتات (البرانس ، الثنايا ، العقاب) تحدها من الشمال الشرقي فتفصلها عن الأرض الكبيرة (إفرنجة ، فرنسة) .

والقسم الأوفر من قلب جزيرة الأندلس نجد مرتفع متحيّز في مكانه . وهو يتألف من هضبتين تعلوان نحو سبعمائة متر على سطح البحر ، والشمالية منهما أعلى من الجنوبية قليلاً . أما الهضبة الشمالية فهي بلاد ألبَة وقَشْتالة القصوى (٣) شمال مجريط (مدريد) . وأما الهضبة الجنوبية فهي قشتالة الدنيا (٤) ، جنوب مجريط . وينتهي النجد الذي يتألف من تينك الهضبتين من جميع جهاته ، وخصوصاً من الشرق والشمال والغرب ، بأجراف (منحدرات شديدة) .

والأندلس كثيرة الجبال التي تنتشر في جميع أرجائها ، وخصوصاً في الشمال الغربي مثل جبال قنطبرية ، وهي جبال أَسْتَوْريش وجيليقية . هذه الجبال تتصل بجبال البُرْت وترتفع حتى تبلغ أحياناً ألفين وخمسمائة متر عن سطح البحر . ومن جبال الأندلس المهمة جبال الشارّات ، أو شارّات وادي الرمل ، وهي تفصل بين قشتالة القصوى وقشتالة الدنيا . ويتصل بهذه الجبال من الغرب

(١) الحلل السندسية ١ : ٣٢ .
(٢) الروض المعطار ٢.
(٣) قشتالة أوقشتيلة أو قشطالة القصوى هي قشتالة العليا ، البعيدة أو القديمة .
(٤) قشتالة الدنيا : القريبة ، السفلى ، الجديدة .

جبال غرّيذوس وجبال غاتا ثم جبال استَريلا التي هي في البرتغال اليوم . ومنها شُلَيْر أو جبل الثلج (١) جنوب غرناطة. وهنالك جبل يدعى جبل البرانس في فحص قرطبة ، غير البرانس الذي هو جبال البرت في الشمال . وكذلك تقوم قرطبة في سفح جبيل يدعى جبل العروس .

ومثل جبال الأندلس في الكثرة والأهمية أنهارها . ومعظم هذه الأنهار تنحدر من هضبتي الأندلس وتتوزع في أراضيها ، متجهة في الاكثر نحو الجنوب . وبعضها ، وهو القليل ، يصب على الساحل الشرقي في البحر الأبيض المتوسط . أما سائرها فيصب على ساحل الأندلس الجنوبي الغربي والغربي من المحيط الأطلنطي . فمن الانهار التي تصب في البحر المتوسط :

وادي إبْرُهْ (بكسر الهمزة وضم الراء وبالهاء المهملة) ، وهو نهر يسقي هو وروافده الجانب الشمالي الشرقي من الأندلس وتقوم عليه مدينة تُطيلة ومدينة سرقسطة ، كما تقوم عليه ، قريباً من مصبه ، مدينة طُرطوشة . وبهذا النهر سميت الجزيرة إيبرية .

ثم هنالك الوادي الأبيض الذي يصب عند مدينة بلنسية ، ووادي شُقْر الذي يصب على بعد خمسة وعشرين كيلو متر من مدينة بلنسية جنوباً ، ثم وادي شُقورة الذي تقوم عليه مدينة مرسية وأوريولة قريباً من مصبه .

على أن الانهار التي تصب في المحيط الاطلنطي أكثر عدداً وأعظم أهمية ، نعد منها :

وادي الدُوِيره ، أو الوادي الجوفي ، وتقوم عليه مدينة سمّورة (أو صمّورة) ، ويصب في خليج مرفأ برتقال (بورتو الحديثة) .

وادي تاجُهْ (بضم الجيم واهمال الهاء) ، وهو نهر طليطلة وأعظم أنهار الأندلس ، يقع في حوضه عدد من البلدان التي اشتهرت في أيام العرب من مثل شنتبرية ووادي الحجارة وطلمنقة ومجريط وطلبيرة . وهو يصب عند شنترين

(١) نيفادا .

في خليج الأُشبونة (لسبونة ، عاصمة البرتقال الحديثة) .

وادي آنه ، أو وادِ يانه ، وتقع في حوضه الأعلى قلعة رَباح ، وعند منتصفه مدينة مارِدة . أما عند منعطفه نحو الجنوب فتقوم مدينة بَطَلْيوس التي وقعت على مقربة منها معركة الزلاّقة الشهيرة . ثم يمر هذا النهر ببلدة باجه ومرتولة وبجبل العيون . وبعدئذ يصب عند بلدة قَسْطَلّة درّاج في خليج قادس .

الوادي الكبير ، أو النهر الأعظم ، نهر قرطبة ، أشهر أنهار الأندلس في تاريخ العرب . وتقع في حوض الوادي الكبير مدينة أُبْذَة والعِقاب وبَيّاسة وأرْجونة وجَيّان وبيّانة وقُرْطُبَة وقَرْمونة وإشْبِيلِيَةُ . ويصب الوادي الكبير في جون قَبْتور من خليج قادس . وللوادي الكبير من الروافد وادي شَنيل ، وتقع عليه غرناطة وأُسْتُجّة .

نهر منيو : يقع نهر منيو في الشمال الغربي من شبه جزيرة البرتغال ويقوم حوضه الأدنى اليوم حداً بين اسبانية وبين الجانب الشمالي الغربي من البرتغال. وهو يصب في المحيط الأطلسي .

سطح الاندلس ومناخها

لما دوّن العرب جغرافية جزيرة الأندلس أدركوا تنوّع سطحها واختلاف نباتها وحيوانها ، ولكنهم وصفوا مناخها بالاعتدال ، ذلك لأنهم قد وصفوا في الواقع مناخ الأندلس (جنوبي اسبانية) . وقد جمع المُقّري شيئاً من أقوال الجغرافيين العرب فروى عن ابي عامر السُلمي ان الأندلس من الأقاليم الشامي (مناخ البحر الأبيض المتوسط) وهو خير الأقاليم وأعدلها هواء وتراباً وأحسنها حيواناً ونباتاً ، وهو أوسط الأقاليم . وكذلك روى عن البكري ان الأندلس شامية في طيب هوائها يمانية في اعتدالها واستوائها (نفح الطيب ١ : ٦٤) . ثم روى للرازي قوله ان الأندلس بلد معتدل الهواء والجو والنسيم ، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على حد الأعتدال (نفح الطيب ١ : ٦٥). فهذا الذي رواه المقري عن الجغرافيين العرب يصدق على جنوبي اسبانية وشرقيها الى حد ، اذ ليس في الجنوب ولا

في الجنوب الشرقي « شتاء » بالمعنى المعروف في الجغرافية . أما على السواحل المصاقبة للبحر الأبيض المتوسط فالشتاء قصير جداً والصيف طويل ، وأما في الغرب وفي منخفضات استرامادورا فالشتاء يدوم نحو شهرين . وفي أعالي القلاع القديمة (مرتفعات قشتالة القديمة — شمالي شرقي اسبانية) يدوم الشتاء تسعة أشهر .

والمناخ في أواسط اسبانية خاصةً قاري متفاوت بين الفصول : شديد البرد في الشتاء ، شديد القيظ في الصيف .

واختلاف المناخ جعل الفاكهة في الأندلس موجودة في كل فصل . متصل أوانها لا تكاد تنقطع ، ففواكه الساحل تنضج باكراً ، بينما الثغر (الشمال) وجهاته والجبال التي يخصها برد الهواء يتأخر نضج فواكهه ، وهكذا يمتد فصل الفاكهة طول العام (راجع نفح الطيب ١ : ٦٥ ، ٦٩) .

قسم العرب سطح اسبانية ثلاثة أقسام : شرقاً وجوفاً (وسطاً) وغرباً .

الشرق : القسم الشرقي ، وأنهار هذا القسم **تسيل شرقاً** وتصب في البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك تهب الرياح على هذا القسم من الشرق حاملة اليه الأمطار .

الغرب : القسم الغربي ، وانهاره **تسيل غربا** وتصب في البحر الأخضر او بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) . ومعظم مياه الأندلس **تسيل غربا** . ورياح هذا القسم تهب من الغرب أيضاً فتحمل اليه المطر .

ويلاحظ المقري (نفح الطيب ١ : ٦٦) أنه اذا استحكمت الرياح الغربية (أي اشتد هبوبها وطال) كثر المطر في الغرب وقل في الشرق ، واذا استحكمت الرياح الشرقية كثر المطر في الشرق . من أجل ذلك يكثر الجفاف والقحط في الأندلس ، إذ هو ابداً موجود في قسم من قسميها الرئيسيين . وهذا ايضاً يعلل السيول التي تكثر وتعظم أحياناً .

الجوف : (الوسط Meseta ، الهضبة الوسطى النازعة نحو الشمال الغربي) : ويحتل الجوف هذا مساحة تزيد على نصف مساحة اسبانية كلها . ويحيط بالجوف جبال شاهقة ومنخفضات ولذلك كانت طريقه

وعرة ، وهذا ما جعل الأتصال بين الأندلس (جنوبي اسبانية) بين الشمال صعباً . والجوف على الحقيقة هو البلاد الأسبانية بخصائصها وتقاليدها، ويتألف من القشتالتين (قشتالة القديمة — الشمالية او العليا ، ثم قشتالة الجديدة الجنوبية أو الدنيا) . والعرب يسمون الجوف ايضاً بلاد القلاع (تفسيراً لكلمة قشتالة Castilla — فان كلمة Castillo معناها الحصن او القلعة) . ويسمونها ايضاً « جليقية » ، مع أن جليقية هي الطرف الشمالي الشرقي من شبه جزيرة ايبيرية ولا صلة لها ببلاد الكاستيل حسب المدلول الجغرافي الحديث .

وانهار الجوف جميعها تصب في البحر الكبير المحيط الأطلسي . ويبدو بوضوح ان جفاف الأندلس وكثرة سيولها يعتمدان الى حد كبير على الجوف وما ينزل فيه وحوله من امطار كثيرة او قليلة . ان هذه الهضبة هي مركز توزع المياه في شبه جزيرة ايبيرية كلها ..

ويبدو ايضاً أن ملاحظة المقري السابقة كانت في موضعها ، فاننا اذا طالعنا تاريخ الأندلس رأينا أن الأندلس ، على الرغم من اعتدال مناخها (في الجنوب) وكثرة خصبها ، عرضة للجفاف والقحط في أعوام متقاربة . والغريب أن هذا الجفاف كان يتخلله مدود (سيول وفيضانات) . فمما جاء من هذه المظاهر كلها في كتاب البيان المغرب لابن عذارى ما يلي :

— في سنة ٢٣٢هـ (٨٤٦م) قحطت الأندلس قحطاً شديداً وكانت فيها مجاعة عظيمة حتى هلكت المواشي واحترقت الكروم وكثر الجراد (٢:٨٩) .

— وفيها (سنة ٢٣٥هـ ، ٨٥٠م) كان سيل عظيم بجزيرة الأندلس ، حمل وادي شنيل (كثر ماؤه) وخرب قوسين من حنايا قنطرة استجة وخرب الارحاء (الطواحين) . وذهب السيل بست عشرة قرية من قرى اشبيلية على النهر الأعظم (الوادي الكبير) . وحمل وادي تاجه (بضم الجيم) فأذهب ثماني عشرة قرية وصار عرضة ثلاثين ميلاً (٢:٨٩).

— وفي ٢٧٤هـ (٨٨٨م) «كان القحط الشديد بالأندلس ، فاستسقى الناس فنزل ثلج كثير في أول يوم من ينير (كانون الثاني) ولم ينزل غيثه. ثم استسقوا مراراً فلم يُمطَروا. فخامر الناس القنط. فلما دخل من فبرير (شباط) بعض أيام سُقِيَ الناس » (٢:١١٩) .

— وفي سنة ٢٨٥هـ (٨٩٨م) كانت المجاعة الشديدة (٢:١٣٩) ؛

— وفي سنة ٢٨٨هـ (٩٠١م) عظم السيل بقرطبة وانهدم رجل من قنطرتها (٢:١٤٠) ؛

— وفي سنة ٣٠٢هـ (٩١٤م) أمحل الناس وتوالى القحط وعم ، وغلت الأسعار وقلت الميرة في الأسواق ... وفي يوم الأثنين لثلاث عشرة خلت من شوال ، وهو أول شهر مايه نزل رذاذ تماسك به بعض الزرع وذهب الأكثر . وكان القحط شاملاً بالاندلس وأطرافها وثغورها (٢:١٦٦) ؛

— وفي سنة ٣٣١هـ (٩٤٣م) كان المد العظيم بنهر قرطبة (٢:٢١٠) ؛

— وفي سنة ٣٣٢هـ هبت ريح عاصف ردفتها أخرى فاقتلعتا كثيراً من شجر الزيتون والتين وغيرها من الأشجار والنخيل ... ونزل أثر ذلك مطر وابل طبّق الأرض وبرَد غليظ فقتل كثيراً من الوحش والطير والمواشي وأتلف ما أصاب من الزرع وأساء التأثير (٢:٢١١) .

— وفي سنة ٣٣٣هـ في المحرم (ايلول ٩٤٤م) هبت بقرطبة ريح عاصف من ناحية القبلة (الجنوب الشرقي) ونزل برد غليظ (٢:٢١١) .

— وفي سنة ٣٣٤هـ كان السيل العظيم بقرطبة وبلغ الماء البرج المعروف ببرج الأسد فهدم من آخر القنطرة وثلم الرصيف وغيره (٢:٢١٣) .

— وفي سنة ٣٣٥هـ كان القحط الكائن بقرطبة (٢:٢١٤) .

الفتح في المغرب

•

رأينا من قبل (١) أن عمرو بن العاص فتح الاسكندرية للمرة الاولى في سنة ٢١هـ (٦٤٢م). ثم قُتل عمر بن الخطاب وتولّى الخلافة عثمان بن عفّان في سنة ٢٣هـ (٦٤٤م) وعمرو بن العاص لا يزال والياً على مصر. وفي سنة ٢٥هـ (٦٤٦م) عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولّى عليها عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح، وكان أخاه من الرضاعة (٢). ولعل هذا التبديل كان من الأسباب التي حملت قسطنطين الثالث على أرسال اسطول الى الاسكندرية، في ذلك العام نفسه، بقيادة مانويل. فما أن ظهر الأسطول الرومي فجأة في عُرض البحر حيال الاسكندرية حتى هبّ السكان الروم يرحبون بذلك الأسطول، وشايعهم في ذلك جماعة من القبط بلا ريب. واستطاع الروم أن ينزلوا في الاسكندرية ويتوغلوا في الدلتا، وقد نقض أهل الاسكندرية الصلح وكاد الحكم العربي في مصر أن يتزعزع. ولكن عبد الله بن أبي سرح كان كفوءاً للروم فهزمهم هزيمة منكرة، في سنة ٢٥ نفسها، وفتح الاسكندرية فتحاً ثانياً ثابتاً. ثم استمر الفتح بعد ذلك سهلاً هيناً لأن القبط كانوا في معظم الأحيان يحالفون العرب على الروم.

ومع أن العرب غزوا الصعيد والنوبة منذ نزلوا في مصر، فانهم لم يفتحوا دُمْقُلة، في النوبة، الا في رمضان من سنة ٣١ (ربيع عام ٦٥٢م)، حينما

(١) العرب والاسلام في الحوض الشرقي ٦٧.
(٢) فتوح مصر ١٧٤، ١٧٨، راجع ١٨٣، البيان المغرب ١ : ٨.

غزاها عبد الله بن أبي سرح وكان معه في جيشه معاوية بن حُديج الذي سنراه والياً على مصر وافريقية فيما بعد (١):

وفي سنة ٣٤هـ (٦٥٥م)، كما يذكر ابن عبد الحكم (٢)، انتصر العرب على الروم في معركة ذات الصواري في عرض الاسكندرية، وقضوا على الأسطول الرومي وأزاحوا خطره نهائياً عن مصر.

برقة وطرابلس

لوبية، كما يرسمها ابن عبد الحكم (٣)، أو ليبيا كما ترسمها المراجع الحديثة وكما قبلت رسمها الحكومة الليبية (٤)، هي البلاد الواقعة بين مصر وبين افريقية أو القطر التونسي. وتتألف لوبية اليوم، كما كانت تتألّف في زمن الفتح من ثلاث مناطق: بَرقة أو أنطابلس (النصف الشرقي من ساحل لوبية) وطرابلس (النصف الغربي منه) وفزّان (المنطقة الداخلية). أما عند اليونان القدماء فكان الأسم «لوبية» يطلق على قارة افريقية كلها (٥).

وبدأ العرب — قبل أن يطمئن حكمهم على مصر — بغزو برقة وما وراءها تحطيماً لقوى العدو وتحسساً لمنافذ الفتح في المغرب. فقد سار عمرو بن العاص في سنة ٢٢هـ ففتح برقة صلحاً وضرب الجزية على أهلها ديناراً على كل حالم. ثم سار الى طرابلس فحاصرها شهراً وفتحها في السنة ٢٢ للهجرة أيضاً، بعد أن كان أهلها قد استغاثوا بقبيل من البربر يقال لهم نفّوسة اذ كانوا قد دخلوا معهم في دين النصرانية (٦): بعدئذ أغذّ عمرو بن العاص السير الى سبرت (٧) أو سبرة

(١) ياقوت ٢: ٥٩٩، راجع فتوح مصر ١٨٨.
(٢) فتوح مصر ١٩٠، السطر الاول، راجع الطبري ١: ٢٨٧٠. في سنة ٣٥ هـ (فتوح مصر ١٩١).
(٣) فتوح مصر ٣٨، ١٧٠، ٢٠٠.
(٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، تأليف الطاهر احمد الزاوي (مصر ١٣٧٣ – ١٩٥٤) ص٣ — ٤.
(٥) ياقوت ٤: ٣٦٨.
(٦) البيان المغرب ١: ٨.
(٧) ياقوت ٣: ٣١.

في الأشهر (١) ، وأسمها اليوم صبراته، ففتحها وفتحما وراءها من الشاطئ (٢) .
وقبل أن تنتهي السنة الهجرية ٢٣ كان العرب قد غزوا جميع لوبية وفتحوها . الا أن حكمهم عليها ظل قلقاً بضع سنين .

وقبل أن تنقضي السنة الهجرية ٢٣ ، وقبل أن يخرّ عمر بن الخطاب صريعاً بخنجر أبي لؤلؤة (٢٦ من ذى الحجة ٢٣ = ٣ تشرين الاول ٦٤٤) ، أراد عمرو بن العاص أن يسير لفتح افريقية . ولكنّ عمر بن الخطاب ثبّطه عن ذلك وكان حكيماً . ان لوبية ومصر لم تكونا بعد قد اطمئنتا الى الحكم العربي ، اذ لم يكن قد انقضى على دخول العرب اليهما عام أو عامان . فليس من الحكمة اذن أن تتخطاهما الجيوش العربية تاركة بينها وبين مراكز مؤونتها ومددها بلاداً ثائرة وقلوباً نافرة.

النزاع الديني والسياسي في الغرب

في مطلع الفتح العربي على قارة افريقية كان على المنطقة الممتدة من مدينة طرابلس الغرب الى مدينة طنجة حاكم عسكري من قبل الروم (البيزنطيين) اسمه جورجيوس ، قبل مجيئ جرجير الذي عرفه العرب (٣) . وكان النزاع الديني والخلاف السياسي بين جزئي الامبرطورية الرومانية (بلاد الروم، اليونان او بيزنطة وبين البابوية واهل إيطالية) على أشدهما . ومع أن هذا النزاع كان دينياً في ظاهره وحقائقه ، فانه لم يخل من بواعث سياسية. ثم كان له على كل حال نتائج سياسية سيئة على القسطنطينية ورومية معاً .

النزاع الديني

لما بدأ القرن الخامس للميلاد كان في النصارى شيعتان رئيسيتان تذهب احداهما الى القول بأن في المسيح طبيعتين: طبيعة آلهية وطبيعة بشرية؛ بينما كانت الشيعة الثانية

(١) ياقوت ٣ : ٣٢ .
(٢) فتوح مصر ١٧٠ ، ١٧١ ، البيان المغرب ١ : ٨ .
(٣) راجع تحت ص ٥٥ ، ٧ .

تقول إن في المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الآلهية الغالبة . وقد اكتسبت الشيعة الاولى خصائصها البارزة حينما جاء نسطور الانطاكي بطريركاً على القسطنطينية (٤٢٨–٤٣١م) وأصر على أن في المسيح أقنومين (شخصين) وطبيعتين (مادتين) ، وأن مريم هي أم المسيح عيسى لا أم الله ، لأن الله لا يمكن أن يولد من امرأة . والتأم المجمع المسكوني في أفسوس (٤٣١م) وقطع نسطور (حرمه ، كفّره) وأقر القول بأن المسيح انسان كامل وآله كامل من أول الأمر (اي أن فيه شخصين وطبيعتين) .

وكان يعاصر نسطور راهب في القسطنطينية اسمه أفتيشوس أوطاخي (٣٧٨–٤٥٤م) أنكر أن يكون في المسيح أقنومان وطبيعتان ، فقال ان فيه اقنوماً واحداً وطبيعة واحدة هي الطبيعة الألهية التي استولت على الطبيعة البشرية . وانعقد المجمع المسكوني في خلقدونية (٤٥١م) وشجب القول بالطبيعة الواحدة وأعلن أن في المسيح طبيعتين متحدتين ولكن غير ممتزجتين ولا متأثرة أحداهما بالأخرى ، بل ان الطبيعة الآلهية ظلت أبداً آلهية والطبيعة البشرية ظلت ابداً بشرية . وغلب هذا المذهب على ارمينية والعراق والشام ومصر والنوبة . ثم جاء يعقوب البرادعي (ت٥٧٨م) فنظم هذا المذهب . ومن ذلك الحين عرف القول بالطبيعة الواحدة بالمذهب اليعقوبي وعرف أتباعه باليعاقبة .

وعصف النزاع بين القائلين بالطبيعة الواحدة وبين القائلين بالطبيعتين في كل بقعة من الامبرطورية الرومية على الصعيد الديني وعلى الصعيد السياسي حتى كان هذا النزاع عاملاً في زوال الحكم الرومي عن آسية وافريقية ، كما كان أيضاً عاملاً فعّالاً في انتشار الاسلام انتشاراً تاماً أو شبه تام في تينك القارتين . وبدا للامبرطور هرقل أن بإمكانه أن يوفق بين «الكاثوليك والارثوذكس» وبين اليعاقبة خاصة اذا هو وضع للجميع مذهباً وسطاً ، وشاركه في هذا الرأي بطريرك القسطنطينية سرجيوس الاول (٦١٠–٦٣٨م) ، فأصدر هرقل القانون المعروف باسم أكثيسيس (العرض ، التوضيح) عام ٦٣٨م ، آخذاً من اليعاقبة قولهم بالمشيئة الواحدة ومن النساطرة قولهم بالطبيعتين ثم جعل من ذلك مذهباً رسمياً

للدولة ، وظن أنه بذلك قد جمع بين أهل العقيدتين . غير أن النتيجة كانت نشأة مذهب جديد ، هو المذهب الذي عرف بالمذهب الملكاني (مذهب الروم الكاثوليك)، وظل النزاع الاول حيث كان من قبل .

ولم يقتصر هذا النزاع على العاصمتين القسطنطينية ورومية ، ولا على الشعبين الحاكمين الروم والرومان ، بل تعداهما الى الشعوب المحكومة في أسوأ أشكاله وأبشع صوره : لما غزا العرب مصر هرب جماعات من أهلها القبط النصارى — وكانوا يقولون بالطبيعة الواحدة — وهم يظنون أنهم إنما ينجون بدينهم من العرب المسلمين الى اخوانهم النصارى في لوبية وافريقية . ولكنهم ما كادوا يصلون الى افريقية حتى تلقاهم البطريق (الحاكم العسكري الرومي) جورجيوس وحملهم على الصبوء الى الكاثوليكية (القول بالطبيعتين والمشيئتين) طوعاً أو كرهاً. وقد ساعده في ذلك القديس مكسيموس المعترف (٥٨٠—٦٦٢م). ويحسن أن نلاحظ أن جورجيوس ومكسيموس كانا — كما كان البطريرك صفرونيوس الذي سلم القدس لعمر بن الخطاب (١) — من الروم ولكن على غير المذهب الرسمي (الملكاني : القول بمشيئة واحدة وطبيعتين) ، بل على المذهب الروماني (الكاثوليكي : القول بمشيئتين وطبيعتين) .

وتوفي هرقل في ١١ شباط عام ٦٤١ (٢٣ صفر من سنة ٢٠) وترك امبرطوريته سابحة في فوضى لا قراراً لها . وقد خلفه على العرش ابناه قسطنطين الثاني وهرقلون ، وكانت مرتينة زوجة هرقل الثانية تحكم البلاد من ورائهما . وقد وصلت يدها بيد البطريرك فورّوس (٢) . غير أنها كانت تريد أن يستبد ابنها هرقلون بالحكم . فلما توفي قسطنطين الثاني (أيار ٦٤١) مسموماً اتهمت مرتينة بتدبير مقتله . وتمرد الجند في بلاد الروم (آسية الصغرى) ثم رفعوا قسطنطين الثالث بن قسطنطين الثاني على العرش الى جانب عمه هرقلون في

(١) العرب والاسلام في الحوض الشرقي ٦٦ .

(٢) يضبط الدكتور أسد رستم هذا الاسم (الروم وصلتهم بالعرب ، ١ : ٢٥٤ مرتين ، ٢٥٦ مرتين ، ٢٥٧ ، ٢٥٩مرتين) بيروس .

تشرين الثاني من عام ٦٤١ (ذي الحجة من سنة ٢٠) ؛ وعمره يومذاك أحد عشر عاماً .

وما كاد قسطنطين الثالث يرقى العرش حتى حمله أنصاره على عزل جورجيوس عن افريقية وتولية بطريق آخر عليها اسمه غريغوريوس ، وهو الذي يعرفه العرب باسم جرجير (١) . وكذلك حملوه ، في الوقت نفسه ، على خلع البطريرك فورّوس، لأنه كان يناصر مرتينة في سياستها المعادية لأبيه، ونفيه من القسطنطينية .

وفي مطلع عام ٦٤٢م نشبت في القسطنطينية ثورة لا نعرف اسبابها (٢) . في اثناء هذه الثورة قُطع لسان مرتينة وجُدع أنف هرقلون ثم نفيا معاً الى رودوس. واستطاع قسطنطين الثالث أن يستقل بالحكم .

واستمر الاضطراب السياسي والنزاع الديني في كل مكان : وقد عقدت مناظرة (تموز ٦٤٥ = رمضان ٢٤) في مدينة قرطاجة (القطر التونسي) بين مكسيموس وفورّوس . وأعلن فورّوس في ختام المناظرة أنه اقتنع برأي خصمه (أي بالقول بالمشيئتين) . بعدئذ ذهب الى رومية وأقر على نفسه بين يدي البابا ثيودوسيوس الاول أنه رجَع عن القول بالمشيئة الواحدة .

وانتهز البطريق جرجير حال الضعف والنزاع في القسطنطينية خاصة — وشجّعه على ذلك ، فيما يبدو ، بابا رومية ثيودوسيوس الاول ، وأن أهل أفريقية كانوا كأهل رومية يقولون بالمشيئتين بينما المذهب الرسمي في القسطنطينية يوجب القول بمشيئة واحدة — فثار في عام ٦٤٧م (٢٧هـ ، في أيام عثمان بن عفان) ثم تسمى بالامبرطور وأتخذ سبيطلة التي كانت تقع على بعد مائة كيلو متر الى الجنوب الغربي من مدينة القيروان الحالية عاصمة له .

وحار الامبرطور الرومي قسطنطين الثالث في أمر النزاع بين القائلين بالمشيئة الواحدة وبين القائلين بالمشيئتين فأصدر في عام ٦٤٨م قانوناً دعاه « تيبوس » ، أي القاعدة ، وحظر فيه الكلام في المشيئة والمشيئتين معاً . ولم يرض البابا

(١) راجع البيان المغرب ١ : ٩ ، الخ .

(٢) العرب وصلتهم بالروم ٢٥٤ .

مرتينوس (٦٤٩–٦٥٣م) عن ذلك فعقد مجمعاً في رومية حضره مائة وخمسة من الأساقفة ثم قرروا (تشرين الأول ٦٤٩ = أوائل ٢٩هـ) شجب قانون أكثيسيس وقانون تيبوس وأصروا على الرجوع الى القول بالمشيئتين والطبيعتين معاً . ثم كتب مرتينوس الى قسطنطين الثالث يأمره بأن يخلع بطريرك القسطنطينية بولس الثاني (٦٤١–٦٥٢م) لتركه القول بالمشيئتين والطبيعتين . فغيظ قسطنطين من هذه الجرأة عليه وأمر بالبابا مرتينوس فقبض عليه (حزيران ٦٥٣م) وجيء به الى القسطنطينية مقيّداً بالسلاسل فوصل اليها في أيلول من عام ٦٥٤ . وفي القسطنطينية حوكم مرتينوس أمام محكمة عادية (غير دينية) واتهم بالخيانة العظمى ثم خلع عن عرش البابوية وسجن مع اللصوص والقتلة . ولقد تعرض مرتينوس في أثناء محاكمته تلك لضروب من الاهانة والتحقير . بعدئذ نقل منفياً الى خرصون ، على الجانب الشمالي الغربي من البحر الأسود ، فتوفي هنالك وشيكاً في ١٦ أيلول من عام ٦٥٥ .

وفي العام الذي كان البابا مرتينوس قد حمل فيه مقيداً من رومية الى القسطنطينية (٦٥٣م=٣٣هـ) حمل مكسيم المعترف (١) سجيناً من افريقية الى القسطنطينية ومنها نفي الى بوزية في تراقية . غير أنه أعيد عام ٦٦٢م (٤٢هـ) الى القسطنطينية حيث حوكم أمام المجمع المقدس وحكم عليه بالتعذيب : بسلّ لسانه من أصله وبقطع يده اليمنى . ثم انه نفي ثانية على هذه الحال الى لازيقة ، من بلاد اللاز في شمالي ارمينية ، فتوفي هنالك وشيكاً من عقابيل التعذيب في ١٣ آب من عام ٦٦٢ (٢٠ ربيع الثاني ٤٢) .

تلك كانت الحياة الدينية المضطربة الفاجعة التي كانت سائدة في الامبرطورية الرومانية في الشرق والغرب . فاذا نحن أضفنا الى ما تقدم وطأة الاضطهاد الجنسي وربقة الظلم الاجتماعي وسوء السياسة المالية والاقتصادية (في الضرائب وفي التجارة والصناعة) ، أدركنا عمق الوهدة التي كانت تتردّى فيها تلك الامبرطورية يومذاك . من أجل ذلك لم يكن من المستغرب قط أن تتساقط المقاطعات الرومية

(1) Enc. Br., IIth. ed., 17:926 f.

والرومانية من دوحة الامبرطورية طوعاً وأن تدخل الاسلام وترضى بالحكم العربي حباً بالعدل والتسامح الجديدين أو هرباً من الظلم والاضطهاد القديمين :

الفتح الاول في افريقية

لما وَلِيَ عثمان الخلافة سنة ٢٣هـ (٦٤٤م) أقرّ عمرو بن العاص على مصر (١) ؛ ولكن في سنة ٢٦هـ عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص وولّى مكانه عبد الله ابن سعد بن أبي سَرْح العامري أخاه من الرَضاعة :

وفي المحرم من سنة ٢٧ (تشرين الاول من عام ٦٤٧) أذن عثمان لعبد الله ابن أبي سرح بغزو افريقية ثم نَدب الناس الى ذلك فاجتمع من المسلمين جيش كبير فيه نفر من مشاهير العرب منهم مروان بن الحكم ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، عبد الله بن الزُبير ، عبد الله بن عمر وأبو ذؤيب الهذلي (٢) . وفصَل المسلمون المجاهدون من المدينة وعليهم الحارث بن الحكم (أخو مروان بن الحكم) أميراً الى أن يصلوا الى مصر ، فاذا وصلوا اليها أصبح الاميرَ عليها واليها عبد الله بن أبي سرح (٣) .

وخرج عبد الله بن أبي سرح من مصر الى غزو افريقية في عشرين ألفاً ، فالتقى بجرجير على يوم وليلة من سُبَيْطلة في جيش عظيم ، قيل كان مائة وعشرين ألفاً . ويبدو أن في هذا العدد شيئاً من المبالغة ، ولكن الذي لا ريب فيه أن هذا الجيش كان — على كثرته — ضعيفاً لأنه كان خليطاً من الروم والفرنجة والبربر . واقترح عبد الله بن الزبير على عبد الله بن أبي سرح أن يقسم الجيش العربي قسمين : يخوض المعركة المكشوفة بقسم ويجعل القسم الآخر كميناً لا يبرز للقتال الا اذا تعب العرب والروم . ولم تَطُل المعارك بين العرب وجرجير ، وسَرعان ما خرّ جرجير صريعاً في المعركة ، قتله عبد الله بن الزبير . واندفع

(١) الطبري ١ : ٢٨١٤ .

(٢) ياقوت ١ : ٣٢٥-٣٢٦ ، راجع ابن خلدون ، بقية الجزء الثاني ١٢٨ .

(٣) البيان المغرب ١ : ٨-٩ .

العرب الى عاصمته سبيطلة واستولوا عليها ثم خربوا حصونها . ومن سبيطلة انساح العرب في افريقية حتى وصلوا الى قفصة على نحو مائة كيلومتر من الجنوب الغربي من سبيطلة ، كما وصلوا الى حصن الأجم (١) والى قرطاجنة على بعد مائتين وخمسين كيلومتر من سبيطلة شمالاً في شرق ، على الساحل ، وفتحوها عنوة بعد حصار شديد . وكانت غنائم العرب في هذه الغزوة كثيرة جداً وثمينة ، وخصوصاً في قرطاجنة .

وريع سكان افريقية من هذا الفتح فطلبوا الصلح من العرب فأجابهم العرب الى ما طلبوا وعاهدوهم على ما يلي :

١) يدفع أهل افريقية غرامة قدرها ثلاثمائة قنطاراً ذهباً (المقصود غرامة كبيرة).
٢) ما استولى عليه العرب قبل الصلح (سوى الغرامة) فهو لهم . وما استولوا عليه بعد الصلح ردّوه على أصحابه .
٣) بعد تحقيق الشرطين المتقدمين ينسحب العرب من افريقية .

وقبض عبد الله بن أبي سرح المال وحمل المسلمون الغنائم التي غنموها قبل الصلح وعادوا الى مصر . وبعث عبد الله بن أبي سرح بالخمس الى عثمان بن عفان في المدينة (٢) .

ولا أدري ما وجه الرواية التي ذكرها الطبري (٣) وهي أن عبد الله بن أبي سرح بعث عبد الله بن نافع بن عبد القيس (أخا عقبة) وعبد الله بن نافع بن الحصين الى الاندلس سنة ٢٧هـ .

الفتح الثاني لافريقية

كان قسطنطين الثالث يطمع في استرداد ما كان العرب قد انتزعوه من الامبرطورية الرومية . ولقد رأيناه يحاول غزو الشام ثم يبعث في سنة ٢٤هـ

---

(١) في القطر التونسي اليوم .
(٢) راجع البيان المغرب ١ : ٨ – ١٢ ، فتوح مصر ١٧٣ وما بعدها ، ابن خلدون ٤ : ١٨٥ .
(٣) الطبري ١ : ٢٨١٤ ، راجع ٢٨١٧ .

(٦٤٥م) حملة على مصر أصابت في أول الأمر بعض النجاح ، ونقض أهل الاسكندرية على أثرها الصلح مع العرب (١) . فليس بمستغرب اذن أن يحاول قسطنطين مثل ذلك في افريقية . وهكذا نجد أهل افريقية ينقضون الصلح في سنة ٣٣هـ (٦٥٤م) . من أجل ذلك أرسل عبد الله بن أبي سرح معاوية بن حُدَيْج الكِنْدي السَكوني (٢) في سنة ٣٤هـ ليعيد افريقية الى عهدها مع العرب . وكان لمعاوية بن حديج صحبة لرسول الله ، وقد شهد مع عمرو بن العاص فتح مصر ، كما غزا مع عبد الله بن أبي سرح في النوبة .

ووصل معاوية بن حديج في غزوته تلك الى قونية عند جبل القرن (موضع مدينة القيروان الحالية) واتخذ هنالك قيروانا ، أي معسكراً (٣) ولكنه عاد وشيكاً الى مصر .

ثم ان المسلمين اشتغلوا بالفتنة زمن عثمان ثم بالفتن والحروب في خلافة علي ابن أبي طالب (٣٦–٤٠هـ) فتوقفت الفتوح الأسلامية كلها (٤) .

وكان أولَ ما فعله علي أن ولّى على مصر قيس بن سعد في صفر من سنة ٣٦ (آب ٦٥٦) . واستطاع معاوية بن أبي سفيان أن يفسد ما بين علي وقيس فعزل علي قيساً عن مصر وولى عليها الأشتر بن مالك النَخَعي ، ولكن معاوية دبر مقتل الأشتر قبل أن يصل الأشتر الى مصر . فولى علي حينئذ على مصر محمد بن أبي بكر (٥) .

وكان عمرو بن العاص يحنّ الى العودة الى مصر والياً فأطمع معاوية بها ، فبعثه معاوية اليها في ستة آلآف جندي . وكان في مصر يومذاك جماعة من العثمانية (الموالين لبني أمية) ينقمون على محمد بن أبي بكر ويتكرهون خلافة علي . وكان النافذَ فيهم معاوية بن حُديج . فوصل هؤلاء العثمانية يدهم بيد

---

(١) راجع الروم وصلاتهم بالعرب ١ : ٢٥٥ .
(٢) جمهرة أنساب العرب ٤٠٣ .
(٣) ياقوت ٤ : ٧٣ ، ٢٠٤ .
(٤) راجع في ذلك كله فتوح مصر ١٩٢–١٩٥٤ ، البيان المغرب ١ : ١٤ .
(٥) ابن خلدون ٢ : ١٦٧–١٦٨ .

عمرو بن العاص وقاتلوا معه محمد بن أبي بكر وهزموه ثم قتلوه (١) . وذلك سنة ٣٨هـ (٦٥٨م) ، وخرجت مصر من حكم علي بن أبي طالب .

ثم قُتل الأمام علي في سنة ٤٠هـ (٦٦١م) واستبد بالخلافة معاوية بن أبي سفيان . وأقرّ معاوية عمرو بن العاص على مصر . ولكن عمراً توفي في أول شوال من سنة ٤٣هـ (٦ كانون الثاني ٦٦٤) .

الفتح الثالث لافريقية

وفي سنة ٤٥هـ (٦٦٥م) بعث معاوية بن أبي سفيان جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي لفتح افريقية وجعله بقيادة معاوية بن حديج . فسار ابن حديج بالجيش الى الاسكندرية ثم تابع طريقه الى افريقية ، وكان معه نفر من مشاهير العرب منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم بن العاص وحَنَش بن عبد الله الصنعاني (٢) . ويبدو أنه كان بين معاوية بن حديج وبين عبد الملك بن مروان وحشة ، فقد كان عبد الملك — فيما يبدو لنا — يطمع في قيادة الحملة مكان ابن حديج . غير أن معاوية بن أبي سفيان أراد أن يكافئ معاوية بن حديج على صنيع له سلف : كان ابن حديج عثمانياً ، ثم انه كان قد نفّذ رغبة معاوية بن أبي سفيان في التخلص من محمد بن أبي بكر فقتله بمصر (٣) سنة ٣٨هـ (٦٥٨م) . وأراد حنش الصنعاني أن يزيل الوحشة بين الرجلين فترضّى عبد الملك بقوله — مصانعاً أو متفائلاً أو نافذ

(١) ابن خلدون ٢ : ٢٨٢ .

٢ حنش الصنعاني هو أبو رشيد حسين بن عبد الله (وحنش لقب له) من صنعاء الشام وهي قرية قرب دمشق دون المزة ، كان من التابعين وثقة في رواية الحديث روى عنه جماعة . وقد كان مع علي بن أبي طالب في الكوفة . ولما قتل علي انتقل حنش الى مصر فصار في عداد المصريين . وثار حنش مع عبد الله بن الزبير ، فيما بعد ، على عبد الملك ، ثم اتى به الى عبد الملك فعفا عبد الملك عنه . وغزا حنش الصنعاني المغرب مع رويفع بن ثابت . وغزا جزيرة جربة (عند شاطىء القطر التونسي حذاء مدينة سوسة) . وكذلك غزا الاندلس مع موسى بن نصير ، ومات في سرقسطة سنة ١٠٠هـ وكان قبره فيها معروفاً مشهوراً .

(٣) البيان المغرب ١ : ١٥ ، ١٨ .

البصيرة — (١) : « ما شأنك ؟ فوالله ، لتلينّ الخلافة ويصير هذا الأمر كله اليك ، فلا تغتمّ ! »

في ذلك الحين كان قسطنطين الثالث لا يزال على عرش القسطنطينية ، فأراد أن يعترض طريق العرب من جديد فأرسل أسطولاً فيه ثلاثون ألفاً بقيادة بطريق يقال له نقفور . فتقدم نقفور الى افريقية من شاطئها الشرقي قريباً من سوسة ، فسرّح اليه معاوية بن حديج جيشاً بقيادة عبد الله بن الزبير . ويبدو أن نقفور أدرك مدى قوة العرب فآثر أن ينسحب من غير تعرّض لقتال (٢) . ثم ان ابن حديج أرسل عبد الملك بن مروان في ألف رجل الى جلولاء (٣) ، فحاصرها عبد الملك طويلاً فلم يقدر عليها ، ثم اتفق أن انقضّ سورها فدخلها عبد الملك فاتحاً (٤) . وكذلك فتح العرب في ذلك الحين بنزرت ، ومن ذلك الحين بدأ انتشار الاسلام في البربر (٥) .

ولم يغتر معاوية بن حديج بانسحاب نقفور فجهّز أسطولاً مؤلّفاً من مائتي مركب وجعله بقيادة عبد الله بن قيس ، ثم أنفذه في أوائل سنة ٤٧هـ (ربيع ٦٦٧) الى جزيرة سقلية (٦) لأن سقلية كانت محطة للروم بين بلادهم وبين افريقية ، وكانت أساطيلهم تثب منها على افريقية . ولا ريب في أن العرب لم يكونوا يريدون في ذلك الحين غزو سقلية لفتحها والاستقرار فيها ، وهم لم يثبّتوا أقدامهم بعد في افريقية نفسها ، وانما كانوا يريدون تحطيم قوى العدو فيها كيلا تتحرك تلك القوى لاعتراض طريقهم وعرقلة أعمالهم . من أجل ذلك أقام العرب شهراً واحداً على سقلية ثم انصرفوا الى افريقية بغنائم كثيرة وبرقيق

(١) البيان المغرب ١ : ١٨ .

(٢) البيان المغرب ١ : ١٦ .

(٣) جلولاء مدينة في افريقية بينها وبين القيروان ٢٤ ميلا (ياقوت ٢ : ١٠٧) .

(٤) ياقوت ٢ : ١٠٧ ، راجع ابن خلدون ٤ : ١٨٥ .

(٥) ياقوت ١ : ٧٤٦ .

(٦) سقلية ترسم بالسين كما في الطبري وفي فتوح مصر . والمصادر المتأخرة ترسمها بالصاد .

وأسرى وبأصنام منظومة بالجوهر . بعد ذلك عاد ابن حديج الى مصر : وقد باع معاوية الأصنام التي غنمها العرب من أهل سقلية في الهند وأخذ أثمانها فأنكر ذلك عليه نفر من المسلمين (١) :

الفتح الرابع لافريقية

وظل معاوية بن حديج زمناً يتولى مصر وافريقية معاً . ففي سنة ٤٦هـ (٦٦٦م) بعث عقبة بن نافع الى المغرب : وفي أثناء الطريق علم عقبة أن أهل ودّان قد نقضوا الصلح فسار اليهم بنفسه وردهم الى الطاعة (٢) . ثم انه سار بنفسه أيضاً الى فزّان فافتتحها وافتتح ما وراءها حتى أصبحت لوبية كلها في طاعة العرب : بعدئذ سار عقبة الى زَويلة وغَدامس ، وهما من تخوم السودان ، وفتحهما فتحاً ثانياً . ولما انتهى عقبة من لوبية تقدم الى افريقية وفتح قفصة ثم قسطيلية من بلاد الجريد (٣) . ولا يعلم بعد قسطيلية عمران (٤) .

بناء القيروان

أراد عقبة أن يتخذ قيروانا (معسكراً ومركزاً عسكرياً دائماً) ، ذلك لأن الفتوح الاولى لم تثبت لأن أهل افريقية كانوا يطيعون أذا غزا العرب البلاد، فاذا عادوا عنها عاد أهلها الى المعصية ونقضوا الصلح . ويحسن أن نلاحظ هنا أن الروم والفرنجة كانوا قد أجلَوا البربر عن الشواطئ وسكنوها هم : فالذين كانوا يقاومون العرب وينقضون الصلح لم يكونوا البربر أهل البلاد الأصليين بل الروم والفرنجة وجماعة من البربر يشايعونهم .

(١) البيان المغرب ١ : ١٧–١٨ .– لا يجوز لمسلم أن يتأجر بمحرم كالخمر والخنزير والاصنام الخ.
(٢) ياقوت ٤ : ٩١١ .
(٣) زويلة السودان أول حدود بلاد السودان (ياقوت ٢ : ٩٦٠) وغدامس في المغرب جنوب ضاربة الى بلاد السودان (ياقوت ٣ : ٧٧٦) .
(٤) ياقوت ٤ : ٩٧ ، راجع ١ : ٨٩٢ ، راجع فتوح مصر ١٧١ ، ١٩٤–١٩٦ . وتكتب قسطيلية بالصاد ايضاً . وكذلك تكتب في المالين بياء واحدة بعد الطاء (راجع فتوح مصر ١٩٦) .

فلما صحت عزيمة عقبة على بناء قيروان لم يرض عن القيروان الذي كان معاوية بن حديج قد اتخذه من قبل ، فاختار مكاناً قريباً منه على كل حال ومتصفاً بما يلي :

١ — كان فيه شيء من الخصب وكان يصلح مرعى للأبل . أما أرضه فكانت بادية تشبه ما كان العرب قد ألفوه في جزيرتهم .
٢ — كان بعيداً عن البحر لا تطاله سفن الروم والفرنجة .
٣ — كان ذلك المكان طريقاً للقوافل ، كما كان مشهداً لمدينة قديمة .

وهكذا اختار عقبة المكان الذي تقع فيه مدينة القيروان الحالية . ثم ان عقبة اختط معسكره وحَرص على أن يختّط مسجداً ويعيّن فيه موضع القبلة ، في سنة ٥٠هـ (٦٧٠م) ، ولكنه لم يحدث هنالك بناء . ومع الأيام نزل الناس في هذا القيروان الذي أصبح وشيكاً مدينة عظيمة **وعاصمة مهمة** شهيرة ومركزاً من مراكز العلم والحضارة في العالم الاسلامي :

ولاية عقبة الاولى

في سنة ٥٠هـ (٦٧٠م) فصل معاوية بن أبي سفيان ولاية افريقية عن ولاية مصر ، فأقرّ ابن حديج على مصر وولّى على افريقية عقبة بن نافع الفهري . وفي تلك السنة نفسها ، أو في السنة التالية على الأغلب، كما ذكر ابن عبد الحكم (١)، عزل معاويةُ بن أبي سفيان معاويةَ بن حديج عن مصر أيضاً وولّى مكانه مَسْلمة بن مُخَلَّد (٢) . وكان مسلمة من أنجاد العرب ، وكان مع عمرو بن العاص في مصر ، ثم كان من أنصار عثمان بن عفان ومن أشياع بني أمية . وقد جمع معاوية لمسلمة المغرب كله من أطراف اقليم مصر الى طنجة — وهو أول والٍ جُمع له المغرب — ثم لم يزل والياً على المغرب الى أن هلك معاوية (٣) .

(١) فتوح مصر ١٩٧ .
(٢) «مخلد» بوزن «محمد» الطبري ٢ : ٩٣، ٩٤ ، البيان المغرب ١ : ٢١، ابن خلدون ٣ : ١٣٥ ، ٤ : ١٨٦ ، ياقوت ٤ : ٢١٢ .
(٣) الطبري ٢ : ٩٤ ، البيان المغرب ١ : ٢١ ، ٢٢ .

ولاية أبي المهاجر على افريقية

ثم ان مَسْلمة عزل عقبة عن افريقية وولّى عليها مكانه أبا المهاجر ديناراً مولى بني مخزوم ، أو مولى الأنصار . فوصل أبو المهاجر الى افريقية سنة ٥١هـ وأساء عزل عقبة — قيل لشيءٍ كان بينهما من قبل . فعاد عقبة الى المشرق وقدم على معاوية بن أبي سفيان متظلماً يقول : لقد فتحت البلاد وبنيت القيروان وخططت الجامع فيها وأطاعني الناس ثم أعزل بعبد من عبيد الأنصار ! فاعتذر معاوية لعقبة بالصلة التي تربط مسلمة (الذي ولى أبا المهاجر على افريقية مكان عقبة) وبحقه عليهم — لأنه كان من أنصار عثمان وأشياع بني أمية ومن الذين قاتلوا محمد بن أبي بكر في مصر ومهدوا لولاية عمرو بن العاص عليها ولدخولها في طاعة معاوية . ثم ان معاوية أغفل أمر عقبة (١) .

وكره أبو المهاجر أن ينزل في قيروان عقبة ومضى الى مكان يبعد نحو ميلين وراءه شمالاً ، مما يلي طريق تونس : ثم انه أمر الناس بأن يحرقوا قيروان عقبة وأن ينزلوا في قيروانه هو (٢) .

وبعث أبو المهاجر حنش بن عبد الله الصنعاني الى جزيرة شريك (وهي التي تعرف الآن بالجزيرة القبلية ، واليها يتجه السالك من باب الجزيرة أحد أبواب تونس) فافتتحها (٣) :

أما أبرز الحوادث في ولاية أبي المهاجر على افريقية فكانت قتاله لكُسيلة : كان كسيلة هذا من عظماء البربر ، ومن الموالين للروم الذين دخلوا في النصرانية : فلما قلّص العرب النفوذ الرومي عن المغرب برز كسيلة هذا يجمع حوله فلول الروم والفرنجة وجموعاً من قومه البرانس ليقاتل بهم العرب. وزحف أبو المهاجر على كسيلة فلقيه عند تلمسان ، في المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) ، فهزمه وفرق جموعه ثم أدركه وأسره (٤) .

---

(١) فتوح مصر ١٩٧—١٩٨ البيان المغرب ١ : ٢١—٢٣ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٦ .
(٢) البيان المغرب ١ : ٢٢ ، ابن خلدون ٣ : ١٣٥ ، ١٨٦ .
(٣) الاستقصا ١ : ٧١ .
(٤) ابن خلدون ٤ : ١٨٦ ، ٦ : ١٠٨ ، ١٤٦ ، الاستقصا ١ : ٧١ .

ولما لم يجد كُسيلة بداً من الخضوع لأبي المهاجر أظهر الاسلام، فقبل أبو المهاجر ذلك منه واستبقاه واستخلصه جُهدَه ثم ضمه الى نفسه فكان يستصحبه في حله وترحاله حتى يأمن انتقاضه :

وبقي مسلمة بن مُخلّد على مصر وافريقية ، كما بقي أبو المهاجر على افريقية من قبل مسلمة حتى توفي معاوية ، في منتصف رجب من سنة ٦٠ (نيسان ٦٨٠) ، وتولّى الخلافة ابنه يزيد :

ولاية عقبة الثانية

قدم عقبة على يزيد يعيد عرض ظُلامته فرده يزيد والياً على افريقية سنة ٦٢هـ (٦٨١—٦٨٢م) . فكان أولَ ما فعله عقبة أن ثأرَ لنفسه من أبي المهاجر فأعتقله وأساء عزله وقيده في الحديد وخرّب القيروان الذي كان أبو المهاجر قد بناه وأعاد بناء قيروانه هو (١) . وارتكب عقبة خطأً آخر كان أشد عليه هو نفسه أذى ، ذلك أنه جعل يسيءُ معاملة كسيلة ويذلّه بعد أن كان أبو المهاجر يتألّفه ويداريه : ويروى أن أبا المهاجر حذّر عقبة مَغبّة ذلك فلم يلق عقبة بالاً الى تحذير أبي المهاجر له : وكذلك كان عقبة يحمل أبا المهاجر مقيداً بالحديد وكسيلة في غزواته (٢) .

ورأى عقبة أن يثبّت فتوح العرب في افريقية مرة واحدة فزحف الى بلاد الجريد (جنوبي غربي القطر التونسي) ، وعلى مقدمته زهير بن قيس البَلَوِيّ ، وفتحها فتحاً ثانياً ثم صالح أهل فزّان (جنوبي لوبية) . في هذه الاثناء تابع عقبة فتوحه ، فيما يبدو لنا ، في المغرب الأوسط ففر منه الروم والفرنجة ومن كان قد انضم اليهم من البربر واستنزلهم من حصونهم ، مثل لميس وباغاية (بجاية التي يطل عليها جبل أوراس ، وهي غير بجاية الساحل) وفتح أذَنة

---

(١) فتوح مصر ١٩٨ ، البيان المغرب ١ : ٢٣ ، ابن خلدون ٣ : ١٣٥ ، ١٣٦، ٤ : ١٨٦ .
(٢) فتوح مصر ١٩٨، البيان المغرب ١ : ٢٣ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٦ ، ٦ : ١٤٦ .

عاصمة الزاب . وهكذا يكون عقبة قد أخرج الروم ، في مطلع ولايته الثانية ، من افريقية كلها : من بلاد الجريد في الجنوب الغربي ، ومن المنستير (جنوب سوسة ، على الساحل) في الشرق ، ومن قرطاجنة وما والاها في الشمال ، كما فتح جزءاً كبيراً من المغرب الأوسط في الداخل وعلى الساحل . وكان أحسن ما فعله عقبة في ذلك كله أنه أخرج الروم والفرنجة من الحصون والقواعد التي كانوا يملكونها والتي كانوا يشنون منها الغارات على العرب أو يؤلبون منها جموع البربر ويلقون بهم في المعارك (١) .

و « لما توالت الهزائم على نصارى افريقية (الروم والفرنجة فيها) وبربرها وكثر القتل فيهم حتى كاد يستأصلهم ، لجأ من بقي منهم الى الحصون والمعاقل فلم يبرحوها. فكره (عقبة) المقام على محاصرتهم فيفوته الغزو ... فترك أهل افريقية متحصنين بحصونهم وأوغل في الغرب (سائراً وساحل البحر)... حتى صار بأحواز (٢) طنجة ، وكان بها ملك اسمه يليان (يوليان) يملك منها الى ساحل المجاز بسبتة » (٣) .

ويبدو أن يليان هذا كان من بني غمارة البربر وكان على النصرانية فولاه القوط على المنطقة الممتدة من طنجة الى سبتة . ولا ريب في أن يليان كان ناقماً على الروم وعلى القوط معاً لما أنزلوا بالمغرب من التنازع والشقاء . من أجل ذلك رغب يليان في مسالمة العرب على أن يظل هو والياً على البلاد التي ولاه القوط عليها . وقد كان من حسن الحظ ومن التوفيق أن يقبل عقبة بذلك . وظل يليان خاضعاً في الظاهر للقوط ؛ ويبدو أن ذلك كان في أوائل سنة ٦٣هـ (أواخر ٦٨١م) .

فلما أمن عقبة جانب يليان ، وأطمأن الى أن ساحل المغرب حتى سبتة قد

(١) فتوح مصر ١٩٨ ، البيان المغرب ١ : ٢٤-٢٥ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٦ .
(٢) بانحاء .
(٣) البيان المغرب ١ : ٢٥-٢٦ .
(٤) راجع في ضبط اسم يليان وأصله وموقفه من العرب
Lévi - Provencal I 13'14; Historia de Espana III pàginas Ii, Iii, Iiii.

استقر في حكم العرب ، أراد أن يجوز البحر لمتابعة الفتح في الأندلس ؛ فنصحه يليان بأن يفتح المغرب الأقصى أولاً كيلا يترك البربر وراءه فيتعرض لوثبتهم (١) . ولا ريب في أن يليان كان مخلصاً في نصيحته لعقبة . وقد كان من التوفيق أن يعمل عقبة بما نصحه به يليان .

بعد فتح طنجة استخلف عقبة على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ثم سار قاصداً بلاد السوس الادنى . وكان معه أبو المهاجر موثقاً في الحديد وكسيلة . وما كاد عقبة يغادر القيروان حتى خالفه اليها رجل من العجم (الفرنجة) في ثلاثين ألفاً ، ولم يكن فيها سوى ستة آلاف مقاتل . ومع ذلك فقد رد العرب الثلاثين ألفاً عن المدينة وهزموهم (٢) .

ووصل عقبة الى بلاد السوس الادنى وبث الخيل فيها ثم واصل الزحف الى السوس الأقصى وقاتل بني مسوفة من أهل اللثام (٣) وراء السوس حتى بلغ البحر عند ماسة (٤) أو عند بلاد آسفي (٥) . ولما وصل عقبة الى البحر خاضه بحصانه ثم قال : « اللهم ، اني أشهدك أن لا مجاز . ولو وجدت مجازاً لجزت ! » ويروي ابن عذاري بضعة أقوال منسوبة الى عقبة في هذه المناسبة (٦) ؛ ثم ان عقبة قفل راجعاً ، وحارب في أثناء رجوعه أهل دكالة وأقواماً آخرين أكثر من الذين حاربهم في أثناء قدومه .

وغاب عن عقبة حذره وبعد نظره فأذن للجيش أن يتقدمه راجعاً الى القيروان ، وبقي هو في نحو ثلاثمائة من جنده ، معظمهم من الصحابة والتابعين ؛ وكان كسيلة يضطغن على عقبة سوء المعاملة التي لقيها على يديه ، فلما رأى منه هذه الغرة — وكان معه — احتال في مراسلة الروم والفرنجة لانتهاز الفرصة في

(١) الاستقصا ١ : ٧٣ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٩ .
(٢) فتوح مصر ١٩٨ ، راجع ١٩٤ .
(٣) قبائل من البربر كان رجالها يلبسون لثاماً يغطون به وجوههم .
(٤) البيان المغرب ١ : ٢٧ .
(٥) فتوح مصر ١٩٩ . الاستقصا ١ : ٧٣ .
(٦) البيان المغرب ١ : ٢٧.

عقبة واصحابه : فلحق بهم جيش كثيف من الروم والفرنجة ومن البربر الموالين لهم واعترضوا عقبة ومن معه عند تهودة ، في بلاد الزاب جنوب جبال أوراس قريباً من بسكرة (في المغرب الأوسط) فاستُشْهِد عقبه ومن معه جميعاً ، في أواخر سنة ٦٣ﻫ (آب ٦٨٣م) . وكذلك استشهد أبو المهاجر دينار وهو يقاتل مقيداً ، وكان قد أبى أن تفك عنه قيوده .

وبلغ المسلمين في افريقية ما نزل بعقبة وأصحابه وبزحف كسيلة عليهم فاقترح حنش بن عبد الله الصنعاني أن ينسحب المسلمون من افريقية الى مصر ؛ ولكن زهير بن قيس البلوي أصر على المدافعة والقتال . ثم ان حنش بن عبد الله انسحب راجعاً الى مصر وتبعه الناس ، فلم يجد زهير — وقد أصبح في جند قليل — بدّاً من الانسحاب أيضاً ، فعاد الى برقة وأقام مرابطاً فيها . في هذه الاثناء كان كسيلة قد وصل الى القيروان ، في المحرم من سنة ٦٤ﻫ (أيلول ٦٧٣) واستولى عليها ، فاستأمن اليه من كان قد بقي في افريقية من المسلمين ودخلوا في عهده لأنهم كانوا ضعافاً لا يستطيعون ضرباً في الأرض ولا يجدون ما يحملهم بمثل تلك السرعة التي انسحب فيها حنش بن عبد الله وزهير بن قيس بالجند والناس . وبقي كسيلة سائداً في القيروان خمس سنوات (١) . وبعد نحو شهرين توفي يزيد بن معاوية (ربيع الاول ٦٤ﻫ وتشرين الاول ٦٨٣م) فخلفه ابنه معاوية الذي توفي وشيكاً . وجاء مروان بن الحكم الى الخلافة في ذي القعدة ٦٤ﻫ ومكث فيها عشرة أشهر قضاها في مقاتلة ابن الزبير . ولما خلفه ابنه عبد الملك (رمضان ٦٥ = نيسان ٦٨٥) كان ابن الزبير لا يزال سائداً في معظم الأقطار الإسلامية : في الحجاز وسائر الجزيرة العربية ، وفي مصر (٦٤–٦٥ﻫ) وفي العراق . وهكذا اشتغل بنو أمية عن أمر المغرب كله مرة واحدة .

---

(١) راجع في ما يتعلق بولاية عقبة الثانية : فتوح ١٩٨–١٩٩ ، البيان المغرب ١ : ٢٦–٣١ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٦ ، ٦ : ١٤٦ ، ٧ : ٨–٩ ، الاستقصا ١ : ٧٣– ٧٥ .

ولاية زهير بن قيس البلوى

وفي سنة ٦٩ﻫ (١) ، وقبل أن يتغلب عبد الملك بن مروان على ابن الزبير بنحو أربع سنوات ، رأى عبد الملك من الحكمة أن يهتم بالمغرب ، فأمدّ زهير ابن قيس البلوي بجيش كبير وولاه افريقية . وسار زهير الى القيروان فاذا كسيلة قد جمع جيوشاً كثيفة من الروم والفرنجة ومن البربر الموالين لهم . ونشبت المعركة بين العرب وكسيلة فقتل كسيلة وانهزمت جيوشه ، على كثرة عددها ، الى ما وراء وادي مَلْوِيّة واستقرت عند مدينة وَليلي (بين موضع مدينة فاس ومدينة مكناس) بجانب جبل زهرون . وخلص للعرب كل ما كان الى غرب نهر ملوية ؛ ومع ذلك فان زهير بن قيس آثر الرجوع الى برقة ، ولكن بقي كثير من الناس في القيروان .

وعلم الروم (البيزنطيون) بخبر رجوع زهير بن قيس من القيروان الى برقة فأرادوا اعتراض طريقه . ويغلب على الظن أن الامبرطور قسطنطين الثالث كان قد قتل اغتيالاً في سرقوصة (سقلية) وخلفه ابنه القاصر قسطنطين الرابع الملقب بالملتحي . وأغار الروم على سواحل برقة باسطول كبير مشحون بجيوش كثيفة واكثروا هنالك القتل والأسر والنهب. ووافق تلك الغارةَ وصولُ زهير ابن قيس فدخل المعركة منجداً ، ولكن الروم كانوا من الكثرة بحيث هزموا العرب هزيمة كاملة واستُشْهِد زهير وكثيرون ممن كانوا معه (٦٩ﻫ=٦٨٩م) ؛ وكان مقتل زهير في الفجيعة كمقتل عقبة من قبل (٢) .

ولاية حسان بن النعمان

ويبدو أن عبد الملك أراد منذ عام ٦٩ﻫ ، منذ مقتل زهير بن قيس البلويّ ، أن يعيد هيبة العرب الى المغرب ،ولكن لم يتسنّ لهذلك على وجه صحيح الا بعد

---

(١) في ابن خلدون ((٦ : ١٤٦) سنة ٦٧ ﻫ .

(٢) ولاية زهير بن قيس راجع فتوح مصر ٢٠٠ ، البيان المغرب ١ : ٣١ – ٣٢ ، ابن خلدون ٦ : ١٤٦ ، ٧ : ٨ ، ياقوت ١ : ٣٢٦ ، ١ : ٨١ .

أن خلصت له الخلافة في المشرق بالتغلب على عبد الله بن الزبير وقتله في جمادي الثانية من سنة ٧٣هـ (تشرين الاول ٩٢م).ففي فتوح مصر (ص٢٠٠) أن عبد الملك أمّر حسان بن النعمان على افريقية في سنة ٧٣هـ ثم أمدّه سنة (٧٤هـ) بأربعين ألفاً . فدخل حسان بن النعمان الى افريقية ومضى يسترد مدنها واحدة واحدة . فبعد أن دخل القيروان سار الى قرطاجنة وقاتل من كان قد عاد اليها من الروم ثم حاصرها وفتحها عَنوة وخرّبها وفر من كان بها من الروم والفرنجة الى سقلية والأندلس . ثم اجتمع هؤلاء في صفطورة وبنزرت فهزمهم حسان ثانية فانحازفلّهم من الروم الى باجة وتحصنوا بها، وهرب البربر الى بونة.

كان البربر قد اجتمعوا بعد مقتل كسيلة على امرأة من بني جَرْوة من البُتْر اتخذت مقرها بجبل أوْراس اسمها دِميا أو دَهيا، وتعرف بالكاهنة . لما علمت الكاهنة بمقدم حسان بن النعمان رحلت من جبل أوراس في عدد لا يحصى وسبقته الى باغاية . ثم بلغها أن حسان بن النعمان نزل بوادي مسكيانة فجاءت الى ذلك الوادي ونازلته هناك ، فانهزم العرب وقتل منهم كثيرون . ثم استطاعت الكاهنة أن تخرج العرب من افريقية وأن تدخل القيروان أيضاً ، فلم يجد حسان بن النعمان بدّاً من الرجوع الى برقة .

ويبدو لنا أن الكاهنة كانت سيئة الرأي جداً ، فانها اضطهدت النصارى والافارقة (١) فخرج منهم خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم منها وتفرقوا في اسبانية وفي الجزر القريبة منها ، وكان ذلك من الأسباب التي حملت أهل المغرب على كره الكاهنة وعلى القبول بالحكم العربي وبالاسلام تخلصاً من ذلك الظلم الذي ذاقوه ألواناً على أيدي الروم والفرنجة وعلى أيدي ملوكهم أحياناً . وكان من سوء رأي الكاهنة أيضاً أنها خربت المدن وقطعت الأشجار (٢)ظناًمنها أن العرب اذا رأوا في المغرب مثل ذلك الخراب ومثل هذا القحط زهدوا فيه وتركوافتحه. وقد غاب عنها امران اثنان :

(١) سكان المغرب الاصليون ، المغاربة ، البربر .
(٢) البيان المغرب ١ : ٣٦-٣٧ .

١) ان الفتح العربي كان استجابة لدواعٍ كثيرة أبرزُها وأجلها شأناً الباعث الروحي لنشر الدعوة . وعمل الكاهنة لا تأثير له على هذا الباعث خاصة.

٢) ان العرب قد جاءوا من بلاد كثيرة الجدب، والبدو منهم خاصة قد جاءوا من مناطق لا أشجار فيها . ولم يكن بأمكان الكاهنة ، ولو حرَصت ، أن تخرب كل دار وأن تقطع كل شجرة . ولذلك ظل المغرب ، على الرغم من أفاعيل الكاهنة فيه، جنةً خضراء بالاضافة الى بوادي بني أسد.

٣) ثم أن عمل الكاهنة قد زاد في كره قومها لها وكان عاملاً سلبياً في التمهيد لاستقرار الحكم العربي في المغرب .

من أجل ذلك كله لا نستغرب اذا علمنا من التاريخ أن الحرب التي شنتها الكاهنة على العرب كانت آخر عزيمة للمغاربة على صد الفتح العربي .

ولما عاد حسان بن النعمان من افريقية بالعرب الى برقة كان عبد الملك خارجاً من قتال عبد الله بن الزبير ومستقبلاً لاستئناف النزاع بينه وبين الروم في المشرق ، بعد أن كان قد هادنهم طِوال أزمة ابن الزبير . من أجل ذلك بعث الى حسان يأمره بالتريّث في مكانه من برقة حتى يأتيَه أمُره .

وكان من حسن حظ العرب أن جاء الى عرش الروم، مع مجيء عبد الملك الى سدة الخلافة (عام ٦٨٥م = ٦٥-٦٦هـ) شاب في السادسة عشرة من عمره طمّاح ، قليل الأتزان سيّئ الظن بالناس محب للعنف متصف بالشراسة ميال الى سفك الدماء ، هو يوستنيانوس الثاني (٦٨٥-٦٩٥م) . وقد اشترى عبد الملك السلم من يوستنيانوس الثاني في أول الأمر بالمال (٧٠هـ=٦٨٩م) ، قبل التغلب على عبد الله بن الزبير ، ولكن حمله على سحب المردة من جبال لبنان . ثم ان يوستنيانوس الثاني اشتغل بحرب القبائل البلغارية وبحرب الصقالبة في البلقان على مقربة من دار ملكه . وفي سنة ٧٥هـ (٦٩٤م) انتزع العرب ارمينية من الروم. وزاد في قلق مركز يوستنيانوس الثاني أن وقع النزاع بينه وبين البابا سرجيوس في شأن تحريم الصوم يوم السبت والأذن للكهنة بالزواج . وكذلك وقع النزاع بينه وبين البطريرك لأنه أراد (٦٩٤م) أن يهدم كنيسة في القسطنطينية ليبني مكانها

بناء خاصاً به . أضف الى ذلك كله أن حروب يوستنيانوس كانت قد استنفدت كل ما في خزينة الدولة . فلم يكن من المستغرب قط أن يتفق بطريرك القسطنطينية والشعب الرومي على خلع يوستنيانوس الثاني . ورجا الروم من لاونديوس القائد الأعلى للجيش الرومي خيراً فنصبوه امبرطوراً ، ولكنهم عادوا فخلعوه بعد ثلاثة أعوام ، في ٦٩٨م (١) .

وبعد مقتل عبد الله بن الزبير بعث عبد الملك بن مروان الى حسان بن النعمان بمدد جديد(٢) فجدّ حسان في طلب الكاهنة . وكان جماعة من قوم الكاهنة قد ساءهم ما فعلت في البلاد من الخراب فخذلوها واستأمنوا الى حسان . وتقدم حسان الى أن لقي الكاهنة عند طبرقة فهزمها وقومها ثم تتبع أثرها وقتلها في جبل الأوراس في موضع عرف فيما بعد ببئر الكاهنة . وكان مقتل الكاهنة في سنة ٨٢هـ (٧٠١م) في الأغلب .

وملك حسان بن النعمان جبل أوراس ودوخ نواحيه ثم انصرف الى القيروان فدخلها في رمضان من سنة ٨٢ (تشرين الاول ٧٠١) ، بعد أن بعث البعوث الى أطراف المغرب. ومنذ ذلك الحين أستأمن جمهور البربر الى حسان وحسنت طاعتهم وأخذ الاسلام ينتشر بينهم . وأمّن حسان البربر وكتب الخراج على من كان معهم من الروم والفرنجة من الذين اختاروا أن يبقوا على النصرانية . وأقام حسان بن النعمان بعد ذلك لا يغزو في المغرب . ثم أن عبد العزيز بن مروان ، أخا عبد الملك ووالي مصر ، عزل حسان بن النعمان عن افريقية ، قبل من غير أن يستشير في ذلك أخاه (٣) .

وقبل أن يرجع حسان بن النعمان الى المشرق استخلف على أفريقية رجلا من

---

(١) الروم وصلاتهم بالعرب ١، ١٦٤-٢٧١ .

(٢) لعل ذلك كان ما بين ٧٤ و ٧٩ هـ (٦٩٣-٦٩٨م) ، راجع ابن خلدون ٦ : ١٠٩ . أما ابن عذاري (البيان المغرب ١ : ٣٩) فقال : « وغزوات حسان لم تنضبط بتاريخ محقق ، ولا فتحه لمدينة قرطاجنة وتونس ، ولا قتلة الكاهنة » .

(٣) ولاية حسان بن النعمان الغساني ، راجع فتوح مصر ٢٠٣ ، البيان المغرب ١ : ٣٤-٣٩، ابن خلدون ٣، ١٣٧ ، ٤ : ١٨٧ ؛ ٦ : ١٠٩ ، ٧ : ٨-٩ . Enc. Isl. II 626.

جنده اسمه أبو صالح(١) أو صالح(٢) . ويبدو أن حسان لم يلبث — بعد رجوعه الى المشرق — الا قليلا حتى توفي .

ولاية موسى بن نصير على افريقية

في جمادي الاولى من سنة ٨٥ (أيار ٧٠٤) توفي عبدالعزيز بن مروان والي مصر ، فولّى عليها عبدُ الملك أخاه عبدالله . وفي شوال من سنة ٨٦ (تشرين الاول ٧٠٥) توفي عبد الملك فخلفه ابنه الوليد ، فكتب الوليد الى عمه عبدالله بأنه قطع افريقية والمغرب عن ولاية مصر وولّى عليهماموسى بن نصير استقلالا .

كان موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد ، فيما ذكر ابن عِذاري(٣) عن كتاب الصلة لابن بشكوال ، من لخم وقيل من بني بكر بن وائل . وذكر البلاذري (ص ٢٣٠) أن موسى بن نصير من أراشة بن بَلِيّ (٤) أو من لخم . وهذا كله يتعارض مع قول ياقوت(٥) من أن نصراً والد موسى كان من سبي جبل الخليل من أرض الشام، سُبي في أيام أبي بكر . وقيل بل كان نصير من علوج أصابهم خالد بن الوليد في عين التمر(٦) فادّعوا انهم من بني بكر بن وائل(٧) . وقيل فيه أيضاً إن صبيحا مولى أبي العاص بن أمية أعتقه . ثم إن معاوية بن أبي سفيان جعله على حرسه (٨)أو على خيله (٩) . ثم إنه صار وصيفاً لعبد العزيز بن مروان (١٠) .

---

(١) فتوح مصر ٢٠٣ السطر الاخير .

(٢) ابن الاثير ٤ : ٤٢٧ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٧ ، الاستقصا ١ : ٧٤ .

(٣) البيان المغرب ١ : ٣٩، ٢ : ٢٢ .

(٤) راجع جمهرة أنساب العرب ٤١٣-٤١٤ ، راجع البيان المغرب ٢ : ٢٢ .

(٥) ياقوت .

(٦) عين التمر التي في العراق لا التي في الحجاز.

(٧) أخبار مجموعة ٣ .

(٨) الروض المعطار ٤ .

(٩) البيان المغرب ٢ : ٢٢ .

(١٠) اخبار مجموعة ٣ .

أما موسى نفسه فقيل انه ولد سنة ١٩هـ (٦٤٠م) في قرية يقال لها كَفَرمَثْرى وكان أعرج (١) . وولى عبد الملك بن مروان موسى بن نصير على خراج البصرة فاحتجن شيئاً من المال ، فأنبئ أن الحجاج بن يوسف أوْعَدَه فهرب ناجياً الى مصر واستجار بواليها عبد العزيز بن مروان — للصلة التي كانت بين أبيه وبين عبد العزيز ، أو لصلة كانت له هو بعبد العزيز — . فذهب عبد العزيز بموسى الى دمشق وشفع له عند عبد الملك (٢) .

لما وصل موسى بن نصير الى افريقية عزل عنها صالحاً الذي كان حسان بن النعمان قد استخلفه عليها ثم أخذ يبعث البعوث الى النواحي : بعث صالحاً نفسه الى بعض النواحي ، وبعث ابنه عبد الله بن موسى الى جزيرة ميورقة فغنم وسبى وعاد ، ثم بعثه مرة ثانية الى بعض نواحي افريقية . وكذلك بعث ابنه مروان الى السوس في الأغلب (٣) .

ثم ان موسى سار الى زَغوان ، وهي على نحو خمسين كيلومتر جنوب تونس ، ففتحها وفتح ما حولها ، ثم فتح سجومة وطُبْنة (وهي بلدة كبيرة على ضفة الزاب) وسقرمى (وهي بلدة قرب فاس عرفت فيما بعد باسم يقرمي) . وقد أخضع قبائل هوّارة وزِناتة وكتامة. ويبدو أن موسى عطف بعد ذلك الى الشمال فوصل الى طنجة وكان لا يزال فيها يليان فسالمه كما كان عقبة قد فعل من قبل ؛ وكذلك خضع له يليان كما كان قد خضع لعقبة ، ولكنه ظل يظهر الطاعة للقوط في طليطلة . عندئذ انحدر موسى جنوباً « حتى انتهت خيله الى بلاد السوس الأدنى (البلاذري ٢٣٠) » ، وهي بلاد دَرْعة وصحراء تافيلالت . ثم إن

(١) ياقوت ٤ : ٢٩١ .

(٢) البيان المغرب ١ : ٣٩ — ٤٠ .

(٣) البيان المغرب ١ : ٤٠ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٧ .

موسى وجه زُرعة بن أبي مدرك الى قبائل مصمودة فصالحوه وأعطَوه رهائن وأذعنوا له . وأسكن موسى في طنجة نحو سبعة عشر ألفاً من البربر وولى عليها مولاه طارق بن زياد الليثي ثم عاد الى القيروان في سنة ٨٨هـ أو ٨٩هـ (٧٠٧م) ؛ وفي هذا الحين أيضاً عقد موسى لعيّاش بن أخيل على مراكب افريقية وبعثه على جزيرة سقلية . فسار اليها عياش وغزا مدينتها سرقوصة وغنم وسبى ثم قفل راجعاً (١) .

(١) البلاذري ٢٣٠ ، البيان المغرب ١ : ٤٠ — ٤٢ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٧ — ١٨٨ ، ياقوت ٣ : ١٠١ ، ٥١٥ .

الفتح في الاندلس

ان فتح الأندلس كان استمراراً لحركة الفتح العامة التي خرج بها العرب من شبه جزيرتهم . لقد كان الباعث الاول للفتح روحياً غايته نشر الدعوة . ثم كان من البواعث خوف العرب في المغرب من أن يعود القوط والفرنجة ، ومن ورائهم الروم ، من قطر قريب اليهم ليس بينهم وبينه سوى عشرين كيلومتر ؛ ان فتح الأندلس كان ضرورة لحفظ المغرب من الغارات عليه ومن اثارة الفتن فيه . ثم كان هنالك الجيش القائم وخصوصاً بعد أن زاد سبعة عشر ألفاً من البربر الذين وضعهم موسى بن نصير تحت إمْرة مولاه طارق بن زياد في طنجة . فاذا وجد هذا الجيش القائم فراغاً في وقته فإن ذلك قد يصرفه الى التنازع في ما بينه ؛

البواعث السلبيـــة

على أنه كان ثمت بواعث سلبية عجلت بفتح الأندلس وكانت من الأسباب التي جعلت هذا الفتح واسعاً سريعاً يسيراً . من هذه البواعث السلبية :

١) الانشقاق في البيت القوطي المالك والتنازع على العرش .

٢) كان الأشراف حزبين يشايع كل حزب منهما فريقاً من أهل البيت المالك ؛

٣) كان رجال الدين قد أصبحوا أغنياء وأصبحوا يهتمون ، أولَ مايهتمون، بمصالحهم الخاصة ويسومون أقنانهم سوء العذاب كما كان يفعل الأشراف سواء بسواء .

٤) نفور أهل الطبقة الوسطى مما كانوا فيه من الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي يدفعون الضرائب وحدَهم ، لأن الأشراف ورجال الدين كانوا طبقتين ممتازتين لا يدفع أهلهما ضرائب

الى الدولة ، بل كانوا يفرضون على أهل الطبقة الوسطى ضرائب خاصة بهم ؛ أما الاقنان وأهل الطبقة الدنيا فلم يكن باستطاعتهم أن يدفعوا مالاً لأحد لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً .

٥) أما حال الأقنان (الأرقاء الذين يعيشون في الاقطاعات) من الناحية الاجتماعية والانسانية فقد كانت سيئة جداً : (أ) لا يتزوج أحد منهم من ذكر أو أنثى الا بأذن سيده . (ب) اذا رزق أولاداً فأولاده عبيد لسيده ؛ (ج) اذا اتفق أن تزوج قن في أرض بأمرأة من أرض ثانية فأولادها يقسمون بين صاحبي الأرضين .

٦) وكان اليهود خاصة تضطهدهم الدولة ويضطهدهم الاشراف ورجال الدين ، بينما كانوا هم يضطهدون أبناء الطبقة الوسطى : (أ) كانت الدولة تأخذ منهم قروضاً ثم تدفعهم الى تحصيلها من الشعب (من أهل الطبقة الوسطى).وكان الاشراف يفعلون بهم فعل الدولة . من أجل ذلك اضطر اليهود الى التسلط بالربا على أبناء الطبقة الوسطى خاصة . ثم انهم أخذوا يعملون في النخاسة (يتاجرون بالارقّاء والخِصيان يأخذونهم من الأندلس أو يأتون بهم من خارجها) .أما رجال الدين خاصة فجعلوا اضطهاد اليهود سياسة صريحة لهم وحملوا الدولة على تبنّي تلك السياسة، وكانوا لا يبايعون ملكاً على اسبانية الا اذا تعهد بتنفيذها . أما حجة رجال الدين في اضطهاد اليهود فهي ان اليهود قتلوا المسيح وأنهم يأخذون الربا وأنهم يعملون في النخاسة . وأقرت الكنيسة سياسة الاضطهاد هذه عام ٦١٦ م (٦ قبل الهجرة) ، في أيام الملك سيسيبوت (٦١٢ — ٦٣١ م) ، وكان رومانيّ الهوى وكاتباً باللغة اللاتينية . وقد أعطي اليهود مهلة سنة يصبأون في خلالها الى النصرانية والا أخرجوا من اسبانية بعد مصادرة أموالهم ، فأظهر تسعون الفاً منهم النصرانية ولكنهم ظلوا يختنون أولادهم ويضمرون اليهودية . وعلم رجال الدين بحقيقة هذا الأمر فقرروا في المجمع الرابع الذي انعقد عام ٦٣٣ م (١٢ هـ) في طليطلة(١) ، في أيام سيسيناندو في اسبانية وأيام أبي بكر الصديق في المشرق ، ما يلي :

(١) راجع في شأن هذا المجمع . Historia de Espaua III 117

(أ) يترك اليهود البالغين وشأنهم، ولكنهم يُسلّمون أولادهم الى الكنيسة، في السنة السابعة من عمرهم، ليصير تنشيئهم على النصرانية.

(ب) لا يتزوج عَزَبٌ يهودي الا بنصرانية ، ولا تتزوج عَزَبَةٌ يهودية الا بنصراني ؛

(ج) اذا رفض يهودي ذلك فإنه يُستَرَق وتُصادر أمواله .

ومن الغنيّ عن البيان أن من شأن هذه الأحوال التي ذُكرت آنفاً أن تحمل الذين تعرضوا لها على أن يطلبوا التخلص من عواقبها بانقلاب سياسي يقضي على الدولة الراهنة من غير أن يفكروا في أمر الدولة المقبلة . إن كل ظلم مقبل يمكن أن يكون أخف من الظلم الذي سيأتي. فكيف اذا كانت الدولة الآتية دولة عربية مسلمة سبقت شهرتها بالعدل والتسامح الى آذان هؤلاء المظلومين !

يليان وابنته خاصة

لم يكن تشجيع يليان لموسى بن نصير سبباً لفتح الأندلس ، **بل سبباً للتعجيل بفتح الاندلس**. ولا ريب في أن حمية يليان في ذلك كانت موضع استغراب شديد من قومه ودولته ومنا نحن العربَ أيضاً . ويحسن أن ننظر الى عمل يليان من الوجوه التالية :

أولاً — نرى أن يليان كان من البربر ، وكان قد رأى ما عاناه قومه من الظلم والاضطهاد والتأخر على يد الروم والفاندال والقوط ، فدفعه العامل القومي الى أن يقلّص عن بلاده ظل الذين خرّبوها وظلموا أهلها .

ثانياً — يرى قوم يليان ان يليان كان من أنصار غيطشة الملك المخلوع —وكانت زوجته بنت غيطشة— فأراد أن يرد الملك الى غيطشة وحزبه بازالة الملك من لذريق وحزبه . ان هذا العمل شخصي من ناحية وحزبي من ناحية أخرى. ولكن استنجاد يليان بالعرب وتيسيره غزو الاندلس لهم يعدّ ، من وجهة نظر الطبقة الحاكمة في اسبانية ، في باب الخيانة(١) . ويبدو لنا ان غاية يليان وغاية الذين كانوا وراء

(١) راجع فوق ص ٣٨ و الحاشية.

استنجاده بالعرب كانت أن يساعدهم العرب على قلب الحكم في الاندلس ثم يرجعوا الى المغرب . غير أنه قد غاب عن هؤلاء جميعاً أن العرب الذين خرجوا من بلادهم للجهاد في سبيل الله لم يكونوا ليجعلوا من دينهم ومن أنفسهم وسيلة الى تحقيق اغراض قوم آخرين : ان الذين اشتروا الآخرة بدنياهم لا يمكن أن يبيعوا آخرتهم برد للدنيا الى غيرهم .

ثالثاً — ويقول آخرون أن يليان فعل ذلك **انتقاماً من لذريق الذي فضحه بابنته** ؛ كان من عادة الاشراف أن يبعثوا بأولادهم الى بلاطات ملوكهم لينشأوا على آداب القصور وسلوك الملوك . وكان يليان قد بعث ببنته فلوراندة الى بلاط لذريق ، فيزعمون أن لذريق استحلاها وفضحه فيها . ان قصة فلوراندة بنت يليان قد تكون خرافة وقد تكون حادثة صحيحة ، ولكن مما لا ريب فيه أنه لا صلة لها بفتح العرب للاندلس .

أ) ان عداوة يليان للذريق ترقى الى العام الذي خُلع فيه حموه غيطشة ، قبل ان يكون الاتصال المزعوم بابنته .

ب) ان قصة ابنة يليان مع لذريق تشبه قصة ابنة قيصر الروم مع امرىء القيس ، فقد زعموا من قبل أيضاً أن أمرأ القيس ، لما ذهب في عام ٥٣٨م الى القسطنطينية يستنجد بالامبراطور يوستنيانوس الاول ويطلب منه جيشاً ليحارب به بني أسد ، أحب ابنته واتصل بها . فغيظَ قيصر (يوستنيانوس) وأهداه حلة مسمومة تقرّح منها جسده ومات ، ولذلك سمّي امرؤ القيس « ذا القروح »(١) .

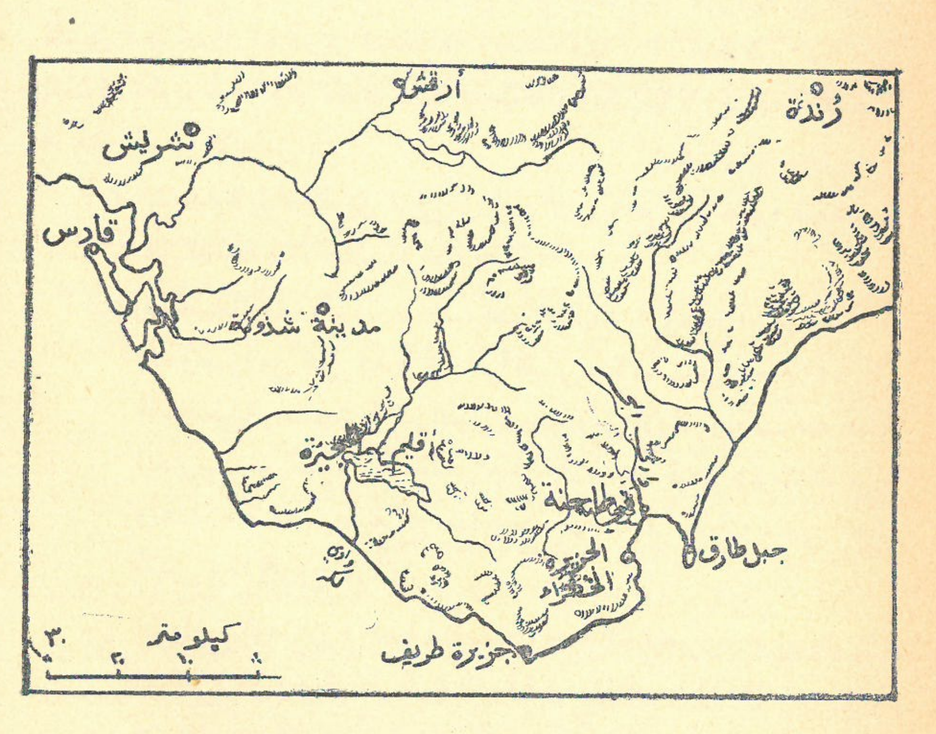
ج) ان واضع القصتين ، قصة ابنة يليان وقصة ابنة قيصر ، عربي نظر الى الموضوع من وجهة نظر البيئة الشرقية البدوية العربية الاسلامية ، بينما نحن نعلم من التاريخ أن الفسق والفجور كانا سائدين في بلاد الروم وبلاد القوط الى درجة أن مثل هذا الحادث — لو حدث فعلا — لما أمكن أن

(١) الاغاني ٩ : ٧٨ ، ٩٩ — ١٠٠ .

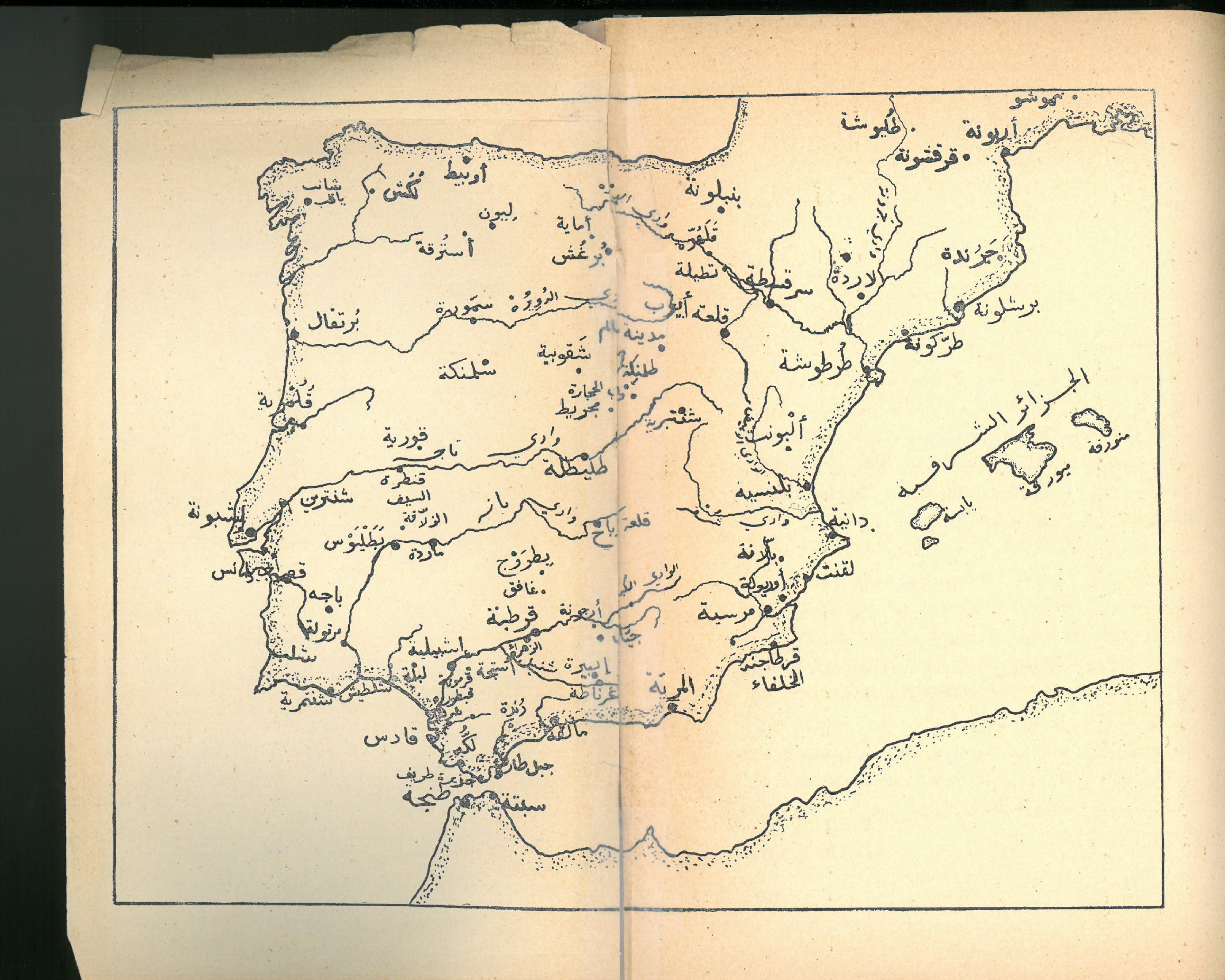
يثير في أيامه مثل الضجة ولا أن يهز وجدان الذين يمسهم حدوثه مثل هذه الهزة .

د) ان العرب قد خرجوا مجاهدين في سبيل الله ، ولا يمكن أن يكون فتحهم للاندلس نتيجة غضبة لرجل ، كائناً من كان ذلك الرجل .

على أن جميع الأسباب الآنفة الذكر قد استطاعت ، لما اجتمعت ، أن تكون عاملا مساعداً على فتح الاندلس ، عجّلت به وسهلته ، ولكنها لم تكن سبباً له .



خارطة لنزول طارق في الاندلس ولمعركة وادي لكه



فتح الاندلس

•

خطته وسيره :

لما صحت عزيمة موسى بن نصير على التعجيل بفتح الأندلس لم يشأ ان يغامر بجيوشه قبل ان يستوثق مما كان قد أخبره به يليان. لقد كانت الفرصة سانحة في كل مكان : فالدولة الأموية كانت يومذاك في أوج قوتها ، أما القسطنطينية فكانت نهباً للفوضى : **فان يوستنيانوس الثاني الذي جاء الى العرش للمرة الثانية (٧٠٥ – ٧١١ م) لم يُلق بالاً إلا الى الثأر لنفسه ممن كانوا قد أساءوا اليه في أثناء توليته الاولى (٦٨٥ – ٦٩٥ م)** . لقد بدأ ولايته الجديدة بقطع رأس سلفه طيباريوس الثالث . ثم انه أمر في عام ٧٠٩ م (٩٠ – ٩١ ﻫ) بقتل حرس مدينة رافينة (رفنّا) في ايطالية انتقاماً منهم لأنهم كانوا قد خذلوه قبل خمس عشرة سنة ، في أثناء ولايته الأولى . وبعد مدة يسيرة استدعى الامبراطور يوستنيانوس الثاني البابا قسطنطين الأول الى القسطنطينية في عام ٧١٠ م . ومع أنه احتفى به احتفاءً بالغاً فانه لم يسمح له بالرجوع الى رومية إلا في الرابع والعشرين من تشرين الأول من عام ٧١١ (1) ، بعد معركة وادي لكّه بثلاثة اشهر ، وبعد ان حمله على التنازل عن بعض سلطاته من جديد . وكذلك انتقم من أهالي خرصون لأنهم أساءوا استقباله لما حمل الى بلدهم منفياً بعد خلعه عام ٦٩٥م . وفي كانون الأول من عام ٧١١ (صفر ٩٣) – بينما كان العرب يسيرون في الأندلس يفتحونها فتحاً يسيراً هيناً – ثار الروم على يوستنيانوس الثاني وخلعوه ثم

---

(1) Enc. It. XI 611 a .

قطعوا رأسه (١) . اما في الأندلس نفسها فان القوط كانوا مشغولين بالفتن والمكائد في الداخل ، وبحروب الفرنجة في شمالي بلادهم .

رحلة يوليان

ولم يسرع موسى بن نصير الى قبول رأي يوليان في غزو الأندلس ، إذ يبدو أن موسى خشي ان يكون يوليان قد دبر للجيش الاسلامي مهلكاً . من أجل ذلك اقترح موسى على يوليان ان يذهب هو اولا الى استكشاف ساحل اسبانية وان يحاول النزول في مكان امين منه . ففي اواخر سنة ٩٠ هـ (خريف عام ٧٠٩ م) أبحر يوليان في عصبة من أتباعه من سبتة ونزل على ساحل الجزيرة الخضراء فقتل وسبى وغنم وأقام بها اياماً يشن الغارات. وشاع الخبر عند المسلمين فأنسوا بيوليان (٢) ؛

حملة طريف

ومع ذلك كله فان موسى لم يطمئن فأرسل حملة صغيرة فيها أربعمائة رجل (٣) منهم مائة فارس بقيادة مولى له من البربر اسمه طريف (٤) . وجاز طريف البحر في أربعة مراكب أعارها يليان للعرب حتى نزل في مكان يقال له جزيرة الأندلس فيما يحاذي طنجة – غرب المكان الذي كان يليان قد نزل فيه – وكانت مكاناً صالحاً للنزول (٥) .

وأقام طريف في هذه الجزيرة التي عرفت فيما بعد باسمه « جزيرة طريف » حتى تتامّ أصحابه ثم أغار عليها وعلى ما يليها بمعونة يليان (٦) . وعاد طريف من

---

(1) Cf. Bréhier I 68, 70-71 .

(١) راجع ابن الأثير ٤ : ٤٤٦ ، الروض المعطار ٨ ، نفح الطيب ق ١ : ١١٨ ، . Lévi - Provençal I 16

(٣) في نفح الطيب : مائة فارس وأربعمائة رجل (ق ١ : ١٠٦) ، ... الف رجل (ق ١ : ١١٩) .

(٤) طريف بن مالك النخعي (ابن خلدون ٤ : ١١٧) ، ... بن ملوك المعافري – بتشديد اللام – (الروض المعطار ٨) .

(٥) Historia de Espana III 23, 59

(٦) نفح الطيب ق ١ : ١٠٦ .

غزوته هذه الى طنجة بغنائم كثيرة وأسرى وبمعلومات هي أثمن من تلك الغنائم ؛ وكانت تلك الحملة في رمضان من سنة ٩١ (١) وتموز من عام ٧١٠ ؛

حملة طـــارق

وفي العام التالي بعث موسى بن نصير مولى آخر له اسمه طارق بن زياد (٢) ؛ في سبعة آلاف رجل جلهم من البربر والموالي (٣) وأقلهم العرب لفتح الاندلس . وبدأت سفن (يوليان) الاربع تنقل الرجال والخيل والعتاد ، بينما كان موسى جاداً في بناء سفن أخرى. ثم إن طارقاً جاز البحر في آخر الناس ، وكان نزوله على الشاطىء الاسباني في الخامس من رجب من سنة ٩٢ (٤) ، الموافق للثامن والعشرين من نيسان ٧١١ ، عند رأس في أقصى الجنوب ، في جزيرة الاندلس أو جزيرة طريف في موضع عرف فيما بعد باسم جبل طارق. ويزعمون أن طارقاً أحرق السفن لما نزل بجنوده الى البر ثم ألقى خطبة يحرّض المجاهدين فيها على القتال (٥) .

« وفي حكاية أن طارق بن زياد لما ركب البحر غلبته عيناه فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسيّ ، فيقول له النبي : يا طارق ، تقدم لشأنك ! ونظر (طارق) اليه والى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه . فهب من نومه مستبشراً ، وبشّر أصحابه ،

---

(١) راجع أخبار مجموعة ٦ ، ابن الأثير ٤ : ٤٤٤ ، البيان المغرب ٢ : ٤ ، ٥ ، الروض المعطار ٨ ، ١٢٧ .

(٢) قيل في طارق انه عربي وأنه طارق بن عمرو (فتوح مصر ٢١٠) أو طارق بن زياد الليثي. وقيل بل هو فارسي (نفح ق ١ : ١١٩) . والصحيح أنه من البربر من نفزاوة ، وقد ساقوا نسبه من طرق مختلفة (راجع البيان المغرب ١ : ٤٣ ، ٢ : ٥ ، الروض المعطار ٧٥) ؛

(٣) ابن الأثير ٤ : ٤٤٤ ، أخبار مجموعة ٦ . وقيل كان فيهم ستة عشر رجلا من العرب فقط (فتوح مصر ٢٠٤ ، الروض المعطار ٩) .

(٤) ابن الاثير ٤ : ٤٤٤ . وقيل يوم سبت من شعبان ٩٢ الموافق لشهر غشت – أغسطس – آب ، وقيل في رجب (الروض المعطار ٩) . راجع ايضاً نفح الطيب ق ١ : ١١٩ .

(٥) الروض المعطار ١٠ ، نفح الطيب ق١ : ١٢١ . لا يمكن أن يكون طارق قد أحرق السفن لأن هذه السفن كانت ليوليان ، ولأن الحاجة اليها كانت شديدة للتردد بين الشاطئين ، فان سبعة=

ولم يشك في الظفر (١) » : فاذا صحت الرواية في هذه الرؤيا ، فانها تدل بلا شك على رغبة طارق في تحقيق فتح الأندلس وعلى اعتلاج هذه الرغبة في عقله الباطن .

ويبدو ان موسى كان قد أمر طارقاً ، من باب الاحتياط ، ان يعود الى افريقية إذا ظفر في قتال القوط في الأندلس ، او أن يلبث مكانه ينتظر منه أمراً جديداً (٢) : وكذلك كان موسى قد بعث يوليان مع طارق ليدله على عورات البلاد وليتحسس له الأخبار (٣) .

المرحلة التمهيدية

وسار طارق من المكان الذي نزل فيه متجهاً نحو الشمال الى قرية قرطاجنة الاندلس : ان قرطاجنة هذه مدينة أزلية (قديمة ، أثرية) لم يكن فيها يومذاك سوى حصن جعل لها قيمة عسكرية لأنها كانت ثغراً (مكاناً يخشى منه مجيء العدو) من ثغور الاندلس . وتقع قرطاجنة هذه على مقربة من جبل طارق غير بعيدة عن مصب نهر صغير يصب في خليج مدينة الجزيرة الخضراء ويعرف باسم

= آلاف رجل مع سلاحهم وأعتدتهم لا يمكن أن ينتقلوا مرة واحدة في أربع سفن. ثم ان موسى كان في هذه الاثناء ينشىء سفناً جديدة (اخبار مجموعة ٧) فليس من المعقول إذن أن يحرق طارق السفن المبنية. ولو أن طارقاً أحرق تلك السفن لكان في عمله ذلك غفلة عسكرية تمنعه من الانسحاب فيما لو اضطر اليه . وسنرى بعد بضعة اسطر (ص ٨٥) أن طارقاً قد رتب المعركة على نظام يتمكن معه من الانسحاب فيما لو اضطر اليه . وأما الخطبة فلا يمكن أن تكون قد صدرت عن طارق . كان طارق بربرياً ومولى لموسى بن نصير الذي تولى الاندلس بعد سنة ٨٦هـ ، فلا يعقل أن تبلغ مقدرة طارق في اللغة العربية والبلاغة الى الحد الذي يبدو في هذه الخطبة . فاذا أضفنا الى ذلك كله أن الخصائص في هذه الخطبة عباسية لم نعد الصواب إذا جزمنا بأنها منحولة ، خصوصاً وهي لا تذكر إلا في المراجع المتأخرة . ذكر المقري (نفح الطيب ق ١ : ١٠٧) ان طارقاً كان حسن الكلام ... ثم روى له شعراً (ق ١ : ١٢٤) .

(١) ابن الأثير ٤ : ٤٤٥ ، الروض المعطار ١٠ ، راجع نفح الطب ق ١ : ١٠٧ ، ١١٩ .
(٢) راجع البلاذري ٢٣١ .
(٣) أخبار مجموعة ٧ ، ابن الاثير ٤ : ٤٤٥ ، راجع فتوح مصر ٢٠٥-٢٠٦ ، البيان المغرب ٢ : ٧،٤ ، الروض المعطار ١٣١ .

وادي البحر . وبعد أن استولى طارق على قرطاجنة اتجه جنوباً في غرب الى مدينة الجزيرة الخضراء . غير أنه أدرك وشيكاً — وبعد ان نصح له يوليان في الاغلب — أن الميدان الموافق للمعركة المقبلة انما هو في موضع آخر ، فانتقل بجيشه نحو الغرب ونزل ، في الاعم الاغلب ، في اقليم البحيرة عند مدينة لَكَّة من كورة شذونة قريباً من نهر لكّه أو بكه (١) .

لقد اختار طارق مكان المعركة وفرض ذلك المكان على خصمه . ثم انه رتب المعركة بأن نزل بمعظم الجيش على سفح المرتفعات الواقعة جنوب مستنقعات إقليم البحيرة (٢) ليجعل من هذه المستنقعات حاجزاً بينه وبين القوط ومن تلك المرتفعات حامياً له من ان يباغت من خلفه . ثم انه أقام عدداً من الجند بقيادة طريف في جزيرة طريف ليحمي بهم مؤخرة جيشه (٣) ، وترك الطريق بينه وبين الجزيرة الخضراء مفتوحاً لينسحب منه اذا اضطر الى ذلك .

في ذلك الحين كان لذريق مشغولاً في الشمال يقاتل الفرنجة عند مدينة بنبلونة من بلاد البشكنس . فلما علم بنزول العرب على أرضه انحدر مسرعاً « بجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين الفاً » (٤) نحو قرطبة ليجيّش فيها ومن حولها أكبر عدد يمكن تجييشه ، فيقال ان جيش القوط بلغ بعد ذلك مائة الف (٥) . ولعل في هذا العدد شيئاً كثيراً او قليلا من المبالغة ، ولكن جيش القوط كان على كل حال أكثر عدداً من الجيش العربي . وكان لذريق قد تولى بنفسه قيادة قلب الجيش القوطي ، وجعل على جناحيه ابني غيطشة : شبشرت على ميمنته وأبّة على الميسرة . وأدرك طارق ان السبعة الآلاف الذين معه لا يكفون لخوض المعركة المقبلة فكتب الى موسى بن نصير يستمده ، فأمده موسى

(١) فتوح مصر ٢٠٦ ، ابن الاثير ٤ : ٤٤٥ ، البيان المغرب ٢ : ٨ ، الروض المعطار ١٦٩ ، ١٣٣-١٩٤ .
(٢) نفح الطيب ق ١ : ١٢٠ ، ١٢١ .
(٣) نفح الطيب ق ١ : ١٠٧ ، ١١٩ . ابن خلدون ٤ : ١١٧ ، راجع البيان المغرب ٢ : ٩ .
(٤) ابن خلدون ٤ : ١١٧ .
(٥) أخبار مجموعة ٧ ، ابن الأثير ٤ : ٤٤٥ نفح الطيب ق ١ : ١٠٧ . في الروض المعطار (ص ١٠) : وكان الطاغية (لذريق) في ستمائة الف فارس .

بخمسة آلاف رجل فتمّ له بذلك اثنا عشر الفاً كلهم رجّالة ليس فيهم فرسان ، معظمهم من البربر (١) ، ومعهم يوليان يدلهم على العورات ويتحسس لهم الأخبار (٢) .

معركة وادي لكه

فلما تراءى الجمعان(٣) ثبت طارق في مكانه وأطمع لذريق في أن يقطع المستنقعات اليه ، على غرار الخطة التي كان خالد بن الوليد قد رتبها على نهر اليرموك(٤). ونَشِبت المعركة بين العرب والقوط في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ (١٩ تموز ٧١١). ثم ان شبشرت وأبّة خذلا لذريق بمن معهما . ولم يكن ذلك منهما خيانة بالمعنى المألوف ، فقد ظنا أن العرب اذا امتلأت ايديهم من الغنائم عادوا الى المغرب ، كما كان طريف قد فعل من قبل(٥) . ولكن جيش طريف كان رائداً ولم يكن فاتحاً !

وحاول لذريق أن يثبت للعرب طويلا فلم يستطع . وبعد ثمانية ايام من القتال الشديد تقطع الجيش القوطي وانهزم لذريق على وجهه ثم لم يُعرف ما فعل الله به : قيل قُتل في المعركة فعثر فيها على أشلائه(٦) ، وقيل غرق في النهر فلم يعثر له على أثر(٧) ، وقيل بل انسحب الى الشمال لينظم المقاومة القوطية من جديد(٨) .

---

(١) فتوح مصر ٢٠٨ ، ابن الأثير ٤ : ٤٤٥ ، راجع البيان المغرب ٢ : ٦ . نفح الطيب ق ١ : ١٠٧ .
(٢) نفح الطيب ق ١ : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٠ .
(٣) يذكر ابن خلدون ان اللقاء كان بفحص شريش (٤ : ١١٧) ، على نحو خمسين كيلومتر (راجع الروض المعطار ١٠٠) من مستنقعات وادي لكه شمالا في غرب .
(٤) راجع العرب والاسلام في الحوض الشرقي ٦٢ — ٦٤ .
(٥) أخبار مجموعة ٧ — ٨ ، ابن الأثير ٤ : ٤٤٥ ، راجع نفح الطيب ١ : ١٠٨ ، ١٢٠ .
(٦) فتوح مصر ٢٠٦ ، البيان المغرب ٢ : ٧ ، ٩ ، الروض المعطار ١٩٤ . وقيل وجدوا حصانه الأشهب (نفح ق ١ : ١٢١).
(٧) اخبار مجموعة ٩ ، البيان المغرب ٢ : ٩ .
(٨) راجع ابن خلدون ٤ : ١١٧ (هزمه الله) . يذكر هذا كثير في المراجع الافرنجية ، راجع Lévi - Provençal I 22 .

والذي يعرفه التاريخ ان آثار لذريق قد ضاعت بعد معركة وادي لكه ، وكل ما يقال خلاف ذلك انما هو من عالم الخرافة(١) .

كانت معركة وادي لكه في الأندلس كاليرموك في الشام والقادسية في العراق ونهاوند في فارس : لقد قضت معركة وادي لكه على الجيش القوطي وفتحت أبواب الأندلس امام العرب !

وسمع المسلمون في المغرب بهذا الظفر فجازوا الى الأندلس مجاهدين (٢) .

استئناف الحرب : معركة أستجة

ثم مضى طارق نحو مضيق الجزيرة (٣) ، ومن هنالك اتجه الى إستِجّة حيث اجتمعت فلول القوط ، بعد معركة وادي لكه ، مع المدد الذي جاء اليها من المدن القوطية المختلفة . وتقع أستجة على الضفة الشرقية من نهر شَنيل أو سنجيل ، أحد روافد الوادي الكبير ، وعلى نحو خمسة وسبعين كيلومتر من قرطبة. وخاض القوط هنالك معركة يأس مع العرب وقاتلوا قتالا شديداً حتى كثُر القتل والجراح بين المسلمين . ثم انهزم القوط بعد ان استولى طارق على استجّة عنوة . وقد انهارت بعد استجة مقاومة القوط ولم يبق هنالك خطة دفاع موحدة ، بل اصبحت كل مدينة تتولى أمر نفسها بنفسها . ثم ان النبلاء القوط — من الذين صمموا على استمرار المقاومة — انسحبوا في اتجاه طليطلة وتحصنوا في عدد من المدن التي يكثر فيها السكان القوط المتصلين بالطبقات الحاكمة . على ان جموعاً غفيرة من الناقمين على حكم لذريق انضمت الى العرب ، كما بدأ منذ ذلك الحين انضمام اليهود الى العرب (٤) .

---

(1) Historia de Espana III 138.

(٢) نفح الطيب ق ١ : ١٢١ .
(٣) أخبار مجموعة ٩ ، البيان المغرب ٢ : ٨ .
(٤) راجع في ذلك كله أخبار مجموعة ٩ — ١٠ ، البيان المغرب ٢ : ٨ ، ابن الأثير ٤ : ٤٤٦ ، الروض المعطار ١٤ .

خطة الفتح المقبلة

تذكر طارق الآن أمر موسى بن نصير له بالرجوع الى افريقية بعد التغلب على القوط ، إن صح ذلك (١) ، فوقف يتأمل حال العرب وحال القوط فعزم طارق — بعد ان شجعه يوليان ايضاً ، بلا ريب — على المضيّ في الفتح مدفوعاً بالعوامل التالية :

أ — كان طارق يخشى — اذا توقف الزحف — أن يرتد اليه القوط ويكروا عليه فيَضيع ما فتحه ويتعرض الجيش لخطر الابادة ، لا سيما والقوط في بلادهم بينما العرب بعيدون عن مراكز تموينهم وإمدادهم .

ب — اذا أمر القائد جيشه الظافر بالتوقف فجأة انكسرت حمية الجيش ، وربما كان في ذلك مدعاةٌ الى الاختلاف والتنازع .

ج — ان عنصر الزمن مهم في الحرب وغير الحرب ، فلم يجد طارق — فيما يبدو — مبرراً لإضاعة الوقت . أضف الى ذلك أن القائد في الميدان يرى ما لا يراه القائد الأعلى في العاصمة ، وخصوصاً في تلك الأيام التي لم يكن نقل الأخبار فيها ميسوراً في وقت قصير .

د — لم يكن امتناع طارق عن التقيد بأمر قائده الأعلى عصياناً بل احتياطاً ، وسنرى أن طارقاً كان قد حزم أمره على تسليم القيادة لموسى حينما يصل موسى الى حيث يكون طارق قد بلغ ، من غير ضرورة الى التوقف في مكان معين .

خطوط الفتح

قسم طارق الجيش أربعة أقسام : بعث قسماً منه بقيادة مغيث الرومي ، مولى عبدالملك بن مروان ، الى قرطبة ، وبعث قسماً آخر الى مالقة ، ثم بعث قسماً ثالثاً الى إلبيرة وأمره بأن يتابع طريقه بعد ذلك الى مرسية . ثم سار هو ببقية الجيش في اتجاه طليطلة . وكان قد جعل في كل من هذه الأقسام أدلاء من أصحاب يوليان .

---

(١) راجع فوق ، ص ٨٤ .

١ — سار مُغيثٌ الرومي في سبعمائة فارس (١) حتى وصل الى شَقُنْدة بعدوة نهر قرطبة قبالة قصرها ثم جاء الى طُرسيلَ ، على ثلاثة أميال من قرطبة ، فوجد أن أهلها قد غادروها ولم يبق فيها سوى بِطريقِها (حاكمها العسكري) مع أربعمائة فارس ونفر من ضعفاء أهلها فحاصرها مدة ثم فتحها حيلة بالتسور عليها ليلاً . ولكن حاميتها استطاعت النجاة الى كنيسة حصينة خارج قرطبة من الناحية الغربية تدعى كنيسة شنت أجلج (٢) . وبعد حصار شهرين في الأغلب ، او ثلاثة اشهر ، فتح العرب كنيسة شنت أجلج عنوة . فترك مغيث الرومي في قرطبة حامية صغيرة من العرب وضم الى تلك الحامية يهود قرطبة ثم مضى في سبيله (٣) .

٢ — أما الجيش الذي توجه الى مالقة ، على الشاطىء الجنوبي من الأندلس ، فقد فتحها وجميع أعمالها (منطقة مالقة ، بين قرطبة والبحر) فتحاً يسيراً هيناً ، بعد أن هرب علوجها (القوط والفرنجة) الى جبال رية واعتصموا بها . ولم يجد العرب في مالقة يهودا (٤) .

٣ — وأما الجيش الذاهب الى إلبيرة فاتجه اولا جنوباً في شرق حتى احتل أرشذونة (بضم الهمزة والشين والذال) ثم عطف شرقاً نحو غرناطة مدينة كورة إلبيرة ففتحها فتحاً هيناً ، لأن كثيراً من أهلها كانوا يهوداً ، وقد استعان العرب بهم على ضبط المدينة وإدارتها ومساندة الحامية العربية فيها (٥) . وكان في الجيش الذي فتح غرناطة المجاهد المشهور حَنَش بن عبدالله الصنعاني (٦) فأسس فيها مسجداً . وسنرى حنش الصنعاني في مناسبات كثيرة يؤسس المساجد في البلدان الأندلسية التي فتحها العرب .

---

(١) غنم العرب خيلا من القوط حتى اصبح جيشهم كله جيش فرسان (راجع نفح الطيب ق ١ : ١٢٢) .

(٢) كنيسة القديس أخيللو ، راجع Alcàntara 25 .

(٣) راجع في ذلك كله أخبار مجموعة ١٠ — ١٤ ، البيان المغرب ٢ : ٩ — ١٠ ، راجع تفصيل حصار قرطبة وكنيستها في نفح الطيب ق ١ : ١٢٢ — ١٢٣ .

(٤) أخبار مجموعة ١٢ ، البيان المغرب ٢ : ١١ .

(٥) راجع أخبار مجموعة ١٢ .

(٦) راجع فوق ، ص ٦٠ .

٣ ب – ثم ان الجيش الذي كان قد سار الى غرناطة سار هو نفسه الى مرسية ، في الجانب الشرقي الجنوبي من الأندلس . وكان في مرسية نبيل قوطي اسمه تيودمير ، وقد عرفه العرب باسم تدمير بن عبدوس ، يعيش شبه مستقل في تلك المنطقة منذ أيام القوط . واختار تدمير هذا ان يقاوم العرب فانهزم أمامهم هزيمة منكرة في قرطاجنة الحلفاء ، وهي ثغر مدينة مرسية ، حتى كاد أصحابه أن يفنَوا . عندئذ انسحب تدمير بمن بقي معه الى مدينه أوريولة وعمد الى الحيلة فأمر النساء فنشرن شعورهن ثم أعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة وأوقف معهن بقية الرجال ليوهم العرب بأن في المدينة حماةً كثيرين ؛ ثم ان تدمير هبط بنفسه على هيأة الرسول فاستأمن على نفسه وما يملك من بلاد ، فأمنه العرب على ذلك كله وعقد عبدالعزيز بن موسى بن نصير بينه وبين تدمير معاهدة(١) هذا نصها(٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من عبدالعزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوس(٣) أنه نزل على الصلح ، وأن له عهدَ الله وذمته وذمة نبيّه صلى الله عليه وسلم ألا يُقدَّم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر(٤) ولا يُنزَع من ملكه(٥) ، وأنهم لا يُقتلون ولا يُسبَون ولا يُفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يُكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا يُنزع من كنائسهم ما يُعبد . وذلك ما أدى الذي اشترطنا عليه(٦) . وأنه (اي تدمير بن عبدوس) صالح على سبع مدائن : أوريونة وبلتنة ولَقَنت ومولُه وبَلاّنة ولورقة وأَلُه لا يؤوي(٧) لنا آبقا ولا يؤوي لنا عدوا ولا يخيف لنا آمنا ولا يكتم خبرَ عدوٍ

(١) أخبار مجموعة ١٢-١٣ ، البيان المغرب ٢ : ١١ ، ابن الاثير ٤ : ٤٤٦ ، نفح ق١ : ١٢٤ ، الروض المعطار ٣٤ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧١ .
(٢) الرووض المعطار ٦٢-٦٣ .
(٣) عبدوش (الروض المعطار ٦٣ ، راجع الترجمة الفرنسية ٧٩) .
(٤) لا يقدم ولا يؤخر (بالبناء للمجهول) : لا يغير شيء من احوالهم الراهنة .
(٥) هذا نص على أن يبقى تدمير مستقلا في ما كان تحت يده من قبل .
(٦) ما دام يقوم بما تعهد به للعرب .
(٧) في الأصل : يأوي .

عَلِمَه : و (صالح على أن) عليه وعلى (كل واحد من) اصحابه ديناراً كل سنة واربعة امداد قمح واربعة امداد شعير واربعة اقساط طِلاء(١) واربعة اقساط خل وقِسطي عسل وقسطي زيت . وعلى العبد نصف ذلك . وكتب في رجب في سنة ٩٤(٢) من الهجرة .

فلما تسلم تدمير كتاب الصلح هذا من عبد العزيز بن موسى أدخل العرب الى أوريولة فرأوا ما فيها من ضعف الحامية وأدركوا خدعة تدمير وعلموا أنه كان بامكانهم دخول المدينة عنوة . وقد أسفوا لما حدث ولكنهم وفَوْا لتدمير بما كانوا قد شرطوا له على أنفسهم في كتاب الصلح (٣) .

طارق يتجه الى طليطلة

(٤) في هذه الاثناء كان طارق قد سار بمعظم الجيش الى جَيّان (٤) يريد طُلَيْطُلة . وكان أهل طليطلة قد غادروها وفرّ عِلْجها (حاكمها) الى مدينة خلف الجبل يقال لها ماية (٥) . وكذلك كان اسقفها سندريد قد تركها ايضاً ولحق برومية (٦) .

وكانت غنائم طارق في طليطلة كثيرة ، لأن طليطلة كانت دار ملك القوط ؛ على ان الغنيمة التي كثر الحديث عنها في المصادر العربية(٧) وفي المصادر والمراجع

(١) القسط (بكسر القاف وسكون السين) : مكيال يسع نصف صاع (٧٥٠ غراماً) . الطلاء في الاصل الخمر . والملموح هنا أن الطلاء عصير العنب المعد لصنع الدبس ، لأن الخمر من المحرمات ولا يجوز لمسلم أخذها في زكاة او جزية او بيع وشراء الخ .
(٢) ٤ رجب من سنة ٩٤ = ٥ نيسان من عام ٧١٤ . راجع :
Alcàntara, pàg. 26, nota al pie 1; La péninsule ibérique, p. 79 et note4.
(٣) البيان المغرب ٢ : ١١ ، أخبار مجموعة ١٣ ، الروض المعطار ١٥٢ .
(٤) ابن الاثير ٤ : ٤٤٦ . نفح الطيب ق ١ : ١٢٢ .
(٥) ابن الاثير ٤ : ٤٤٦ . في اخبار مجموعة (ص ١٤-١٥) وفي البيان المغرب (٢ : ١٢) : مدينة المائدة ، وفي فتوح مصر ص ٢٠٧ مدينة يقال لها فراس (بكسر الفاء) ، على يومين من طليطلة .
(٦) Le primat Sindered, cf. Lévi-Provençal I 23
(٧) أخبار مجموعة ١٤-١٥ ، البيان المغرب ٢ : ١٢ ، الروض المعطار ٥ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٧٩ ، الخ ، فتوح ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

الافرنجية كانت مِنْضدة ثمينة مُحلاّة بالحجارة الكريمة سماها العرب مائدة سليمان فقالوا ان طارقاً وجدها في مدينة خاصة بها تحمل اسمها ، مدينة المائدة (١) ؛ على اننا إذا علمنا ان مائدة سليمان هذه لم تكن سوى « مِقْرَأة » يوضع عليها الانجيل مفتوحاً لقراءته (٢) لم نَعْدُ الصواب إذا اخذنا ببعض روايات ابن عبد المنعم الحِمْيري من ان هذه المائدة وجدت في مدينة طليطلة نفسها (٣) وفي كنيسة مدينة طليطلة على وجه الحصر ، اي في كنيسة الملك (٤) .

حملة موسى

لعل السبب الذي دعا موسى الى اللحاق بطارق والنتائج التي نشأت من لقائهما من أغمض الأمور في تاريخ فتح الأندلس . يبدو مما أجمعت عليه المصادر او كادت ان موسى بن نصير لما وصلته اخبار طارق وما فتح الله عليه من البلاد بتلك السهولة المدهشة والنجاح العظيم حركته الغيرة وحسد طارقاً فكتب اليه يتوعده إن هو توغل في الأندلس بغير إذنه ويأمره بألا يجاوزَ المكانَ الذي يصله فيه كتابه بهذا الشأن (٥) حتى يلحق هو به (٦) . والأصح عندنا ان يقال في ذلك ان موسى كان قد رأى ان الحملة قد نجحت ، وأنه إنما كان قد أرسل طارقاً ليتحسس البلاد قبل قيامه هو بالحملة الرئيسية ، كما كان قد أرسل طريفاً من قبل ، وهذا كان تمشياً مع سياسته العامة في الفتح :

واستخلف موسى على القيروان ابنه الأكبر عبدالله وخرج في عشرة آلاف – وقيل في ثمانية عشر الفاً (٧) – وكان معه في الجيش وجوه العرب من قيس

(١) الروض المعطار ١٧٩ .
(٢) راجع الروض المعطار ١٣٢ ، Cf. Alcantara, p. 27, nota 2
(٣) الروض المعطار ٢٠ ، ١٣١ ، فتوح مصر ٢٠٨ .
(٤) الروض المعطار ١٢٢ ، راجع ١٩١ .
(٥) قيل كتب اليه ألا يجاوز قرطبة ، وقيل ألا يجاوز موضع هزيمة لذريق (البلاذري ٢٣١ ، البيان المغرب ٢ : ١٣) .
(٦) فتوح مصر ٢٠٧ ، أخبار مجموعة ١٥ ، البيان المغرب ٢ : ١٣ ، ابن الأثير ٤ : ٢٧٦ ، ابن خلدون ٤ : ١١٧ .
(٧) أخبار مجموعة ١٥ .

واليمن ومن اهل الشام ومن وجوه الموالي وعُرفاء البربر ؛ وخرج معه ايضاً حبيب بن ابي عَبدة (١) بن عقبة بن نافع (٢) ؛ ونهض موسى من القيروان في رجب من سنة ٩٣ ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الى الأندلس ونزل فيها في رمضان من سنة ٩٣ (٣) وحزيران من عام ٧١٢ .

وسلك موسى في الفتح طريقاً غير الطريق التي سلكه طارق : سلك طريقاً غربياً حتى جاء شذونة – مدينة شَذونة او مدينة ابن السليم (٤) – ؛ بعدئذ تقدم شمالا نحو قَرْمونة ، وكانت حصينة جداً ، ففتحها خدعة بأن واطأ اصحاب يوليان فتقدموا من المدينة وكأنهم منهزمون من العرب ، ثم دخلوا المدينة . فلما جَنّ الليل فتحوا باب قرطبة (٥) للخيل التي كان موسى قد بعثها لفتح تلك المدينة . ثم عطف موسى شمالا نحو اشبيلية فحاصرها اشهراً حتى فتحها فهرب علوجها الى باجة – على نحو مائة وثمانين كيلومتر من اشبيلية غرباً في شمال ، على نهر واديانه – ففتح في طريقه قلعة وادي أيرُه (٦) ثم تابع مسيره غرباً الى لبلة ثم الى باجة (٧) ؛

حصار ماردة وفتحها

ماردة قاعدة من قواعد الاندلس كانت احدى العواصم القديمة الاربع : اشبيلية وماردة وقرطبة وطليطلة (٨) ، وكانت حصينة جداً . بعد ان سقطت قرطبة

(١) ويقال عبيدة بالتصغير (فتوح مصر ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ الخ) ، جمهرة انساب العرب ١٦٨ .
(٢) فتوح مصر ٢٠٧ ، الطبري ٢ : ١٢٥٣ ، ابن الأثير ٤ : ٢٧٦ ، البيان المغرب ٢ : ١٣ ، . وفي ابن خلدون (٤ : ١١٧) : حسين بن ابي عبدالله المهدي الفهري (كذا) .
(٣) الطبري ٢ : ٥٣ ، ١٢٥٤ ، ابن الأثير ٤ : ٢٧٦ – ٢٧٧ ، ٤٤٧ ، البيان المغرب ١ : ٤٣ ، ٢ : ١٢ .
(٤) جاء في الروض المعطار (ص ١٦٢ ، السطر الاخير) : «مدينة شذونة التي تعرف في عصرنا بمدينة ابن السليم » .
(٥) باب مدينة شذونة الذي يؤدي الى طريق قرطبة .
(٦) قلعة على مسافة يسيرة من اشبيلية شرقاً في جنوب ، على وادي أيره احد روافد النهر الكبير (راجع أخبار مجموعة ١٠٣ وقارن ذلك بالنص الاسباني Alcàntara 95-96 وراجع الخارطة : Bartholomew's Spain & Portugal.
(٧) أخبار مجموعة ١٥–١٦ ، البيان المغرب ١ : ٤٣ ، ٢ : ١٣–١٤ ، ابن الاثير ٤ : ٤٤٧ .
(٨) الروض المعطار ٦ ، ٢٠ .

واشبيلية وغرناطة وسواها من مدن الاندلس انسحب عدد كبير من انصار لذريق واجتمعوا في ماردة.

ومضى موسى بن نصير الى (١) ماردة فقاتله اهلها ، على نحو ميل منها او اكثر قليلا ، قتالا شديداً . وكان اهل ماردة يخرجون لقتال المسلمين نهاراً ثم يلجأون الى المدينة ليلا . وفي ذات ليلة أكمن موسى الرجال والخيل في حُفَر كانت مقالع يقطع اهل ماردة منها الحجارة . فلما خرج أهل ماردة في اليوم التالي على عادتهم لقتال المسلمين أثار عليهم موسى الكمائن من الرجال والخيل حتى أوقع بهم هزيمة منكرة فانسحبوا نهائياً الى المدينة وجعلوا يقاتلون المسلمين من وراء سورها .

وكانت ماردة مدينة حصينة جداً فحاصرها موسى أشهراً – قيل أطول حصار عرفه المسلمون (في الأندلس) –. ثم ان موسى بن نصير عمل دبّابة فدب المسلمون تحتها حتى وصلوا الى احد أبراج المدينة . وبينما كانوا ينقبون السور اصطدموا بصخرة صماء طال نقبهم إيّاها حتى تنبه أهل ماردة فهاجموهم ، فهلك جميع المسلمين الذين كانوا تحت الدبابة . وشدد موسى الحصار على ماردة حتى يئس أهلها من الصمود في وجه المسلمين فهرب نفر منهم خِفْية الى جيليقية في الشمال الشرقي من شبه جزيرة ابارية ، وطلب الذين آثروا البقاء في مدينتهم الصلح فصالحهم موسى على أن يدفعوا اليه أموال القتلى من الاسبان يوم الكمين وأموال الذين هربوا الى جيليقية والاموال والحلي التي كانت في الكنائس – ذلك لأن الاسبان كانوا يجعلون من الكنائس قلاعاً يحاربون العرب من وراء جدرانها (٢) –. فقبل أهل ماردة بذلك وفتحوا أبواب المدينة للعرب يوم الفطر ، اول شوّال من سنة ٩٤ وفي حزيران من عام ٧١٣.

---

(١) ولا ادري ما قصد المقري لما قال (نفح الطيب ق ١ : ١٢٦) : ومضى موسى من اشبيلية الى ألقنت الى مدينة ماوردة . فان لقنت بلدة في شرق الاندلس على الساحل جنوب دانية (الروض المعطار ١٧٠) .

(٢) انظر فوق ، ص ٨٩ . cf. Reinaud, p. 21.

وغنم العرب غنائم عظيمة من ماردة كان فيها قُلَيلة (١) الدّر التي وجدها موسى في كنيسة ماردة (٢) .

انتقاض أشبيلية

وحينما كان موسى بن نصير مشغولا بحصار ماردة وصل أهل أشبيلية يدهم بيد أهل باجة ولبلة خفية فجاء جماعات من تينك المدينتين انضموا إلى أهل اشبيلية ثم انقضوا كلهم على المسلمين فقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً .

وبلغ ذلك الى موسى فلم يرفع الحصار عن ماردة حتى فتحها ، ثم أرسل ابنه عبد العزيز ليستعيد اشبيلية وليفتح لبلة وباجة وأُشكوبنَة . فملك عبد العزيز هذه المدن وعاد الى اشبيلية . أما موسى نفسه فمضى نحو طليطلة في عقب شوال من سنة ٩٤ (٣) واواخر تموز ٧١٣ .

طارق وراء طليطلة

لم يلبث طارق في طليطلة إلا ريثما أقام فيها حامية صغيرة من جنده ومن اليهود الذين كانوا فيها ثم انطلق في اثر الفارّين من أهلها نحو الشمال الشرقي من الاندلس. وسلك طارق دَرْباً (مَخْرَماً) في الجبل سُمّي فجّ طارق (٤) لعله صوموسيارا ، ثم قطع وادي الرمل ، أو الشارّات (٥) متجافياً عن قلعة مَجْريط – وكانت مجريط مدينة صغيرة وقلعة منيعة (٦) – حتى وصل الى مدينة وادي الحجارة ، أو مدينة الفرج (٧) على نحو مائة وعشرة كيلومترات من طليطلة شمالا في شرق ،

---

(١) قليلة (تصغير قلة بكسر القاف وتشديد اللام) : جرة ، وعاء فخار .

(٢) أخبار مجموعة ١٧–١٨ البيان المغرب ٢ : ١٤ – ١٥ ، ابن الاثير ٤ : ٤٤٧ ، الروض المعطار ٥، ٦٦، ٢٠، ١٢٢، ١٧٦.

(٣) أخبار مجموعة ١٨ ، البيان المغرب ٢ : ١٥، ١٦ .

(٤) راجع أخبار مجموعة ١٤ ، ابن الاثير ٤ : ٤٤٦ ، البيان المغرب ٢ : ١٢ .

(5) cf. Alcàntara, p. 252 y 245.

(٦) الروض المعطار ١٨٠ .

(٧) الروض المعطار ١٩٣ .

وذلك في اواخر سنة ٩٣هـ (خريف ٧١٢). والغالب ان طارقاً لم يجاوز في تلك الحملة مدينة وادي الحجارة، بل آثر ان يعود من هناك الى طليطلة ليشتو فيها (١). ثم وافته جيوشه التي كان قد وجّهها من إسْتِجة (٢) إلى مالقة وغرناطة ومُرسية وقرطبة.

لقاء موسى وطارق

وخرج موسى من ماردة في عقب شوال (٣٠ حزيران ٧١٣) يريد طليطلة؛ وبلغ طارقاً إقبال موسى نحو طليطلة فانحدر منها في حوض نهر تاُجه حتى لقيه بموضع من كورة طَلَبيرة يقال له بايد (٣). ويكاد يجمع المؤرخون العرب على ان لقاء موسى بطارق لم يكن ودياً، ولكنهم اختلفوا كثيراً في مكان لقائهما وفي صورة ذلك اللقاء.

لا مجال للقول بان موسى لقي طارقاً في قرطبة، كما ذكر بعضهم (٤)؛ لأن ذلك يجعل اللقاء قريباً جداً من نزول طارق في الاندلس. وليس من المنتظر ان يكون اللقاء بين القائدين قد تم في اسْتُرقة (٥) لأنه يكون حينئذ متأخراً كثيراً وغير متسق في خطة الفتح. ويبدو ان اللقاء في طليطلة (٦) يمكن ان يحمل على ان طليطلة قريبة من طلبيرة واشهر منها اسماً، ولذلك ذكرت طليطلة دون طلبيرة؛

والاجماع واقع على أن موسى خرج من القيروان الى الاندلس مَغيظاً على طارق (٧) وعلى أن فعْل طارق (التوغل في الفتح) قد غمّه (٨). ولكن العجيب

(١) ابن الاثير ٤ : ٤٤٦، راجع فوق، ص ٩٢.

(٢) راجع فوق، ص ٨٨ – ٩١

(٣) أخبار مجموعة ١٨ (بايد؟ مرسومة باند) راجع ايضاً ابن الاثير ٤ : ٤٤٨.

(٤) فتوح ٢٠٧، البيان المغرب ٢ : ١٦.

(٥) راجع ابن الاثير ٤ : ٤٤٦

(٦) الطبري ٢ : ١٢٥٤، ابن الاثير ٤ : ٢٧٦، البيان المغرب ٢ : ١٦.

(٧) فتوح مصر ٢٠٧.

(٨) أخبار مجموعة ١٥.

أن ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ (٨٧١م) قد بالغ في الرواية أكثر من جميع الذين جاءوا بعده فذكر (١) أن موسى أخذ طارقاً فشده وثاقاً وهَمّ بقتله. أما صاحب أخبار مجموعة (ص ١٩) فاكتفى بأن قال «فوضع موسى السوط على رأسه ونبّه فيما كان من خلاف رأيه». وأما ابن الاثير (٤ : ٣٧٢، ٣٧٣، ٤٤٨) فجمع ذلك وتردد في روايته ثم قال: «وكان موسى قد حبس طارقاً، وقيل لم يحبسه ... فلما أبصر موسى طارقاً ضربه بالسوط على رأسه ووبخه على ما كان منه من خلافه» إياه.

ولعل الطبري هو الذي يستطيع أن يحل لنا هذا الاشكال على الرُغم من أنه أشار إلى لقاء موسى وطارق اشارة عارضة. قال الطبري (٢ : ١٢٥٣، ١٢٥٤): «وفي هذه السنة (٩٣هـ) عزل موسى بن نصير طارقَ بن زياد عن الاندلس ووجهه الى مدينة طليطلة». ومعنى ذلك أن موسى بن نصير كان قد عين طارقاً على الحملة التي وجّه بها الى الاندلس. فلما نزل هو في الاندلس عادت القيادة العامة بطبيعة الحال اليه لأنه هو القائد الأصيل. ثم ان رواية الطبري تحل مُعْضلة المكان الذي التقى فيه القائدان، إذ تدل صراحة على أن أمر موسى بالعزل عن القيادة العامة قد وصل الى طارق قبل ان يصل طارق الى طليطلة. أما اللقاء نفسه فكان بعد أن فتح طارق طليطلة.

على أن غضب موسى على طارق يظل أمراً واقعاً. وقد كثر فيه الحديث حتى قال ابن عبد المنعم الحِمْيري (٢): «ومنازعة موسى بن نصير وطارق مولاه في رحلتهما مشهورة». غير أن طارقاً اعتذر الى موسى فرضي موسى وقبل عذر طارق (٣).

الفتح وراء طليطلة

وعاد موسى وطارق الى طليطلة وقضيا فيها شتاء ٧١٣ – ٧١٤م (ربيع

(١) فتوح مصر ٢١٠.

(٢) الروض المعطار ١٣٢.

(٣) فتوح مصر ٢٠٧؛ البلاذري ٢٣١؛ الطبري ٢ : ١٢٥٤؛ ابن الاثير ٤ : ٢٧٦-٢٧٧.

الاول جمادى الاولى من سنة ٩٥) : وأرسل موسى الخبر بالفتح وبالغنائم الى الخليفة الوليد مع علي بن رَباح اللخمي ومُغيث الرومي. وفي طليطلة سك موسى ابن نصير عملةً ، دراهمَ ودنانير ، مضروبةً باللغة العربية والالفاظ الاسلامية : على احد وجهيها : « بسم الله . لا آله إلا الله وحده لا آله غيره » ، وعلى الوجه الآخر : « هذا الدرهم ضرب في الاندلس سنة ... » .

ولما حل الربيع من عام ٧١٤م (رجب من سنة ٩٥) تقدم موسى وطارق نحو سرقسطة او المدينة البيضاء (١) وحاصراها فسقطت وشيكاً ، فيما يبدو ، في سنة ٩٥هـ (٧١٤ م) . وكان معهما حنش الصنعاني(٢) فاستقر في سرقسطة وخط مسجدها الجامع (٣) .

وكان في سرقسطة نبيل قوطي من زعماء الارغون هو القمص « الكونت » فُرتون بن قَسي ، يتمتع في سرقسطة بوجاهة وبحكم محليّ : ويقال ان فُرتونَ خاف أن يخسر وجاهته ونفوذه فاعتنق الاسلام – قيل حضر الى دمشق وشهر إسلامه أمام الخليفة الوليد ، فلم يجد الوليد مانعاً من ان يتولى فرتون ونسله ولاية سرقسطة وراثة ما داموا يقرون لوالي الاندلس بالطاعة ويؤدون الخراج في حينه .

وقد كشف فتح سرقسطة جميع حوض نهر أبره أمام العرب فقسم موسى الجيش قسمين : وجه قسماً بقيادة طارق شمالا الى وَشقة فحاصرها ولكن لم يستطع فتحها (٤) فتركها واتجه شرقاً حتى قطع نهر ابره ، ثم غزا أماية وفتح ليون وأستُرقة . وكذلك توجه موسى نفسه بالقسم الثاني من الجيش متجهاً في اول الأمر نحو الشرق حتى فتح بَرْشِلونة وماحولها من بلاد الافرنج (٥) في سنة ٩٦هـ ؛

(١) الروض المعطار ٩٦ .
(٢) راجع فوق ، ص٦٠ .
(٣) الروض المعطار ٩٧،٤ .
(٤) راجع الروض المعطار ١٩٥.
(٥) بلاد افرنج (الافرنج) هذه غير بلاد الفرنجة وراء جبال البرانس ، بل هي البلاد المحيطة بمرفأ برشلونة ، او بلاد قطلونة (راجع الروض المعطار ٤٢) .

ثم مال موسى شمالا حتى وصل الى أرْبونة . بعدئذ عطف غرباً في جنوب ، مخترقاً شمالي بلاد الاندلس من الشرق الى الغرب حتى غزا سلمنكة . ثم عاد فمال شمالاً وقطع نهر دَوِيرُه الى أعلى نهر أبره مخترقاً قشتالة الى بلاد أستوريش . ويبدو لنا من تتبع هذه البلدان على الخارطة أن حملة موسى لا يمكن ان تكون قد تناولت هذه البلاد المترامية بين الشرق والغرب والجوف (الوسط) والشمال في ذلك الوقت القصير الذي انقضى بين فتح سرقسطة وبين رجوع موسى الى المشرق ، أي في نحو خمسة أشهر من سنة ٩٥ هـ . على أن هذا لا يعني أن هذه البلدان لم تخضع في الحقبة الاولى على الاقل للحكم العربي (١) – لأن الفتح إذا وقع على قواعد البلاد فان البلدان الثانوية تسقط أمام الفاتح من تلقاء نفسها – ولكن هذ يعني أن موسى بن نصير لم يستطع أن يقوم بنفسه بهذا الفتح على هذا التفصيل الذي مر بنا .

رجوع موسى الى المشرق

زعموا أن موسى كان ينوي أن يفتح شمالي الأندلس ثم يقطع جبال البرانس الى بلاد الفرنجة ليعود والشاطئ الشماليّ للبحر الأبيض المتوسط ماراً بايطالية واليونان وبلاد الروم (آسية الصغرى) حتى يصل الى الشام (٢) ؛ ولا ريب في أن عزم موسى بن نصير على مثل هذه المغامرة ، لو صحت الرواية ، يدل على جهله بطبيعة البلاد التي كان عليه أن يمر بها وبأحوالها السياسية؛

وكان رسولا موسى ، مغيثٌ الرومي وعليُ بن رَباح اللخمي ، قد وصلا الى دمشق . فيقال ان الوليد أشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما هَمّ به موسى – من الرجوع الى الشام عبر البلاد الواقعة شمال البحر الأبيض المتوسط – تغرير بالمسلمين . فكتب اليه يوبخه ويأمره بالحضور الى دمشق مع

(١) ما عدا أربونة التي فتحت في ايام الحر بن عبد الرحمن الثقفي والي الاندلس .
(٢) ابن الاثير ٤ : ٣٧٦ ، ابن خلدون ٤ : ١١٧–١١٨ ، الروض المعطار ٢٧ ، نفح الطيب ق ١ : ١٠٨ ، ١٣٠ .

طارق بن زياد : ويقال أيضاً ان الوليد عهد الى مغيثٍ الرومي بأن يحمل موسى ابن نصير على القفول من الأندلس مع المسلمين بكل سبيل . واذا لم يقبل موسى بذلك فَلْيَرْجِعْ هو (أي مغيث) بهم (١) . أما السبب الذي حمل الوليد على ما أمر به فلا يزال الى اليوم لغزاً ، الا أن يكون خوفه من انقطاع المسلمين بأرض بعيدة في دار حرب — كما تراءى لعمر بن عبد العزيز فيما بعد (٢) — .

وقد ساء ذلك موسى وفتّ في عزمه . ولم يشأ موسى أن يخالف أمر أمير المؤمنين ، ولكنه مَطَلَ الرسولَ ريثما يوطّد الفتح ، لأنه أراد أن يستوثق من أمر المسلمين بأن يستوليَ على الكتلة القنطبرية (جبال قنطبرية) وما قرب منها ، أي قشتالة القديمة أو العليا .

ولما وصل موسى الى هذا الحد من الفتح وأنزل الحامية والرابطة (٣) في ثغور الأندلس وشد حصونها (٤) ترك الأندلس في أواخر سنة ٩٥هـ (٧١٤م) بعد أن استخلف عليها ابنه عبد العزيز وأسكنه في اشبيلية (٥) وأمره بمتابعة الجهاد لتوطيد الفتح . وقد ترك موسى مع ابنه عبد العزيز جيشاً ونفراً من أنجاد العرب ووجوههم منهم حبيب بن أبي عبدة الفهري حفيد عقبة بن نافع .

وقفل موسى الى افريقية ومعه طارق بن زياد ومغيث الرومي والغنائم والسبي ، فوصل الى قصر الماء ، على ميل من القيروان (٦) ، في العاشر من ذى الحجة من سنة ٩٥ (أواخر آب ٧١٤) : ثم أن موسى استخلف ابنه مروان على طنجة وابنه عبد الله على القيروان وسار الى المشرق في أول سنة ٩٦هـ (أيلول ٧١٤) في حاشية عظيمة وسبي غفير وغنائم كثيرة ، فوصل الى الفسطاط

---

(١) راجع البيان المغرب ٢ : ١٦ ، أخبار مجموعة ١٩ .
(٢) راجع تحت ، ص ١١٣.
(٣) ابن خلدون ٤ : ١١٨ .
(٤) ابن القوطية .
(٥) أخبار مجموعة ١٩ . في ابن خلدون (٤ : ١١٨) ، ونقل ذلك عنه المقري (نفخ الطيب ١ : ١٠٩) ان موسى اسكن ابنه في قرطبة .
(٦) الطبري ٢ : ١٣٦٧ — . في فتوح مصر (ص ٢١١) : «لم ينزل القيروان (بل) خلفها ونزل قصر الماء» .

يوم الخميس في ٢٥ ربيع الاول (٩ كانون الاول) . فلما وصل موسى الى طبرية من أرض فلسطين وافاه رسول من سليمان بن عبد الملك ، وهو بعد وليّ للعهد ، يطلب اليه أن يتريث في المسير حتى يكون قدومه وسليمان خليفة (١) ؛ غير أن موسى أغذّ السير وفاء للوليد الذي كان قد وجه الفتوح الى الأندلس فوصل اليها والوليد حي (٢) في الأغلب .

اساءة سليمان الى موسى والى طارق

تذكر المصادر (٣) أن موسى بن نصير وطارق بن زياد قد رجعا الى المشرق وبينهما وحشة ، قيل لأن طارقاً كان يريد أن يحتفظ بشرف الفتح وأن موسى كان يريد هذا الشرف لنفسه هو . وقيل إن نزاعاً نشِب بينهما في شأن الغنائم حينما كانا في الاندلس وحينما وقفا بين يدي سليمان بن عبد الملك . ويبدو أن سليمان بن عبد الملك لم يكن بحاجة الى حجة يتخذها سُلّماً الى نكبة القائدين العظيمين اللذين وهبا العروبة والاسلام بلاداً واسعة كانت فيما بعد أعظم ميادين الحضارة والثقافة الاسلاميتين على الدهر . وقد زال حكم العرب السياسي عن الأندلس ولكن آثار الحضارة فيها لا تزال الى اليوم ناطقة بمجد العرب وفضلهم ؛ ان سليمان بن عبد الملك لم ينكب فقط القائدين اللذين فتحا الغرب للعروبة والاسلام ، بل نكب القواد والولاة الذين فتحوا الشرق أيضاً (٤) . وسنرى بعد قليل شيئاً من تفاصيل نكبة موسى بن نصير (٥) .

أما طارق بن زياد فقد قضى باقي عمره خاملاً لم يمتعه سليمان بشيء مما كان قد وهبه للامبرطورية الأموية من الفتح المجيد والشرف العظيم والغنائم الوفيرة.

---

(١) البيان المغرب ٢ : ٢٠ اخبار مجموعة ٢٩ (مرتين) ، ٣٠ فتوح مصر ٢١١ ، ابن خلدون ٤ : ١١٨ .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٢٠ من السطر التاسع الى السطر الرابع عشر .
(٣) فتوح مصر ٢١١ ، اخبار مجموعة ١٩-٢٠ ، ٢٩-٣٠ ؛ راجع فوق ص ٩٦-٩٧ .
(٤) راجع الحوض الشرقي ١١٠ ؛ راجع ايضاً ابن الاثير ٥ : ٥ .
(٥) راجع تحت ؛ ص ١٠٤-١٠٦ .

عصر الولاة

●

يمتد عصر الولاة منذ رجوع موسى بن نصير عن الأندلس، بعد استخلاف ابنه عبد العزيز عليها (آخر ٩٥ﻫ = أيلول ٧١٤) الى تولّي عبد الرحمن الداخل امارتها (١٤٢ﻫ = ٧٥٩م) ، سبعاً وأربعين سنة . وليس لموسى بن نصير ولا لطارق بن زياد مكان بين ولاة الأندلس لأنهما فاتحان فحسب (١) .

ويقع عصر الولاة في أربعة أدوار : دور توطيد الفتح واختيار العاصمة ــ دور الغزو الى ما وراء البرانس ــ دور العصبيات ـ دور النزاع بين عبد الرحمن الداخل وبين الصميل بن حاتم ويوسف بن عبد الرحمن الفهري .

أ) توطيد الفتح

هذا الدور قصير جداً ، ذلك لأن موسى وطارقاً كانا قد فتحا البلاد كلها ، ولم يبق على الولاة الاولين الا أن يوطدوا الفتح وينظموا الادارة ويخمدوا الثورات اذا نَشِبَت .

وبما ان العرب لم يفرضوا الاسلام على أهل اسبانية (٢) ، فقد بقي قسم كبير من السكان على النصرانية وظلت جماعات كثيرة من هؤلاء على عداء شديد للعرب ، بالعامل الديني والعامل القومي معاً .

(١) يمكن ان نعد طارقاً وموسى في ولاة الاندلس اذا اعتبرنا ان كل فاتح لأرض هو وال عليها ، وكان القائد يوجه والياً على البلاد قبل ان يفتحها (راجع مثلا فتوح مصر ٢٠٠) ــ . ولما عد لافوانتى ألقانطرا (Alcàntara 240 ولاة الاندلس وجعل لهم ارقاماً متسلسلة خص موسى وطارقاً بالرقمين ١ ، ٢ .

(2) Lévi - Provençal I 73 .

(١) عبد العزيز بن موسى

لما قفل موسى الى المشرق سنة ٩٥ﻫ (٧١٤م) استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز واسكنه في مدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر قريباً من المكان الذي يسهل منه الجواز الى افريقية (١) ، ولأنها من البلدان التي فتحها هو ــ بينما كانت قرطبة من فتوح طارق ــ فاتخذ عبد العزيز اشبيلية دار إمارة (عاصمة) . وقد ترك موسى مع ابنه عبد العزيز حبيبَ بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع وزيراً له ومعيناً ، وترك له نفراً من وجوه القبائل وجمعا من العساكر ليساعدوه في حماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو (٢) .

فتوح عبد العزيز

فضبط عبد العزيز الأندلس وحمى ثغورها وفتح في أيام ولايته القصيرة (٩٥ــ٩٧ﻫ) مدناً كثيرة . على أن فتح عبد العزيز لتلك المدن لم يكن معناه الاستيلاء عليها ، بل اخضاعها للادارة العربية ، ذلك لأنها كانت قد فتحت من قبل . وقد استولى عبد العزيز في غربي اسبانية (البرتغال اليوم) على يأبُرة وشَنْتَرين وقُلُمْرِية ، كما وطد الحكم العربي في مالقة وإلْبيرة . ثم عمل عبد العزيز بوصية أبيه فأرسل الغزوات الى طَرّكونة وجَرونة على الشاطئ الشمالي الشرقي ، والى بَنْبَلونة في الشمال الشرقي ، وإلى أرْبونة على خليج ليون من ساحل فرنسة الجنوبي .

زواج عبد العزيز بأخيلونا

لما نزل العرب في الأندلس أعجبوا بالجمال الاسباني كما كانوا قد أعجبوا بالجمال الفارسي والرومي من قبل . وقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير أرملة لُذَريق ، وكان اسمها أخيلونا (أغيلون ، أخيلون) وعرفها العرب

(١) راجع الروض المعطار ١٩ .

(٢) راجع أخبار مجموعة ١٩ ، البيان المغرب ٢ : ٢٣ .

باسم أَيْلُه . وحظيت أيله عند عبد العزيز وغلبت عليه أيضاً ، وخصوصاً بعد أن ولدت له – فيما يبدو – ابناً وتكنت بأسمه : أم عاصم . ولعل أيله دخلت في الاسلام ، في الظاهر على الأقل (١) . وكان ذلك أول زواج مختلط في الأندلس (٢) . وكذلك تزوج زياد بن النابغة التميمي امرأة من نبلاء القوط ظلت على دينها (٣) :

وفي صدر رجب من سنة ٩٧ (آذار من عام ٧١٦) **قُتل عبد العزيز بن موسى** في حديثين مختلفين :

أما الحديث الاول فقصة موضوعة ولكنها مشهورة ، خلاصتها أن أيله ظلت بعد زواجها بعبد العزيز على النصرانية . ثم انها ارادته – فيما قيل – على أن يلبس تاجاً ويجلس على سرير ، وأن يأخذ أصحابه بالسجود له كلما دخلوا عليه . ولما قال لها أن هذا لا يجوز في الاسلام ردّت عليه بأن هذا كلّه ضروري لإلقاء الهيبة في قلوب أصحابه وأن أهل البلاد قد ألِفوا ذلك حتى انهم لا يخضعون الا لمن يسلك هذا المسلَك . ورفض عبد العزيز أن يأمر أصحابه بالسجود له كلما دخلوا عليه فاحتالت أيله بأن جعلته يفتح للقاعة التي كان يجلس فيها باباً متطامناً ، فكان كل من دخل عليه اضطر الى أن يطأطئ رأسه كأنه يركع . ومنهم من ذكر أن عبد العزيز بنى لأيله كنيسة على باب مسجده وأنه كان يسكن في الكنيسة معها . وقد زعم آخرون أنها حملته على النصرانية فتنصّر (٤) .

وأما الحديث الآخر فيدور حول العصبية وعلى حقد شخصي في صدر سليمان بن عبد الملك الذي نكب وجوه العرب وقادتهم من قبل (٥) .

---

(١) أخبار مجموعة ٢٧ ، البيان المغرب ٢ : ٢٣ ، ٢٤ . Cf. Enc.Isl. (New Ed.) I 58

(2) Los Mozarabes I 48

(٣) اخبار مجموعة ٢٠ ، البيان المغرب ٢ : ٢٣ .

(٤) فتوح مصر ٢١٢ اخبار مجموعة ٢٠ ، البيان المغرب ٢ : ٢٤ ، ابن الاثير ق ٤ : ٨–٩ .

(٥) راجع الحوض الشرقي ١٠٩ – ١١٠ .

لما استدعى سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير من الأندلس نكبه ؛ ثم أنه أرسل على افريقية والمغرب والأندلس محّمد بن يزيد . ووصل محمد بن يزيد الى القيروان في سنة ٩٧هـ ، ثم وصل اليه أمر سليمان بن عبد الملك بأخذ آل موسى بن نصير ونكبتهم وتعذيبهم ، وأن يغرّمهم ثلاثمائة ألف دينار ؛ فأخذ محمد بن يزيد عبد الله بن موسى فسجنه وعذبه ثم قتله . وبلغ ذلك كله الى عبد العزيز فخاف أن يلحق به ما لحق بأبيه وأخيه (١) فخلع طاعة بني مروان واستبد بأمر الأندلس . وأراد سليمان أن يزيد في ايلام موسى بن نصير – وكان لا يزال سجيناً عنده – فكتب الى خمسة من وجوه الجنود في الأندلس بقتل عبد العزيز بن موسى ، وكان في هؤلاء حبيب بن أبي عبدة الفهري وزياد بن النابغة التميمي – وهما من وجوه الجنود الذين كانوا قد جاءوا مع موسى بن نصير في زمن الفتح (٢) – وزياد بن عُذْرة البَلَوي . واستثار هؤلاء النفر الجنودَ ثم وثبوا على عبد العزيز وهو قائم يصلي في مسجد رُبينة (٣) في اشبيلية وقتلوه ، قيل قتله زياد بن عذرة البلوي (٤) ، وقيل قتله زياد بن النابغة التميمي (٥) . وكان مقتل عبد العزيز في غداة السبت لست خلون من رجب سنة ٩٧ (٨ آذار ٧١٦) .

ثم أن القتلة حملوا رأس عبد العزيز ورأس أخيه عبد الله وتوجهوا بهما في مطلع ٩٨هـ (أيلول ٧١٦) الى سليمان بن عبد الملك في دمشق . ويقال أن سليمان دعا بموسى من السجن ثم طرح له بين يديه رأس ابنه وقال له : « أتعرف هذا ؟ » قال موسى : « نعم ، أعرفه صوّاماً قواماً فعليه لعنة الله إن

---

(١) في فتوح مصر : لما قتل عبد العزيز كان أخوه عبد الله لا يزال والياً على افريقية (ص٢٢٢) حتى [illegible] سنة ٩٦ هـ – كذا – (ص٢١٣) ، أو الى ما بعد وفاة سليمان (ص٢١٣ ، ٢١٤) .

(٢) الذخيرة ١٨٧ ، ٢٠٣ .

(٣) ويقال رفينة .

(٤) البيان المغرب ٢ : ٤٢ .

(٥) فتوح مصر ٢١٢ ، الذخيرة ٢٠٣ .

كان الذي قتله خيراً منه ! » (١) .

ولا ريب في أن مقتل عبد العزيز يدل على النفوذ الذي كان بنو أمية يتمتعون به في الأندلس ، ولكنه كان من وصمات سليمان التي تعد عليه طول الدهر (٢) ؛ وأما طرح رأس عبد العزيز بين يدي موسى فكان فيه من الحقد والانتقام والنكاية ما حمل المقّري على أن يقول في نفح الطيب (١ : ١٨١) : « لا جَرَمَ أن الله لم يمتع سليمان بن عبد الملك بعد عبد العزيز بملكه وشبابه » .

على أن صاحب أخبار مجموعة يروي (ص٢٢) أن سليمان غضب لمقتل عبد العزيز وأمر واليَه على افريقية والمغرب (٣) أن ينظر في شأن مقتل عبد العزيز وأن يُقْفِلَ القتلةَ الى دمشق .

وتوفّي موسى بن نصير بعد أن اضطّر الى أن يطوف في أحياء العرب لجمع الغرامة التي فرضها سليمان بن عبد الملك عليه . وكانت وفاته في الحجاز في سنة ٩٨هـ (٤) ، عام ٧١٦ — ٧١٧م .

(٢) أيوب بن حبيب اللخمي

اضطربت أحوال الأندلس بعد مقتل عبد العزيز بن موسى ، ولم يتفق أهل الأندلس على شخص يولونه على أنفسهم فبقيت الأندلس ستة أشهر بلا والٍ (٥) . وأخيراً ، في مطلع سنة ٩٨هـ (أيلول ٧١٦) ، قدّم أهل الأندلس أيوبَ بن حبيب اللخمي على أنفسهم — وكان رجلاً صالحاً — ليؤمّهم في صلاتهم . فلما

---

(١) فتوح مصر ٢١٢-٢١٣ ، راجع البيان المغرب ٢ : ٢٥ .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٢٥ ، نفح الطيب ١ : ١٨٠ .
(٣) هو محمد بن يزيد ، ولكن صاحب اخبار مجموعة (ص ٢٢) يسميه مرة عبيد الله بن زيد القرشي (السطر الثاني) ومرتين عبد الله بن يزيد (السطران ٧ ، ١٠) .
(٤) راجع ابن الاثير ٤ : ٢٧٢ .
(٥) البيان المغرب ٢ : ٢٥ ، ابن الاثير ٥ : ٢٢٣ ؛ في فتوح مصر (ص ٢١٣) واخبار مجموعة (ص ٢١) ان اهل الاندلس مكثوا سنين بلا وال .

طال بهم الأمر ارتضوه والياً (١) . ويقال أن البربر هم الذين قدموه للولاية خوفاً من افتراق الكلمة (٢) ، وقيل بل قدمه أهل اشبيلية (٣) . وكان تقديم أيوب لولاية الأندلس يشبه أن يكون وراثة لأنه كان ابن أخت موسى بن نصير .

والى أيوب بن حبيب تنسب قلعة أيوب ، وهي مدينة على نحو خمسة وسبعين كيلومتر من سرَقُسْطة جنوباً في غرب (٤) .

وكانت ولاية أيوب بن حبيب على الأندلس ستة أشهر ، فيما ذكروا (٥) ؛ على أن المدة التي انقضت بين مقتل عبد العزيز ومجيء الحر بن عبد الرحمن الثقفي تزيد ، فيما يبدو ، على عام ونصف عام .

(٣) الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي

وكان من المنتظر ألاّ يرضى سليمان بن عبد الملك عن ولاية أيوب بن حبيب — وهو ابن أخت موسى بن نصير — على الأندلس . وأدرك محمد بن يزيد ، والي افريقية ، أن تنحية أيوب بن حبيب داخلة في السياسة التي رسمها له سليمان في موقفه حِيال آل موسى بن نصير . من أجل ذلك أرسل محمد بن يزيد الحرَّ بن عبد الرحمن الثَّقَفي والياً على الأندلس مكان أيوب بن حبيب .

ووصل الحر الى الأندلس في أربعمائة من وجوه افريقية ، في أوائل سنة ٩٨هـ (خريف عام ٧١٦م) في الأغلب .

وكان أيوب بن حبيب قد اتفق مع أهل الأندلس على تحويل العاصمة من اشبيلية الى قرطبة ، لأن قرطبة مدينة وسط أكثر من اشبيلية ، ولأنها كانت

---

(١) الملموح من فتوح مصر (ص ٢١٢) ان الذين قتلوا عبد العزيز بن موسى هم الذين قدموا ابن عمته أيوب بن حبيب للولاية .
(٢) ابن القوطية ٩ ، راجع جذوة المقتبس ١٦١ .
(٣) نفح الطيب ٢ : ٨ .
(٤) الروض المعطار ٧٧ .
(٥) البيان المغرب ٢ : ٢٥ ، ابن خلدون ٤ : ١١٨ ، نفح الطيب ١ : ١٤٤ ، ٢ : ٨ .

على طريق القوافل . ولأن اشبيلية كانت ميداناً واسعاً لنشاط الأسبان ضد الحكم العربي. ولكن تحويل العاصمة الى قرطبة تم في أيام الحر .

بدء المقـــاومة الاسبانية

« قال (١) غير واحد : أن أول من جمع فَلّ (٢) النصارى في الأندلس بعد غلبة العرب لهم عِلْج يقال له بلاي (٣)من أهل استوريش من جيليقية كان رهينة عن طاعة أهل قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، الثاني من أمراء العرب في الأندلس (٤) ، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها — سنة ثمان وتسعين من الهجرة . وثار النصارى على نائب الحر بن عبد الرحمن فطردوه وبقي الملك فيهم .. »

كان حكم آل نصير : موسى وأبنه عبد العزيز وابن أخته أيوب بن حبيب ليناً حليماً . ويبدو أن عبد العزيز خاصة كان مستضعفاً ومستنيماً لامرأته أخيلونة التي لم تكن كثيرة الوفاء لزوجها وللاسلام. ولقد رأيناها (٥) تصل يدها بيد بلاي وتساعده على أن ينال من زوجها والي الأندلس عبد العزيز بن موسى شروطاً جديدة لينة يعود بعدها بلاي الى جبال جيليقية لينظم أنصاره القليلين ويستقل في ذلك المكان الوعر النائي عن سلطة اشبيلية . ولم يحرك بلاي ساكناً في أيام عبد العزيز وأيام أيوب ، لأن أنصاره كانوا قليلين جداً — لقد كان الأسبان ينعمون بالعدل العربي وبحلم آل نصير خاصة . وتذكر المصادر الافرنجية (٦) أن الحر كان

---

(١) نفح الطيب .

(٢) بقايا الجيوش .

(3) Pelagius (L.), Pelayo (esp.), Pélage (fr.). Pélage: roi des Asturies, fut les chef des goths et chrétiens fideles (Dictionnaire Universel d'Hist. et de Géog. Paris, nouvelle edition, 1859, sous : Pélage .

(٤) لم يعد هذا المصدر هنا عبد العزيز بن موسى في الولاة لانه كان عنده من الفاتحين مثل والده موسى ومثل طارق بن زياد .

(5) Cf. Los Mozarabes 81.

(6) ibid. 79ss.

قيسياً متحمساً لقيسيته وحاكماً شديد الوطأة على رعيته : أما قيسيته فحملته على أن يبدل السياسة التي كان آل نصير اليمانية ينتهجونها وأن يسلك مع اليمنية سياسة جائرة . وقد تناولت سياسته هذه العرب والبربر والنصارى واليهود على السواء ، وكان لها على الدولة العربية في الأندلس نتائج تزداد خطورة مع الأيام : مع ازدياد قوة الأسبان ومع اتساع العصبية والضعف بين العرب حيناً بعد حين .

وبلاي هذا كان — فيما زعموا — نبيلاً قوطياً أجمع عليه جماعة من قومه الذين كانوا قد خسروا الحكم على الأندلس بعد الفتح العربي . وكان الذين اجتمعوا حول بلاي قِلّة — لأن جانباً كبيراً من أهل اسبانية كانوا قد دخلوا في الاسلام ايماناً واحتساباً أو رياء وجذباً للدنيا — فاتخذوا مقامهم في جبال استوريش ، في جيليقية (في الطرف الشمالي الغربي من اسبانية ، ذلك الجزء الذي لم يستطع فاتح أن يصل اليه) . من هذا الجزء من اسبانية بدأ دفع العرب عن الأندلس ، لأن ذلك الجزء كان في الحقيقة مركزاً لتجمع الجيوش من جميع البلاد الاوروبية . وسنرى أن المعارك التي كانت تدور بين العرب وبين الجلالقة ، في جميع أدوار الحكم العربي ، كانت تدل على أن الجلالقة كانوا يتلقّون مدداً وافراً من الرجال والعتاد من وراء جبال البرانس . فربّ معركة واحدة قتل فيها من الجيش الجيليقي عدد يربو على أهل جيليقية كلهم (١) . أما غنائم العرب من الجلالقة فكانت تدل ، باختلاف الأسلحة ووفرتها وبكثرة المؤن والأعتدة ، على أن تلك الأسلحة والأعتدة لم تكن من صنع جيليقية والجيليقيين ، بل من صنع بلاد الفرنجة وايطالية وبلاد الجرمان البرابرة وراء نهر الراين .

الجهاد في ايام الحر

جاء في عدد من المصادر والمراجع ، من عربية وافرنجية ، أن الحر بن عبد

---

(١) جاء في اخبار مجموعة (٢٨) : « ولم تبق في جيليقية قرية لم تفتح غير الصخرة (معقل طبيعي) فانه لاذ بها ملك يقال له بلاي فدخلها في ثلاثمائة راجل ، فلم يزل (العرب) يغاورونه حتى مات اصحابه جوعاً وترامت طائفة منهم الى الطاعة . فلم يزالوا ينقصون حتى بقي (بلاي) في ثلاثين رجلا ليس معهم عشرة نسوة فيما يقال ... »

الرحمن الثقفي غزا الأرض الكبيرة (بلاد الفرنجة) وراء جبال البرانس (١) ؛ ولكن الواقع أنه لم يفعل . ولعله أراد أن يفعل فحالت بينه وبين ذلك ثورة بلاي التي نشبت في عام ٨١٧م (١٠٠هـ في الأغلب) ، وأستطاع أن يهزم فيها ، فيما زعموا ، عبد الرحمن بن علقمة والي الحر بن عبد الرحمن على أربونة في معركة كوفادونقا (٢). ومع أن الأسمين بلاي وعلقمة لا يمتان الى هذا التاريخ بصلة واضحة ، ومع أن التاريخ ٧١٨م مشكوك فيه كثيراً ، فاننا لا نشك في أن نصارى الأندلس بدأوا منذ هذا العصر الذي نقص تاريخه هنا في رصّ صفوفهم ليدفعوا العرب ، بمعونة الفرنجة والبابوية ، عن شبه جزيرة الأندلس ؛ وتَمّ المصادر الأجنبية قصةمعركة كوفادونقا بأن العذراء ظهرت لجيوش الأسبان، وأن بلاي قد تسمى بالملك بعد تلك المعركة وبنى مدينة أوبيط (٣) .

* * *

وبقي الحر بن عبد الرحمن الثقفي القيسي والياً على الأندلس سنتين وثمانية أشهر في الأغلب . ذكر ابن عذاري (٤) أن ولايته كانت ثلاث سنوات ؛ ويبدو أنه بقي والياً على الأندلس الى رمضان من سنة ١٠٠ ونيسان من عام ٧١٩.

ب) الجهاد وراء جبال البرانس

اذا كان العرب قد فكروا في قطع جبال البرانس (٥) منذ نزلوا في الأندلس، فانهم لم يبدأوا قطعهافعلاً الا في أيام السمح بن مالك الخولاني الذي خلف الحر بن عبد الرحمن الثقفي على الأندلس . ويحسن بنا أن نوجز هنا سياسة العرب في غزو بلاد الفرنجة قبل أن نأتي الى تأريخ هذا الدور الذي نحن بصدد تأريخه .

---

(١) راجع مجلة العلوم (بيروت ؛ شباط – فبراير ١٩٥٩) ص ٧-١١ .

(2) Cf. Lévi-Provençal, I 66s.

(3) Dictionnaire Univerels, Loc. cit.

(٤) البيان المغرب ٢ : ٢٥ .

(٥) عرف العرب جبال البرانس باسم جبال الثنايا والبرانس والعقاب والبرت والبرتات، وعرفها الافرنج باسم Pirineos (Sp), Pyrenés (Fr.) , Pyrenees (Eng.)

١ – حينما فتح العرب الأندلس لم يكن قد أصبح لجبال البرانس ذلك المعنى السياسي الذي هو لها اليوم من أنها حد فاصل بين اسبانية وفرنسة . لقد كانت بلاد الفرنجة – في نظر العرب يومذاك ، مما كانوا يلاحظونه من طبيعة الأرض ولغة السكان وعاداتهم ومن الأحوال السياسية السائدة في تلك الأصقاع – امتداداً لبلاد الأسبان .

٢ – ان روح الجهاد والرغبة في نشر الاسلام والدفاع عن الدين ، وهي العوامل التي كانت قد حملت العرب من قبل على فتح المشرق والمغرب وعلى فتح الأندلس قد حملت العرب بعد ذلك على **متابعة** الغزو الى بلاد الفرنجة .

٣ – اذا أرادت أمة من الأمم أن تحفظ بلادها وتصون حدودها وجب عليها أن تمد صداقتها الى أقطار مجاورة لها أو أن تبسط نفوذها على تلك الأقطار حتى تبعد خطر الغزو الخارجي عن أرضها وديارها .

٤ – لما نزل العرب في الأندلس بدأت الجماعات العائشة يومذاك في الجانب الجنوبي الغربي من أوروبة تتحفز ، بتحريض من البابوية ، للانقضاض على الأندلس . من أجل ذلك لم يكن لعرب الأندلس بدّ من أن يحطّموا هذه القوى المتجمعة وراء حدودهم قبل أن يتاح لها أن تنفذ الى بلادهم وتقلق راحتهم ؛ وهكذا رأينا أن غزوات العرب لبلاد الفرنجة كانت للتدمير والتخريب لا للاحتلال والاستقرار .

واتخذ العرب الى غزو بلاد الفرنجة طريقين :

– طريقاً شرقياً يسير محاذياً للساحل ثم دائراً حول الركن الشرقي من سلسلة جبال البرانس الى مدينة أربونة . ثم يفترق هذا الطريق شعْبين يتجه أحدهما شرقاً الى مدينة أبنيون (أفينيون) ثم يصعد في حوض نهر رودنو (الرون) حتى يصل الى لوذن (ليون) والى ما ورائهما شمالاً . وأما الشعب الآخر فيتجه من أربونة شمالاً في غرب الى طلّوزة (تولوز) .

– طريقاً غربياً يذهب من سَرَقُسْطة ماراً بمدينة قَلَهُرّة ومدينة بنبلونة

حتى يخترق الركن الغربي من سلسلة جبال البرانس متجهاً نحو مدينتي بوردو وبواتيه .

(٤) السمح بن مالك الخولاني

توفي سليمان بن عبد الملك في صفر من سنة ٩٩ (تشرين الاول من عام ٧١٧) فخلفه عمر بن عبد العزيز بن مروان، ابن عم سليمان (١)، وكان لا يزال محمد بن يزيد والياً على المغرب . ورأى عمر بن عبد العزيز أن يعزل محمد بن يزيد هذا ويولي مكانه اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم (٢) . وقد ذكروا في سبب توليته أن العادة كانت قد جرت اذا بعث الولاة بجبايات الأمصار أن يرسلوا معها وفداً من عشرة رجال من وجوه الناس والاجناد ليحلفوا بين يدي الخليفة بأنه ما من درهم ولا دينار من الجباية التي جاءوا بها الا أخذ بحقه وأنه فَضْلُ أُعطياتِ أهل البلد من المقاتلة والذرية . وجاء وفد أفريقية بخراجها — مرة من المرات في أيام سليمان بن عبد الملك — فحلف ثمانية من رجاله بأن ما معهم من مال الجباية قد أخذ بحقه ونكل اثنان عن حلف اليمين هما اسماعيل بن عبد الله والسمح بن مالك الخَوْلاني . فأعجب ذلك عمرَ منهما فضمهما الى نفسه فاختبر منهما صلاحاً وفضلاً . فلما تولى الخلافة ولى اسماعيل ابن عبد الله على افريقية وولّى السمح بن مالك على الأندلس (٣).

ووصل اسماعيل بن عبد الله الى المغرب سنة ١٠٠هـ فسار سيرة حميدة فأسلم بقية البربر بأفريقية على يديه ؛ وهو الذي علم أهل افريقية الحلال والحرام : وكان عمر بن عبد العزيز قد بعث مع اسماعيل عشرة من التابعين لتفقيه أهل افريقية في الدين منهم عبد الرحمن بن نافع وسعد بن مسعود التجيبي وحبّان

(١) راجع الحوض الشرقي ١١١-١١٣ .
(٢) البيان المغرب ١ : ٤٨ .
(٣) أخبار مجموعة ٢٢-٢٣ .

ابن أبي جبَلَة . وقد كانت الخمر تشرب في افريقية حتى جاء هؤلاء فبينوا تحريمها (١) .

وما كاد اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر يصل الى القيروان حتى بعث السمح بن مالك الخولاني — تنفيذاً لرغبة عمر بن عبد العزيز— الى الأندلس. فوصل السمح اليها في رمضان من سنة ١٠٠ (٢) ، نيسان من عام ٧١٩ .

لما وَلِيَ السمحُ الأندلسَ لم يكن قد مر على الفتح العربي فيها ثماني سنوات بعد . من أجل ذلك لم تكن البلاد مستقرة ولا كان أهلها قد خضعوا بعد للحكم العربي خضوعاً تاماً ، وخصوصاً النبلاءَ القوط الذين كانوا قد خسروا دولتهم بالأمس القريب . وأدرك عمر بن عبد العزيز الخطر الذي يمكن أن يتعرض له المسلمون في هذا القطر المنقطع عن بلاد الأسلام اذا كانوا قليلي العدد بين أقوام أعداء لهم فكتب الى السمح يستخبره خبرَ الأندلس ويسأله أن يكتب اليه بصفة الأندلس وأحوالها — وكان رأيه نقل المسلمين منها لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأقوام هم أعداءٌ لهم. ولكن السمح كتب الى عمر يقول له ان المسلمين قد كثروا في الأندلس وانتشروا في أقطارها وأنه لا خوف عليهم : واقتنع عمر بقول السمح ولكنه زاد اهتمامَه بالأندلس ففصلها عن المغرب وجعلها ولاية مستقلة تابعة لمركز الخلافة في دمشق بعد أن كانت تابعة لوالي افريقية . ثم أن عمر أمر السمح بالقيام باصلاحات تجعل مقام المسلمين في الأندلس أكثر أمناً واطمئناناً وراحة (٣) . فكان من تلك الاصلاحات :

١) تجديد القنطرة على نهر الوادي الكبير : كان الرومان قد عقدوا على نهر الوادي الكبير قنطرة (جسراً) . فلما فتح العرب الأندلس كانت هذه القنطرة قد تهدمت ولم يكن قد بقي منها الا أسسها وعدد من حناياها . ففي سنة ١٠١هـ ورد كتاب من عمر على السمح يأمره فيه بأن يعيد بناء القنطرة بحجارة يأخذها

(١) البيان المغرب ١ : ٤٨ ، الاستقصا ١ : ٩٠ .
(٢) البيان المغرب ١ : ٤٨ ، ابن خلدون ١ : ١١٨ ، ١٨٨ ، نفح الطيب ١ ، ٤٥ ، ٢ : ٨ ، ٩..
(٣) راجع البيان المغرب ٢ : ٢٦ ، ابن الاثير ٥ : ٣٢٣ ، أخبار مجموعة ٢٣ نفح الطيب ٢ : ٨

من السور . أما السور فرأى عمر أنه لم يبق حاجة اليه ما دام المسلمون قد كثروا في الأندلس وأمنوا . فان لم يكن بد من سور ، محافظة على الأمن المحلي ، فلا ضرر من بنائه باللَّبِن (١) .

٢) تخميس الأندلس : أن استيلاء العرب على الأندلس بسرعة جر شيئاً من الاضطراب على ادارتها العسكرية والمدنية ثم جعل التمييز بين الأراضي التي فتحت عَنوة والاراضي التي فتحت صلحاً على جانب من الصعوبة . من أجل ذلك عسر فرض الجبايات على هذه الأراضي بالعدل . ولعل جماعة من أهل البلاد شَكَوْا ذلك ، فكتب السمح الى الخليفة بهذه الشكوى . فكان مما كتب به الخليفة عمر بن عبد العزيز الى السمح بن مالك أن يميّز الأراضي التي فتحت عنوة من تلك التي فتحت صلحاً ثم يخرج خمس الأراضي التي فتحت عنوة لينفق منه على الفتوح وعلى مصالح المسلمين ، وأن يقسم ما بقي من هذه الأراضي (أربعة أخماسها) بين غُنّامها الذين فتحوها . وكذلك كتب عمر الى السمح أن يخرج من خمس قرطبة مقبرة للمسلمين ، فأخرج منه البطحاء المعروفة بالربض (الضاحية الجنوبية) فجعلت مقبرة (٢) .

السمح وراء جبال البرانس

في أخبار مجموعة (ص ٢٤) أن عمر بن عبد العزيز أمر السمح بن مالك الخولاني بالجهاد ، فاستجاب السمح لرغبة عمر .

الاسرة الميروفية : ببين وابنه قارله

في ذلك الحين كانت الأسرة الميروفية (٣) تحكم فرنسة . ولكن تلك الأسرة التي بدأت حكمها في أواسط القرن الخامس للميلاد — قبل ظهور الأسلام بنحو

(١) أخبار مجموعة ٢٣-٢٤ ، البيان المغرب ٢ : ٢٦ ، نفح الطيب ١ : ٣١٤ ، ٢ : ٩ .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٢٦ ، أخبار مجموعة ٢٣-٢٤ ، غزوات العرب ٤٧ ، ٥٧ .
(٣) Les mérovingiens نسبة الى الملك Merowig (في الافرنسية Mérovée)

أمائة وخمسين عاماً — كانت ، لما دخل العرب الى الأندلس ، قد ضعفت ودخل العجز على ملوكها فاستبد بالحكم فيها حجّاب متوارثون (وزراء قيّمون على قصر الملك) وأخذوا يصرفون الأمور وفق مصالحهم وعلى أهوائهم . وكان مثال هؤلاء الحجاب كثيرين وموجودين في جميع بلاطات الجرمان والفرنجة ؛

أما حاجب القصر الميروفي في الزمن الذي نؤرخه فكان ببين صاحب هرستال (١) الذي استبد بالحجابة في بلاط أوسترّاسية نحو عام ٦٧٩م (٢) ثم حارب مملكة نوستَرية (غربي غالية) واغتصب السلطة في بلاطها (٦٨٧م) ، كما حارب القبائل الجرمانية . ولكنه تخلى أخيراً عن الحجابة في بلاط نوستَرية واكتفى بالحجابة في بلاط أوستَراسية .

وكان لببين هذا عشيقة اسمها ألبائيد استولدها في نحو عام ٦٨٦م (٦٧هـ) غلاماً سماه قارْلُه (٣). وتوفي ببين عام ٧١٤م (٩٦هـ) ، بعد أن تم استيلاء العرب على الأندلس ، فخلفه أبنه قارله في الحجابة في بلاط أوستَراسية . وسلك قارله سلوك أبيه فحارب أهل نوستَرية وغزا قبائل السكسون والفريزيين والألمان ، ولكنه لم يشتهر الا بعد أن حارب العرب في معركة بواتيه (٤) .

ولما بلغت المملكة الميروفية الى هذه الدركة من الضعف أخذ النبلاء الفرنجة يستبدون بالمقاطعات المختلفة ويحكمونها مستقلين أو كالمستقلين . من هؤلاء أودون صاحب أكويتانية الذي اتخذ تولوز (٥) عاصمة له . ويحسن أن نشير هنا إلى أن هؤلاء النبلاء المستبدين بالمقاطعات كانوا في نزاع مع الملوك الميروفيين — أو مع حجاب القصر الميروفي على الأصح — ثم في نزاع فيما بينهم .

غزوتا السمح

في سنة ١٠٠هـ (٧١٩م) سار السمح الى مدينة أربونة وافتتحها . ولكن فتح

(1) Pépin d'Héristal .
(٢) يوافق ذلك أيام يزيد بن معاوية .
(3) Karl, Carlos, Charles .
(4) Cf, Larousse du XXeme Siecle 5:472 et 2:150.
(5) Eudes (أود) ، و Toulouse (طلوزة)

أربونة لم يدم طويلاً فأعاد السمح الكرة عليها في أواخر سنة ١٠٢هـ (ربيع عام ٧٢١م) ففتحها ثم حصنها وشحنها بالمُقاتلة والأعتدة . بعدئذ اتجه شمالاً في غرب نحو تولوز فحاصرها ورماها بالمنجنيق . فلما علم أودون بذلك — وكان في الشمال — عاد مسرعاً للدفاع عن عاصمته يقود جموعاً غفيرة من الجرمان والفرنجة . ومع أن العرب كانوا قليلين فانهم انتصروا في بادئ الأمر . ولكن في يوم عرفة (٩ ذى الحجة) من سنة ١٠٢ (١٠ حزيران ٧٢١) اشتدت الحرب حول تولوز نفسها ، وقتل السمح فانتشر شيء من الفوضى في الجيش العربي وانهزم . غير أن أحد القادة الذين كانوا مع السمح بن مالك استطاع بحكمته ومقدرته وشجاعته أن ينسحب بمن بقي من الجند سالمين الى الأندلس . ذلك القائد كان عبد الرحمن الغافقي (١) . على أن انهزام العرب أمام تولوز لم يجبرهم على الانسحاب من أربونة (٢) ، فبقيت أربونة لهم حصناً ومكاناً للتعبئة يشنّون منها الغارات على ما حولها من بلاد الفرنجة .

وكانت ولاية السمح بن مالك على الأندلس سنتين وثمانية أشهر في أصح الروايات (٣) .

ولاية يزيد بن أبي مسلم على افريقية والمغرب

كان يزيد بن أبي مسلم مولىً للحجاج بن يوسف وصاحبَ شُرطته ، ولا ريب في أنه قد أضاف الى ما كان عنده من كفاية وحزم شيئاً من شدة الحجاج وعنفه . ولما حضرت الحجاجَ الوفاةُ ، في رمضان من سنة ٩٥ (أيار ٧١٤) ،

(١) البيـــان المغرب ٢ : ٢٦ ، راجع ابن خلدون ٤ : ١١٨ . جاء في نفح الطيب ٢ : ٩ : « قتل (السمح) في الوقعة المشهورة عند أهل الاندلس بوقعة البلاط — يوم التروية (٨ ذي الحجة) سنة ١٠٢ — وكان جنود الفرنجة قد تكاثروا عليه فاحاطت بالمسلمين فلم ينج منهم أحد » . وفي البيـــان المغرب ٢ : ٢٦ : قتل السمح في طرسونة (قرب تطلية على نهر أبره شرق سرقسطة) (راجع الروض المعطار ٦٤، ١٢٣) ، راجع Larousse 6 : 745

(2) Larousse 5:671.

(٣) راجع البيان المغرب ٢ : ٢٦ ، ابن الفرضي ١ : ٢٣٠، نفح الطيب ٢ : ٩ .

استخلف يزيد بن أبي مسلم على خراج العراق فضبطه وأحسن القيام عليه : من أجل ذلك أقره الوليد وسليمان ابنا عبد الملك على ما كان الحجاج قد استخلفه عليه . ولكن لما جاء عمر بن عبد العزيز — وكان كارهاً للحجاج ولسياسته وللناهجين نهجه — رأى على يزيد بن أبي مسلم ما يوجب المؤاخذة فألقاه في السجن (١) . ثم توفي عمر بن عبد العزيز في رجب من سنة ١٠١ (شباط ٧٢٠) فخلفه يزيد بن عبد الملك فولّى يزيد بن أبي مسلم على افريقية والمغرب . ووصل يزيد بن أبي مسلم الى القيروان في سنة ١٠١هـ ، كما ذكر ابن خلدون (٤ : ١٨٨) ، أو ١٠٢هـ ، كما ذكر صاحب البيان المغرب (١ : ٤٨) . وأرى أن أحداث المغرب والأندلس لاتتسق في هذه الحِقبة الا اذا كان قدوم يزيد بن أبي مسلم الى القيروان في مطلع سنة ١٠٣هـ (تموز ٧٢١) :

(٥) عبد الرحمن الغافقي للمرة الاولى

كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي العَكّي (٢) من الذين دخلوا الأندلس للجهاد والرِباط ، وكان هؤلاء بضعة وعشرين شخصاً ، وهم الذين أسسوا جامع قرطبة (٣) . وروى عبد الرحمن الغافقي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب كما روى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعياض بن عياض وسواهما (٤) .
لما استُشْهِدَ السمحُ بن مالك الخولاني قدم الجند على أنفسهم عبد الرحمن الغافقي فدخل عبد الرحمن الأندلس (من أرض الفرنجة) في ذي الحجة من سنة ١٠٢ ، وبقي والياً عليها حتى جاء عَنْبسة بن سُحيم الكلبي في صفر من سنة ١٠٣ (٥) . وهكذا كانت ولاية السمح الاولى على الأندلس نحو شهرين :

(١) الاستقصا ١ : ٩٢ ، راجع ٩١-٩٢ ، والبيان المغرب ١ : ٤٨ .

(٢) جذوة المقتبس ٢٥٥ ، راجع في سياقة نسبه جمهرة أنساب العرب ٣٠٩ .

(٣) جذوة المقتبس ٧ ، المعجب ١٤ ، نفح الطيب ١، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٢ : ٩ .

(٤) راجع ابن الفرضي ١ : ٢٩٨ ، جذوة المقتبس ٧ ، المعجب ١٤ ، نفح الطيب ٢ : ٩، ١١ .

(٥) البيان المغرب ٢ : ٢٦ ، ابن خلدون ٤ : ١١٨ ، نفح الطيب ١ : ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٩٠ ، ٢ : ٩ .

(٦) عنبسة بن سحيم الكلبي

في الشهر الذي وصل فيه يزيد بن أبي مُسْلِم الى القيروان ولّى على الأندلس عَنْبَسَة بن سُحيم الكلبي (١) ، فوصل عنبسة الى قرطبة في صفر من سنة ١٠٣ (آب ٧٢١) .

مقتل يزيد بن أبي مسلم

كان في يزيد بن أبي مسلم شيء من استبداد الحجّاج وقسوته ، فأراد أن يسلُكَ في المغرب مسلَكَ الحجاج في العراق فأساء السيرة في البربر وأراد أن يرد الجزية — أو ما يشبه الجزية — على الذين أسلموا ، وأن يرد أهل الريف الى قراهم (كما كان الحجاج قد فعل في العراق) . ثم انه اتخذ حرساً من البربر البُتْر وأراد أن يكتب على يمين كل واحد منهم اسمه (اسم الجندي) وأن يكتب على يساره كلمة « حرسيّ » ، كما كان يصنع الروم (٢) . فسيِءَ البربر من ذلك وتآمروا عليه وقتلوه بعد شهر واحد من قدومه (٣) ، في صفر من سنة ١٠٣ .

وأراد أهل المغرب أن يولّوا على أنفسهم المُغيرة بن أبي بُرْدة القرشي ، أحد بني عبد الدار — وكان شجاعاً كبيراً — فقال له ابنه عبد الله : ان بن أبي مسلم قتل بحضرتك . فان رضيت بالولاية اتهمك الناس بقتله . فالرأي عندي أن تحمل الناس على الرضا بمحمد بن أوس الانصارى ، وكان يومذاك في غزوة الى سقلية فلم يلبث أن عاد بغنائم قد أصابها فولاه الناس على افريقية (٤) .

(١) البيان المغرب ١ : ٤٨، ٢ : ٢٧ ، ابن خلدون ٤ : ١١٨ ، ١٨٨ ، نفح الطيب ١ : ١٤٥ ، راجع ٢ : ٩ الاستقصا ١ : ٤٧ .

(٢) فتوح مصر ٢١٥ .الحرسي واحد حرس السلطان (القاموس) .

(٣) البيان المغرب ١ : ٤٨ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٨ ، الاستقصا ١ : ٩٢ .

(٤) البيان المغرب ١ : ٤٩ . وقد اتهم الناس عبد الله بن موسى بن نصير بمقتل يزيد بن أبي مسلم فتوح ٢١٥ ، راجع فوق ، ص ١٠٥ والحاشية ١ .

وقيل بل عاد أهل المغرب الى تولية محمد بن يزيد(١) .

ولاية بشر بن صفوان على المغرب

ولم يرضَ الخليفة يزيد بن عبد الملك عن عمل أهل افريقية بيزيد بن أبي مسلم لأن مقتله كان ، كما سنرى بعد قليل ، بدء عصبية ستثور وشيكاً في المغرب والأندلس على السواء، فكتب إلى واليه على مصر بِشْر بن صفوان بذلك . فاستخلف بشر أخاه حَنْظَلة على مصر ثم سار الى افريقية فوصل اليها سنة ١٠٣هـ « فبلغه أن عبد الله بن موسى (بن نصير أو أحد آل موسى بن نصير) هو الذي دس لقتل يزيد بن أبي مسلم ، وشهد على ذلك خالد بن أبي حبيب القرشي (٢) وغيره» . فقتله بِشْرٌ ، قيل بعد أن استشار في ذلك يزيد بن عبد الملك(٣) ، واستصفى بقايا آل موسىَ بن نصير (٤) .

وأقر بشر بن صفوان عنبسةَ بن سُحيم على الأندلس(٥) ثم التفت الى افريقية نفسها فضبطها وسكّن أرجاءها .

وبدا لبشر بن صفوان أن يذهب الى المشرق في زيارة للخليفة يزيد بن عبد الملك يحمل له فيها هدايا كثيرة . فلما توفي يزيد في ليلة الجمعة لأربع ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ (أواخر كانون الثاني ٧٢٤) كان بشر لا يزال في الطريق . فلما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك أقر بشر بن صفوان على افريقية فرجع بشر الى القيروان . ثم ان بشراً أقر عنبسة بن سحيم على الأندلس من جديد لأن أمر الأندلس كان قد استقر على يديه (٦) .

(١) ابن خلدون ٤ : ١٨٨ راجع الاستقصا ١ : ٩٢ .

(٢) يذكر فتوح مصر خالد بن أبي حبيب القرشي ص ٢١٥ مرتين وخالد بن ابي حبيب الفهري ص ٢١٨ ثلاث مرات ، والظاهر أنهما واحد .

(٣) فتوح مصر ٢١٥ .

(٤) البيان المغرب ١ : ٤٩ ، الاستقصا ١ : ٩٣ .

(٥) البيان المغرب ٢ : ٢٧ ، راجع أخبار مجموعة ٢٤ .

(٦) فتوح مصر ٢١٥ ، البيان المغرب ٢ : ٢٧ ، جذوة المقتبس ٣٠١ ، ابن خلدون ٤ : ١١٨، نفح الطيب ١ : ١٤٥ ، الاستقصا ١ : ٤٧ .

عنبسة وراء جبال البرانس

في أواخر سنة ١٠٥هـ (ربيع عام ٧٣٤م) استنفر عنبسة المجاهدين ثم عَبَرَ جبال البرانس في جيش كثيف الى بلاد الفرنجة . واستقر عنبسة حيناً في أربونة حتى أتم تحصينَها وشحْنَها بالرجال والعتاد . بعدئذ اتجه غرباً نحو مدينة قرقشونة على نهر الأود ، في أوائل سنة ١٠٦هـ، وحاصرها حصاراً شديداً، فصالحه أهلها على ما يلي (ابن الأثير ٥ : ٦٤) :

(أ) أن يتنزل (يتنازل) له أهلها عن نصف أعمال المدينة (الأراضي التابعة لها).

(ب) أن يطلقوا جميع من عندهم من أسرى المسلمين ويردوا اليهم سلاحهم ومتاعهم .

(ج) أن يعطوا الجزية .

(د) أن يلتزموا بأحكام أهل الذمة فيحاربوا من حاربه المسلمون ويسالموا من سالمه المسلمون .

ثم ان عنبسة سار الى نومشو (١) ، شمال شرقي قرقشونة بين مونبيليه وأبينيون ، فدخلها بلا مقاومة وأخذ منها رهائن نقلهم الى برشلونة . بعد ذلك صعد في حوض نهر رودنة (الرون) حتى وصل الى أوتون على نهر أرّو ، رافد نهر اللوار ، والى لوكْسُوي (٢) في مقاطعة الساعون الأعلى ، وتلك أبعد نقطة بلغ اليها العرب في فرنسة . ومن هنالك عاد عنبسة أدراجه ، ولكنه توفي في الطريق شهيداً ، في شعبان من سنة ١٠٧ (مطلع ٧٢٦م) ، فكانت ولايته أربع سنوات وثمانية أشهر (٣) .

(٧) عذرة بن عبد الله الفهري

لما استُشْهِد عنبسة قدّم أهل الأندلس على أنفسهم رجلاً من العرب يقال

(١) نيم Nîmes (٢) Luxeuil

(٣) راجع في الكلام على غزوة عنبسة واستشهاده : البيان المغرب ٢ : ٢٧ ، ابن الاثير ٥ : ٢٣٣ ، جذوة المقتبس ٣٠١ ، ابن خلدون ٤ : ١١٨ ، نفح الطيب ١ : ١٤٥، ٢ : ١٠٩ .

له عُذْرة (١) بن عبد الله الفِهري . ولم يكن عذرة والياً بالمعنى المقصود من الكلمة ، ولكن أهل الأندلس قدّموه حتى يضبط أمورهم ويقيم الأحكام بينهم لأنه كان من الصلحاء والفرسان ومن بيت نباهة وأدب (٢) . ولذلك لم يعده ابن بشكوال في سلاطين الأندلس (٣) ، ولا ذكره صاحب أخبار مجموعة ولا ابن خلدون .

(٨) يحيى بن سلمة الكلبي

ومع أن أهل الأندلس كانوا قد ولّوا على أنفسهم ، بعد استشهاد عنبسة ، عذرة بن عبد الله الفهري ، فانهم كتبوا الى والي افريقية بشر بن صفوان (٤) واستدعَوا منه والياً يقوم بأمرهم (٥) . فأرسل بشر بن صفوان اليهم يحيى بن سَلَمة (٦) الكلبي . وقد وصل يحيى الى الأندلس في شوال من سنة ١٠٧ (شباط ٧٢٦) ، في أيام هشام بن عبد الملك (٧) .

وأصلح يحيى بن سلمة الكلبي أمور الأندلس . ثم إنفرد الى أهل الذمة (اليهود والنصارى) ماكان عنبسة قد أخذه منهم بغير حق وأجبر المسلمين على أن يردوا ماكان في أيديهم من ذلك الى أصحابه . وهكذا استشعر أهل الذمة في

(١) في نفح الطيب ١ : ١٩٠، ٢ : ١٠ غزرة بالزاي اخت الراء .

(٢) راجع البيان المغرب ٢ : ٢٧ ، نفح الطيب ١ : ١٩٠ ، ٢ : ١٠.

(٣) نفح الطيب ٢ : ١٠ .

(٤) في ابن خلدون ٤ : ١٨٨ : حنظلة بن صفوان ، وهو وهم من ابن خلدون نشأ من ابن حنظلة اخا بشر ، كان والياً على مصر ثم تولى افريقية والمغرب سنة ١١٩ (البيان المغرب ١ : ٥٨). وفي البيان المغرب ٢ : ٢٧ : «ورد يحيى ... والياً من عند امير المؤمنين هشام بن عبد الملك في آخر سنة ١٠٩.

(٥) الاستقصا ١ : ٤٧ .

(٦) في اخبار مجموعة ص ٢٤ مسلمة ، وفي بعض الروايات سلمى او سلامة راجع مثلا ابن الاثير ٥ : ٣٣ .

(٧) راجع البيان المغرب ١ : ٤٩، ٢ : ٢٧، ابن الاثير ٥ : ٦٤ ، ٢٣٣ ، ابن خلدون ٤ : ١١٨، نفح الطيب ١ : ١٤٥ ، ١٩٠ ، ١٩٠ ٢ : ١٠ ؛ الاستقصا ١ : ٤٧ .

أيام يحيى كثيراً من القوة ، بينما اتهم العربُ يحيى بأنه يميل الى العصبية اليمنية (١) . ولم يغز يحيى بلاد الفرنجة أبداً (٢) ، مع أن ولايته على الأندلس امتدت سنتين وستة أشهر (٣) .

عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على المغرب

في سنة ١٠٧هـ غزا بشر بن صفوان جزيرة سقلية ، فلما عاد شكا من الدبيلة (٤) . ثم حضرته الوفاة فاستخلف مكانه على افريقية نُغاش بن قُرط الكلبي . فلما توفي في شوال من سنة ١٠٩ (كانون الثاني — شباط ٧٢٨) عزل هشام بن عبد الملك نغاش بن قرط وولّى عُبيدة بن عبد الرحمن بن أبي الأغرّ السُّلَمي القيسي ، في المحرم أو صفر من سنة ١١٠ (٥) ، أيار ٧٢٨ ، فوصل الى القيروان في يوم جمعة من شهر ربيع الاول من السنة نفسها (٦) ، أي في حزيران ٧٢٨ . وكان عبيدة بن عبد الرحمن قائد خيل معاوية في معركة صفين (٧) .

وأغزى عبيدة بن عبد الرحمن المستنير بن الحبحاب الى سقلية فهبت ريح على الأسطول العربي فأغرقت بعضه وقذفت المركب الذي فيه المستنير الى شاطئ طرابلس . فكتب عبيدة الى عامله على طرابلس يزيد بن مسلم الكِندي أن يبعث اليه بالمستنير مشدوداً في وثاق . فلما وصل المستنير الى القيروان جلده عبيدة ثم سجنه وأخذ في التنكيل به (٨) .

وكان عبيدة بن عبد الرحمن قد أخذ عمّال بشر بن صفوان وأصحابه وأغرمهم وعذبهم . وكان في هؤلاء أبو الخَطّار الحُسام بن ضِرار الكلبي

(1) Los Mozarabes 84.

(٢) ابن خلدون ٤ : ١١٨ ؛ السطر الثالث من اسفل ؛ نفح الطب ١ : ١٤٥ .

(٣) البيان المغرب ٢ : ٢٧ ، أبق خلدون ٤ : ١١٨ ؛ نفخ الطب ١ : ١٤٥ ؛ ٢ : ١٠ .

(٤) الدبيلة بالتصغير او الدبلة بفتح الدال وكسرها : مرض يصب الجوف .

(٥) فتوح مصر ٢١٦ ، راجع ابن خلدون ٤ : ١٨٨ .

(٦) البيان المغرب ١ : ٥٠ .

(٧) البيان المغرب ١ : ٥٠ .

(٨) فتوح مصر ٢١٦، راجع ٢١٧ . في الحاشية ١٠ من ص ٢١٦ «الحارث» بدل « الحبحاب» .

— وكان شريفاً في قومه مع فصاحة وبراعة — وكان قد وَلِيَ في إفريقية ولايات كبيرةً في أيام بِشْر ، فعزله عبيدة ونكّل به . فيقال إن أبا الخطار نظم أبياتاً وبعث بها الى هشام بن عبد الملك ، فكان ذلك سبباً في عزل عبيدة بن عبد الرحمن عن افريقية ، في شوال من سنة ١١٤ (١) أو تشرين الثاني ٧٣٢ ، بعد أن قضى في ولايته أربع سنوات وستة أشهر .

(٩) حذيفة بن الاحوص الاشجعي

تولى عبيدة بن عبد الرحمن السلمي افريقية والمغرب والأندلس معاً ؛ وأرسل في اثناء ولايته اربعة ولاة على الأندلس هم عثمان بن ابي نِسْعة وحُذيفة بن الاحوص والهَيْثم بن عُبيد ومحمد بن عبد الله الأشجعي (٢) . واختلف المؤرخون في عثمان وحذيفة : أيهما تولى قبل صاحبه (٣) . ان صاحب أخبار مجموعة (ص ٢٤) والمقرّي في نفح الطيب (١ : ١٤٥ ، ١٩٠ ، ٢ : ١٠) والسلاوي في الاستقصا (١ : ٣٩) يجعلون عثمان قبل حذيفة . أما ابن الخطيب في كتاب أعمال الاعلام (ص ٦) فيجعل حذيفة قبل عثمان . والغريب أن ابن عذارى يجعل عثمان ، في كتابه « البيان المغرب » ، مرة قبل حذيفة (١ : ٥١) ومرة بعد حذيفة (٢ : ٢٧ — ٢٨) . ومثل ذلك فعل ابن خلدون (٣ : ١٤٠ ، ٤ : ١١٨) .

ولعل الذي نقله الأمير شكيب أرسلان عن المؤرخ الأسباني كوندي (٤) يحل المشكلة ، مع أن أكثر ما ذكره كوندي في كتابه مدخول لا يوثق به . قال كوندي (٤) :

(٩) البيان المغرب ١ : ٥٠-٥١ .

(٢) الاستقصا ١ : ٩٣ .

(٣) ابن خلدون ٤ : ١١٥ ، السطر الاول .

(3) J. Conde, La dominacion arabe.

(٣) غزوات العرب ٨٦ .

« ... وبينما كان (يحيى بن سلمة) يطوف في الولايات الشمالية انتهز أعداؤه الفرصة فطلبوا من أمير افريقية عزله ، فأجابهم الى ما سألوا وأرسل مكانه عثمان بن أبي نسعة . وكان عثمان هذا مشهوراً بالبسالة والنجدة والبصيرة بالحروب فتولى الأمارة واضطلع بها . ولكن وجد فيه أصحابه عوداً صليباً وقناة لا تاين لغامز ، ولم يحققوا فيه آمالهم ولا هو عرَفَ لهم جميل سعيهم في تأميره ، بل رأوا فيه ما أمضّ وأرمض . فما زالوا يسعَون به كما (كانوا قد) سَعَوْا من قبل بسلفه حتى حملوا الخليفة على صرفه بحُذيفة بن الاحوص . فلم يقم هذا الا قليلاً ، وعاد أمير افريقية فولى على الأندلس عثمان بن أبي نسعة نفسه ، ولكن وكيلاً لا أصيلاً ، الى أن قدم من دمشق بأمر الخليفةِ الهيثمُ بن عبيد الكناني

وهكذا تستقيم المصادر ، اذ يكون عثمان قد جاء مرتين : مرة قبل حذيفة ومرة بعده . ثم ان ما ذكره كوندي ، اذا صح ، يمكن أن يحل لنا مشكلة ثانية : يذكر عدد من المصادر أن حذيفة قدم إلى الأندلس في ربيع الاول من سنة ١١٠ (١) ، كما يقول بعضها إنه جاء في المحرم من سنة ١١١ (٢) ؛ وكذلك تذكر المصادر أن حذيفة تولى الأندلس ستة أشهر (٣) ثم عزل عنها ، كما تذكر أن ولايته استمرت سنة (٤) . فينتج مما استعرضنا اذن أن المؤرخين اذا قالوا « مكث حذيفة ستة أشهر » وجب أن ينصرف ذهننا الى المدة التي قضاها حذيفة في ولايته الفعلية . أما اذا ذكروا أن حذيفة قضى في ولايته سنة فانهم يكونون قد استخرجوا ذلك من ادخال ولاية عثمان الثانية في مدة حذيفة ، اذ ظنوا أن حذيفة قد بقي في الولاية حتى قدم الهيثم بن عبيد الكناني .

---

(١) ابن الاثير ٥ : ٦٨ ، راجع ٨٢ . راجع ابن خلدون ٣ : ١٣٩ ، ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ٢ : ١٠ .

(٢) البيان المغرب ١ : ٥٠ .

(٣) البيان المغرب ٢ : ٢٧ ، ابن الاثير ٥ : ٢٣٣ ، راجع ٦٨ و ٨٢ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩ . وفي نفح الطيب ايضاً ١ : ١٣٥ خمسة اشهر .

(٤) ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ١ : ١٤٥ ، ٢ : ١٠ .

(١٠) عثمان بن ابي نسعة

وفي شعبان من سنة ١١٠ جاء عثمان بن أبي نِسْعة الخَثْعمي والياً على الأندلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السُلَمي فأقام فيها خمسة أشهر أو ستة ثم عاد الى القيروان (١) .

(١١) الهيثم بن عبيد الكلابي

وكذلك جاء الهيثم بن عبيد الكلابي (٢) الى ولاية الأندلس من قِبَلِ عبيدة ابن عبد الرحمن السُلَمي (٣) فوصل اليها في المحرم من سنة ١١١ (نيسان ٧٢٩) ، في أصح الأقوال (٤) . ويصف الأمير شكيب أرسلان في غزوات العرب (ص ٨٦) الهيثم هذا فيقول : « وكان الهيثم شامياً ، ولكنه كان فظاً بخيلاً جاسياً فآسَف شيوخ العرب والبربر وساءت ملكته فيهم فاتحدوا عليه فألقى بهم في السجون وأهلك بعضهم » . وقد نقل الأمير شكيب هذا الكلام عن كوندي ، ونحن لا نعرف مظانه في المصادر العربية .

وقالوا غزا الهيثم أرض منوسة (٥) وافتتحها وأقام فيها عشرة أشهر (٦) . وكانت ولاية الهيثم سنتين وأياماً (٧) . وعلى هذا كانت وفاته — وهو لا يزال

---

(١) البيان المغرب ١ : ٥٠ ، ٢ : ٢٨ ، راجع أخبار مجموعة ٢٤ (عثمان بن ابي سعيد الخثعمي تسعة بالتاء) راجع نسبه في جمهرة انساب العرب ص ٣٦٩ .

(٢) الهيثم بن عبيد الكناني (البيان المغرب ١ : ٥٠) ، الهيثم بن عفير الكناني (اخبار مجموعة ٢٤) .

(٣) البيان المغرب ١ : ٥٠ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩ .

(٤) ابن الاثير ٥ : ٢٣٢ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ١ : ١٩٠ ، ٢ : ١٠ . اما ابن عذارى فيذكر في البيان المغرب ان الهيثم جاء في صدر سنة ١١١ (٢ : ٢٨) مرة ، وانه جاء في المحرم من سنة ١١٢ (١ : ٥٠) مرة اخرى .

(٥) البيان المغرب ٢ : ٢٨ ، وفي الحاشية : سنوسة ، في ابن خلدون (٤ : ١١٩) : مقرشة ، وفي نفح الطيب (١ : ١٤٥) : منوسة ، وفي الحاشية : مقوشة .

(٦) ابن خلدون ٤ : ١١٩ .

(٧) في البيان المغرب : سنتين وأياماً (١ : ٥٠) ، سنة وشهرين (٢ : ٢٨) . في ابن خلدون (٤ : ١١٩) سنتين . في أعمال الاعلام (ص ٦) أربعة اشهر .

والياً – في أواسط المحرم من سنة ١١٣ (١) ، أي في آخر آذار من عام ٧٣١ ؛

(١٢) محمد بن عبد الله الاشجعي

بعد الهيثم قدّم أهل الأندلس على أنفسهم محمد بن عبد الله الأشْجَعي ، وكان فاضلاً ، فصلّى بهم شهرين (٢) هما مدة ولايته عليهم (٣) : ذو الحجة من سنة ١١١ والمحرم من سنة ١١٢ (شباط وآذار من عام ٧٣٠) . والمملوح ن أهل الأندلس كانوا اذا ولّوْا أحداً عليهم من عند أنفسهم ، قبل ثورة العصبيات ، لم يكونوا يولونه للامارة العامة بل للصلاة بهم وإقامة الأحكام (القضاء والحِسْبة وما اليهما) في الدرجة الاولى .

(٠٠) عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية

كان عبيدة بن عبد الرحمن السلمي لا يزال والياً على افريقية والمغرب (٤) ؛ فلما بلغته وفاة الهيثم بن عبيد وأن أهل الأندلس قدموا على أنفسهم محمد بن عبد الله الأشجعي لم يرض بذلك فوجه الى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي العكّي (٥) ليتولاّها للمرة الثانية . فكان دخول عبد الرحمن الغافقي الى الأندلس في صفر من سنة ١١٢ (أيار ٧٣٠) في أصح الأقوال (٦) .

---

(١) ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ١ : ١٤٥ . – توفي في ذي الحجة ١١١ (ابن الاثير ٥ : ٧٤ ، ٢٣٢)، توفي سنة ١١٢ (ابن خلدون ٣ : ١٤٠) ، توفي ١١٤ (البيان المغرب ١ : ٥٠،).

(٢) البيان المغرب ٢ : ٢٨ ، نفح الطيب ١ : ١٤٥ ، ١٩٠ ، ٢ : ١١ ، ١٢ .

(٣) البيان المترب ٢ : ٢٨ : ابن الاثير ٥ : ٨١ : ابن خلدون٣ : ١٤٠ نفح الطيب١ : ١٤٦ ، .

(٤) البيان المغرب ١ ،٥٠ .

(٥) فتوح مصر ٢١٦ ، ابن الأثير ٥ : ٨١ ، ٨٢، ٢٣٢ ، ابن خلدون ٣ : ١٤٠ ، الاستقصا ١ : ٤٨ .

(٦) البيان المغرب ٢ : ٢٨ ، ابن الاثير ٥ : ٢٣٢ ؛ وذكر بعضهم ان ولاية عبد الرحمن الثانية كانت سنة ١١٣ (البيان المغرب ١ : ٥١ ، نفح الطب ١ : ١٤٦، ٢ : ٩) .

الجهاد وراء البرانس

غزا عبد الرحمن الغافقي في ولايته الثانية بلاد الفرنجة في سنة ١١٣ وفي سنة ١١٤ للهجرة (١) . أما غزوة سنة ١١٣ فكانت استطلاعية تمهيدية ، فقد أرسل عبد الرحمن الغافقي جيشاً بقيادة عثمان بن أبي نِسْعة الذي كان والياً على الأندلس (٢) وعيّنه أميراً على الثغر (حامياً للحدود) ، وأمره بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش (٣) . وتذكر المصادر الفرنجية أن عبد الرحمن الغافقي أساء الاختيار في عثمان هذا . ان عثمان بن أبي نسعة كان يضطغن على عبد الرحمن ولايته ، وكان يحز في نفسه أن يعمل تحت امرته بعد أن كان هو أميراً على الأندلس كلها .

خرافة مونوزا

ثم تزعم الكتب الفرنجية أن عثمان قد أسَر في احدى غاراته في تلك الغزوة ابنة أود دوق أكويتانية، وكانت رائعة الجمال ، فهام بها وتزوجها . وتسمي تلك الكتب ابنة أود أسماء مختلفة : نوميرانسة ، مينين ، لا مباجية (٤) . وكذلك تسمي تلك الكتب عثمان نفسه «مونوسا» أو « مونوزا » ، وتجعله أحياناً من البربر (٥) ؛ قالوا : فلما سكن عثمان الى زوجته ترك الغزو وأصبح ضِلْعه مع صِهْره أود ونذيراً اليه بتحرك الجيوش الإسلامية نحو بلاده . فيقال ان عبد الرحمن الغافقي أرسل الى عثمان من تغلب عليه فقتله (٦) ، وقيل بل قُتِلَ في حديث

---

(١) ابن الاثير ٥ : ٨٢ ، نفح الطيب ١ : ١٤٦، ٢ : ٩ .

(٢) راجع فوق ، ص ١٢٥.

(٣) غزوات العرب ٨٧ .

(٤) راجع غزوات العرب ٨٨ وما بعدها

Munûsa, Los Mozarabes 89, cf. 101, 486. Lévi-Provençal I 60s.
Munûsa y Othman يسميه Larouse dsu XX eme Siécle (vol. 5, p. 671)
(5) Lévi-Provençal I 60,61 .

(٦) غزوات العرب ٨٩ .

آخر . ومع أن الغالب على هذه الرواية أنها موضوعة من أساسها (١) ، فانها تدل على أن عبد الرحمن الغافقي لم يكن غافلاً عن بعث الطلائع قبل أن قام بهجومه الرئيسي :

معركة بلاط الشهداء

على أن الغزوة التي اقترن بها اسم عبد الرحمن الغافقي ثم ملأت أخبارها كتب الفرنجة ولم يخل من ذكرها كتاب من كتب التاريخ عند العرب — وأن كان ذكر المصادر العربية لها كان دائماً اشارة عارضة — فهي معركة بلاط الشهداء أو معركة البلاط .

لم يتّبع عبد الرحمن الغافقي في غزوته هذه خط الزحف الذي كان العرب قد ألِفوه منذ أيام السمح وعنبسة ، والذي كان يسير من برْشلونة الى جيرونة ثم يدور حول الركن الشرقي من سلسلة جبال البرانس ليتجه نحو أربونة ثم الى ما وراءها شرقاً أو غرباً ، لأن الفرنجة كانوا قد حصنوا وادي نهر الرون ، ولكنه شق طريقاً جديداً غربياً : سار في الأغلب الى سَرَقُسْطة ثم عطف شرقاً في شمال نحو تُطيلة فالى بنبلونة ، في أرض نِبارّة ، في مطلع الصيف . وفي بنبلونة أتم عبد الرحمن حشد جيوشه ثم قطع جبال البرانس من طرفها الغربي ماراً بدَرْب (عَقَبَة ، مَخْرِم ، مضيق) رونسفالس متجهاً نحو بوردال (بوردو) .

وحاول أود أن يصد عبد الرحمن ، ولكنه انهزم في المعركة التي وقعت في عنق وادي دوردون ، على مقربة من مصب ذلك النهر مع نهر الغارون في خليج واحد . بعدئذ مال عبد الرحمن الى مدينة بوردو ، عند مصب نهر الغارون ، وأخذها عَنْوة بعد مقاومة يسيرة ثم اندفع بجيشه شمالاً حتى مر بمدينة بواتيه نحو مدينة تور . وقد كانت مدينة تور العاصمة الدينية لبلاد غالية . ولعل اسمها تور Tours لا يزال يحمل شيئاً من معناها الأول ومقامها القديم . ان كلمة

(١) دولة الاسلام في الاندلس ١ : ٨١ — ٨٥ .

« تور » (أو : تورس ، على الأصح) معناها الأبراج ، أبراج القلاع والحصون أو أبراج الكنائس التي تقرع فيها الأجراس .

وبعد الهزيمة التي مُنِيَ بها أود في وادي نهر دوردون لم يجد مَفرّاً من الأستنجاد بخصمه قارله مفضّلاً أن يجتاح الفرنجة أملاكه على أن ينتزعها منه العرب . ولعل الذي أفزع أودَ أن جانباً كبيراً من أهل المدن التي كان العرب قد استقروا فيها حيناً مثل أربونة وقرْقشونة كانوا قد بدأوا يتعاونون مع العرب (١) .

نشوب معركة بلاط الشهداء

لبّى قارله نداء أود (٢) لا حبّاً بأود ولكن طمعاً في الاستيلاء على أراضيه — كما قام الدليل على ذلك فيما بعد باستيلاء قارله على تلك الأراضي فعلاً — وخوفاً من أن يغزوَ العرب بلاده وقد باتوا على مَقْرُبة منها (٣) . واستدعى قارله جموعه من كل صوب : من ضفاف نهر الالبة (٤) وضفاف الطونة والراين ، ثم انحدر من الشمال مسرعاً نحو مدينة تور . وكان العرب قد مروا بمدينة بواتيه ، وهم مندفعون نحو الشمال ، حتى أصبحت طلائعهم على مقربة من مدينة تور نفسها . وحدث الاصطدام الأول بين طلائع العرب وبين الجيش الفرنجي ، وارتدت تلك الطلائع جنوباً راجعة نحو بواتيه حيث أراد العرب أن يصمدوا للجموع الفرنجية التي كانت منحدرة اليهم كالسيل .

مشهد المعركة

يذكر رينو (٥) أن العرب يجعلون مشهد هذه المعركة عند تور بينما الكتّاب الافرنج يجعلونها عند بواتيه ، وقد أخذ ذلك عنهم المشرفون على دائرة المعارف

(1) Reinaud 32.

(٢) راجع فوق ، ص١٢٧–١٢٨ .

(3) Reinaud 42.

(٤) الالبه نهرينبع في تشيكوسلوفاكية ثم يخترق شمالي شرقي المانيه ويصب في بحر الشمال .

(5) Reinaud, 44, 49.

الاسلامية (١) . والذي يبدو فعلاً أن المعركة بدأت عند مدينة تور بانهزام الطلائع العربية ثم كانت الوقعة الفاصلة عند بواتيه ، على نحو عشرين كيلومتر من بواتيه شمالاً في شرق في المكان الذي لا يزال يدعى موسيه — لا — باتاي (٢) على مقربة من بلاط (طريق روماني) كان يصل بين مدينة شاتلرو وبين بواتيه ؛

أما بلاط الشهداء فليس عَلَماً على مكان معروف . ان ياقوت الحموي يذكر (١ : ٧٠٨ — ٧١٠) البلاط وبلاطة وبلاط عوسجة ، ولكنه لا يعرف بلاط الشهداء . والمؤرخون العرب يسمون هذه المعركة أحياناً معركة بلاط الشهداء وأحياناً معركة البلاط (٣) . وقد كتب أحد المسلمين المعاصرين في مجلة « المسلمون » (٤) أنه زار موضعاً بين تور وبواتيه يدعى فوسّيه — له — روا (٥) أو خندق الملك ثم قال انه قد استُكْشِفَ هناك حديثاً في الحفريات بعضُ السيوف العربية . وهو يرى أن عبد الرحمن الغافقي استشهد هنالك .

مجرى المعركة

وكان المَصافّ بين العرب والفرنجة بضعةَ أيام حدثت فيها مناوشات كثيرة لم تكن كِفّة النصر فيها مائلة الى العرب ، بل كانت الهزيمة مُطِلّةً عليهم لأسباب منها أن الجيش الذي كان عبد الرحمن الغافقي يقوده كان قليل العدد ولم يكن عبدالرحمن يطمع في مددمن خلفه ، بينما الفرنجة كانوا جموعاً لا تحصى وكان المدد من خلفهم مُتلاحقاً . وكذلك لم يكن لدى العرب خُطّةٌ منظمة للفتح في بلاد الفرنجة ، بينما كان الفرنجة يدافعون عن ملكهم .

---

(1) Enc. Isl. (new ed.) I 86.

(٢) Moussais-la-Bataille (cf. Lévi-Provençeal I 62.)

(٣) غزوة البلاط (نفح الطيب ٢ : ٩) ، بلاط الشهداء (البيان المغرب ١ : ٥١) ، وابن عبد عبد الحكم لا يعرف ذينك بل يذكر (فتوح مصر ٢١٧) أن عبد الرحمن استشهد في حرب الفرنجة ، الخ .

(٤) المجلد الخامس ، العدد الثالث — ذو القعدة ١٣٧٥ = حزيران (يونيو) ١٩٥٦ ، ص ٧٩ (ص المجلد المتسلسلة ٢٨٧) .

(٥) Fossé-le-Roi ، ولم اعثر على اسم هذا الموضع في ما رأيته من المراجع .

وانتظم الفرنجة مربعات متراصّة وكان العرب فرساناً في الاكثر . وكلما هجم العرب على الفرنجة فازالوا صفاً من صفوفهم نبت مكانه صف جديد آخر ، وهكذا احتمل الفرنجة الهجَمات العربية وكأنهم جدار من حديد أو كتلة من جليد ، كما قال كتابهم (١) . أما العرب فكانوا في كل هجمة أقل عدداً منهم في الهجمة التي سبقتها ، ولم يكن لهم مدد يسد أماكن الذين كانوا يسقطون منهم شهداء .

ولعل عبد الرحمن فكّر في الانسحاب وأراد أن يغطيَ انسحابَه بحركة بارعة : قسم جيشه قسمين وأذن لأحد هذين القسمين بالقُفول بينما بقي هو في القسم الآخر يقيم التحصينات وكأنه مقبل على المعركة الكبرى . وخُدع الفرنجة بذلك وتهيّبوا الهجوم . ويظهر أن عبد الرحمن نفسه سقط شهيداً في أثناء هذه الحركة فاضطر الجنود الذين كانوا قد بَقُوا معه الى الانسحاب كيفما دارت الحال . وأدرك الفرنجة ذلك فكرّوا على العرب وأعملوا فيهم القتل فسقط منهم قتلى كثيرون . ويذكر الكتاب الفرنجة (٢) أن هذه المعركة كانت آخر سبت بين ٢٥ و ٣١ من شهر تشرين الاول من عام ٧٣٢ . غير أن قبول هذا التاريخ يخرج معركة بلاط الشهداء من الزمن الذي شاع عند المؤرخين العرب أنها وقعت فيه : من رمضان من سنة ١١٤ (٣) الى شوال .

نتائج معركة بلاط الشهداء

ومع أن ابن الأثير قد قال عن عبد الرحمن (٥ : ٨٢) : « **فقتل هو ومن**

---

(1) Cf. Hitti, 500.

(2) Reinaud 45, Cf. Lévi-Provençal I 62,

(٣) ان صاحب أخبار مجموعة (ص ٢٤—٢٥) وابن الحكم (فتوح مصر ٢١٦ — ٢١٧) وابن الاثير (٥ : ٢٣٢) لم يذكروا الشهر . ولكن ابن عذارى (البيان المغرب ٢ : ٢٨) وابن خلدون (٤ : ١١٩) والمقري (نفح الطيب ١ : ١٤٦) يجعلون المعركة في رمضان . وفي ابن الاثير (٥ : ٨٢، ٢٣٣) انها كانت في سنة ١١٣ ، وقيل سنة ١١٤ وهو الصحيح . وجعلها ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١٧) وابن عذاري (البيان المغرب ١ : ٥١) في سنة ١١٥ .

معه شهداء » ، فان الأصح أن عدداً كبيراً من المسلمين استشهد في تلك الغزوة (١) وانسحب الناجون نحو أربونة (في غير الطريق الذي جاءوا منه) .

ولم يتتبّع قارلُه العرب فقد خاف أن يكون انسحابهم — مع كل ما مُنُوا به من الخسائر في الأنفس — خدعة لنصب كمين له . ثم رأى أنه قد أمن على بلاده ، آنياً على الأقل ، من غزو عربي جديد . وكذلك كان لقارله أعداء في الشمال فخاف أن ينتهزوا فرصة غيابه ويسقطوا على بعض أراضيه . وعاد قارله مَزْهُوّاً بما حدث واتخذ منذ ذلك الحين لقب مارتل (المِطرقة) ، فأصبح لقبه الذي اشتهر في التاريخ شارل مارتل . ومع ذلك كله فان العرب لم يغادروا جميع ماكان تحت أيديهم في غالية ، بل ظلت لهم أربونة وما حولها (٢) . على أن الذي لا ريب فيه أن غزوة عبد الرحمن الغافقي هذه كانت آخر محاولة جدية قام بها العرب لغزو بلاد الفرنجة .

وأطنب المؤرخون الأفرنج في وصف معركة الشهداء وجعلوها رمزاً دينياً وقومياً لهم ، فقد قال المؤرخ الانكليزي الرصين أدورد غيبون (٣) : « وسَرعان ما انتشرت البشائر في العالم الكاثوليكي ، ثم اخذ الرهبان في ايطالية يجزمون بأن ثلاثمائة وخمسين ألفاً من المسلمين — او ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً — قد رُضِخَتْ رؤوسهم تحت مطرقة شارل مارتل ، ولم يُذْبح من النصارى في معركة تور سوى ألف وخمسمائة فقط » . ثم يأسف غيبون لأن رجال الدين لم يُطوّبوا شارل (لم يجعلوه قِدّيساً) بعد أن أنقذ النصرانية وبعد ان أصبحوا هم أنفسهم مَدينين بالحياة التي يتمتعون بها اليوم لسيفه . وهنالك كتاب مدرسي

(١) راجع مثلا البيان المغرب ٢ : ٢٨ : « استشهد عبد الرحمن ، واصيب عسكره » ، واستشهد مع جماعة من عسكره (١ : ٥١) .
(2) Cf. Reinaud, pp. 46-47, 49-50 ,
(3) Cf. Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire (ed. Methuen & Co., London, 1902), p 17, 18. Hitti, History of the Arabs, 501,
(تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى ، الترجمة العربية «بيروت » ص ٥٩٧ .

فرنسي (١) يقول مؤلفاه : « ... فماذا كانت حال العالم اذن لو أن العرب انتصروا علينا؟ اذن لكنا نحن (يقصد الفرنسيين) مسلمين كالجزائريين والمراكشيين » .

وكثر الكلام على السبب الذي حمل العرب الى ما وراء جبال البرانس ، وقد أكثر الأفرنج القول في أن الذخائر النفيسة التي كانت في كنائس فرنسة كانت السبب الأصيل في ذلك . وبحسبي هنا أن أذكر ما قاله المستشرق الاميركي الدكتور فيليب حتّي (٢) في كتابه «تاريخ العرب» ، قال (٣) : « وكان الذي حدا بالحر (٤) الى هذه المغامرة أمل الاستيلاء على كنوز الأديرة والكنائس في غاليا (فرنسة) ... وقد تقدم عبد الرحمن (٥) فقطع سلسلة البرنة ... ثم أخذ بوردو عنوة وأشعل النار في كنائسها . وبعد أن أحرق الباسيليكا (الكنيسة) القائمة خارج أسوار بواتيه زحف شمالاً حتّى جوار مدينة تور ... وليس من شك في أن الطُرف والكنوز النفيسة التي عرفت فيها كانت من العوامل التي حرّكت الفاتحين » .

أما قصة الكنائس التي تهدمت في العصر الذي نؤرخه ، وفي فرنسة خاصة ، فيجب أن تبنى على الحقائق التالية (٦) :

(أ) أن عدداً من الكنائس والأديرة — وخصوصاً تلك التي كانت مبنية

(1) Histoire de France, cours moyen au certificat d'étude, par H. Guillemain et F. Le Ster, Paris (Les èditions desècoles), 11, rue de Sévres, pp. 80-81.
راجع ذلك في التبشير والاستعمار ، الطبعة الثانية ؛ ص ٧٥ .
(٢) كذلك سماه The International Who's Who (1949), p. p. 397.
والدكتور فيليب حتي كان استاذي في التاريخ (١٩٢٢-١٩٢٤) ، في الدائرة الاستعدادية من الجامعة الاميركية ، وقد شع علينا منه يومذاك كثير من اسلوبه العلمي الصحيح ومن روحه القومي السليم . ولكنه في عام ١٩٢٤ اكتسب الجنسية الاميركية ثم أخذ يكتب في تاريخ العرب والاسلام كما يكتب نفر كثيرون من المستشرقين الاميركيين !
(٣) ص ٥٩٥-٥٩٦ (في الاصل الانكليزي ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٠) .
(٤) الحر بن عبد الرحمن الثقفي . راجع فوق ، ص ١٠٧-١٠٨.
(٥) عبد الرحمن الغافقي .
(٦) راجع Reinaud, وراجع غزوات العرب ٧٢، ٧٦، ٨٠، ١٠٧، ١١٠ .

خارج أسوار المدن ككنيسة مدينة تور مثلاً — كانت في الحقيقة قلاعاً وحصوناً ، وكان الفرنجة يقاتلون العرب من ورائها . فليس بدعاً اذن اذا هدمها العرب في اثناء المعارك .

(ب) كانت قبائل البرابرة الجرمان لا تزال إلى ذلك الحين على الوثنية ، وكان القتال محتدماً بينها وبين خصومها من الفرنجة وسواهم . فكانت تلك القبائل تعيث في غربي أوروبة وتدمر كل شيء بما في ذلك الكنائس .

(ج) كان شارل مارتل نفسه اذا هاجم أراضي خصومه ومنافسيه لا يتحوّب من تهديم الكنائس ، مع أنه كان مسيحياً .

(د) وبما أن المؤرخين الاوروبيين الأولين كانوا قُسُساً ورُهباناً فقد افتروْا على العرب واتهموهم بأنهم كانوا يهدمون الكنائس والأديرة — تأليباً للرأي العامّ المسيحي عليهم . وكانوا أيضاً ينسبون اليهم هدم الكنائس التي كانت قد تهدمت على يد القبائل الوثنية وعلى يد شارل مارتل نفسه .

(هـ) وزعم مؤرخو الفرنجة أن العرب هاجموا ديراً كان فيه خمسمائة راهب فذبحوهم جميعاً . ولعمري ان خمسمائة راهب في دير — والأديرة في كل مكان معاقل وحصون طبيعية — لا يستطيع جيش كبير أن يبلغ اليه . ثم أن ذبح خمسمائة راهب لم يكن ميسوراً في زمن كانت الحرب فيه تعتمد على عدد المقاتلين وعلى قوتهم البدنيةومناعة مراكزهم في الدرجة الاولى .

(١٣) عبد الملك بن قطن للمرة الاولى

لما علم عبيدة بن عبد الرحمن بأخبار بلاط الشهداء وبمقتل عبد الرحمن الغافقي ، ولى على الأندلس عبد الملك بن قَطَنَ بن نُفيل بن عبد الله الفِهْري (١) :

(١) البيان المغرب ٢ : ٢٨ ، راجع جمهرة أنساب العرب (ص ١٦٩) : « عبد الملك بن قطن بن نهشل » . وفي اخبار مجموعة (ص ٢٥) : « عبد الملك بن قطن المحاربي ، محاربه قريش » ولكن يبدو أنه غير عبد الملك بن قطن المحاربي المذكور في فتوح مصر (ص ٢١٨) .

وقد وصل عبد الملك بن قطن الى قرطبة في شهر رمضان من سنة ١١٤ (١) .

كان عبد الملك بن قطن فِهرياً قُرَشياً من حزب أهل المدينة ، ولذلك لم يكن محباً لبني أمية ، وكان قد شهد يوم الحرة (٢) . ويذكر ابن خلدون (٣) أن عبد الملك بن قطن كان ظَلوماً في سيرته جائراً في حكومته .

وغزا عبد الملك بن قطن ، في ولايته الاولى ، أرض البشكنس (١١٥هـ = ٧٣٣م) فأوقع بالبشكنسيين وغنم ثم عاد سالماً (٤) .

عبيد الله بن الحبحاب

في مطلع سنة ١١٥هـ (آذار ٧٣٣) أقرعبيدةُ بن عبد الرحمن عبدَ الملك بن قطن على الأندلس ثم استخلف على افريقية عقبة بن قُدامة التُجيبي وقفل راجعاً الى الشام بغنائم وهدايا كثيرة لِيَفِدَ بها على هشام بن عبد الملك . واستعفى عبيدة هشام بن عبد الملك من ولاية افريقية فأعفاه هشام ثم كتب الى عُبيد الله بن الحَبْحاب — وكان عامله على مصر — يوليه على افريقية (٥) .

كان عبيد الله بن الحبحاب مولىً لبني سَلول ، ولكنه كان رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً ، بارعاً في الفصاحة والخطابة حافظاً لأيام العرب وأشعارهم ووقائعهم ، وكان في أول الأمر كاتباً ، ثم تناهت به الحال الى أن أصبح والياً على مصر ، ولم

(١) البيان المغرب ٢ : ٢٨ ، نفح الطيب ١ : ١٤٦، ٢ : ١١ .
جاء في جذوة المقتبس (ص ٢٦٨) وفي ابن عبد الحكم (ص ٢١٦) وفي ابن خلدون (٣ : ١٤٠) ان عبد الملك بن قطن دخل الاندلس سنة ١١٥ . وفي ابن عذاري ايضاً (٢ : ٢٨) ما يدل على ان والي افريقية ولى عبد الملك بن قطن على الاندلس من غير أن يعلم باستشهاد عبد الرحمن الغافقي ، فدخل عبد الملك بن قطن الاندلس فألفى عبد الرحمن الغافقي قد توفي . وكذلك قال ابن عذاري (٢ : ٢٨) عن ابن قطن : « وقيل دخلها في شوال من سنة ١١٤ » .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٦٩ .

(٣) ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ١ : ١٦ ، ٢ : ١١ .

(٤) ابن الاثير ٥ : ٨٥ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ١ : ١٤٦ ، ٢ : ١١ .

(٥) فتوح مصر ٢١٧ ، راجع ١٤٣ ، ١٨٩ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٨ ، البيان المغرب ١ : ٥١ .

يلبث أن أضيفت اليه افريقية والأندلس والمغرب كله (١) في بضعة أشهر .

واستخلف عبيد الله بن الحبحاب على مصر ابنه القاسم (٢) ثم توجه الى افريقية فوصل اليها في ربيع الآخر من سنة ١١٦ (٣) ، أيار من عام ٧٣٤ .

ولما وصل عبيد الله بن الحبحاب الى افريقية أخرج أخاه المستنير من السجن وولاه تونس : وكذلك بعث ابنه اسماعيل والياً على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى وجعل معه عمر بن عبد الله المرادي .

وعزل عبيد الله بن الحبحاب عبدَ الملك بن قطن عن الأندلس في رمضان من سنة ١١٦ (٤) – تشرين الاول ٧٣٤ – ثم ولىّ عُقْبَةَ بن الحَجّاج عليها في الشهر التالي . وهكذا كانت ولاية عبد الملك بن قطن على الأندلس سنتين في أصح الأقوال (٥) .

(١٤) عقبة بن الحجاج

ويؤخذ مما ذكرته المصادر أن عبيد الله بن الحبحاب لم يعزل عبد الملك بن قطن لخيانة أو لنقمة ، ولكنه أراد أن يسر عقبة بن الحجاج بولاية فاتفق أن اختار عقبة الأندلس فلم يجد ابن الحبحاب بدأً من عزل عبد الملكً بن قطن عنها (٦) .

(١) البيان المغرب ١ : ٥١ .
(٢) في ابن خلدون (٤ : ١٨٨) : أبا القاسم .
(٣) فتوح مصر ٢١٧ ، البيان المغرب ١ : ٥١ . في ابن خلدون (٤ : ١٨٩) قدم افريقية سنة ١١٤
(٤) فتوح مصر ٢١٧ ، ابن الاثير ٥ : ٨٩ ، راجع ٨٦، ٢٣٣ ، البيان المغرب ١ : ٥١ ، ٢ : ٢٩ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩-١٧٩ ؛ نفح الطيب ١ : ١٤٦، ٢ : ١١ . – وقيل قدم سنة ١١٧ (فتوح مصر ٢١٧ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩، ١٨٩ ، نفح الطيب ١ : ١٤٦ ، ٢ : ١١) ؛ وفي (اخبار مجموعة) ص ٢٨ سنة عشرومائة ، وهو خطأ .
(٥) في أخبار مجموعة ص ٢٥ نحو من ستة اشهر . راجع البيان المغرب ٢ : ٣٢ ، وفي ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، ونفح الطيب ١ ٤٦١ : ١ عن الواقدي أن ولاية عبد الملك بن قطن كانت أربع سنوات . ولعل هؤلاء قصدوا بذلك مدة ولايته في المرتين .
(٦) جاء في نفح الطيب ٢ : ١١ أن عبد الملك بن قطن عزل عن الاندلس ذميماً .

كان الحبحاب بن الحارث (١) مولىً في بني سلول فأعتقه رجل من بني سلول اسمه الحجاج (٢) .

ويبدو مما جاء في أخبار مجموعة (ص ٢٥) أن عقبة بن الحجاج بدأ يفد على عبيد الله بن الحبحاب منذ ولاية عبيد الله على مصر . وفي البيان المغرب (١ : ٥٢ – ٥٣ ، ٢ : ٢٩) أن عبيد الله كان يكرم عقبة كثيراً حتّى أنه كان يقدمه على أولاده وكان يقبل رأيه وشفاعته ووساطته في أمور كثيرة . غير أن الغالب في الروايات أن عقبة وفد على عبيد الله بالقيروان (٣) ، فسأله عبيد الله ان يختار مقاطعة يوليّه عليها ، فاختار عقبة الأندلس لأنها دار جهاد وكان هو يحب الجهاد في سبيل الله (٤) .

وكان عقبة حسن السيرة رفيقاً بالناس عادلاً ، وقد قضى ولايته على الأندلس في الجهاد : فتح أربونة وبنبلونة ومقاطعة ألبَة وأسكن فيها جماعات من المسلمين . وأتسعت فتوحه في جيليقية حتّى قال صاحب أخبار مجموعة (٥) : « ولم تبق في جيليقية قرية لم تفتح غير الصخرة » . ومع أنه كان صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو ، فانه كان حسن السيرة في الأسرى : كان اذا أسر أسيراً لم يقتله حتّى يَعْرِضَ عليه الاسلام ويقبّح له عبادة الأصنام . فيقال أنه أسلم على يده بهذا الفعل ألف رجل (٦) . ان هذا النص بالغ الأهمية ، فأنه يدلنا على أن كثيرين ممن كانوا يحاربون مع الأسبان في الأندلس ومع الفرنجة وراء جبال البرانس كانوا لا يزالون على الكفر لم يدخلوا في النصرانية بعد . والا لما جاز لعقبة أن يقتل الأسير حتى يَعْرِضَ عليه الاسلام ويقبّح له عبادة الأصنام !

(١) اخبار مجموعة ٢٥ .
(٢) في اخبار مجموعة ص ٢٥، ٢٦ ، ان الحجاج أعتق الحارث .
(٣) راجع قصة لقاء عقبة بعبيدالله مبسوطة في اخبار مجموعة ٢٥-٢٧ البيان المغرب ١ : ٥٢ -٥٣ .
(٤) اخبار مجموعة ٢٧-٢٨ .
٥) ص ٢٨ ، راجع البيان المغرب ٢ : ٢٩ .
(٦) البيان المغرب ٢ : ٢٩ ، أسفل الصفحة .

وتمكن سلطان عبيد الله بن الحبحاب في افريقية والمغرب فبنى جامع الزيتونة في تونس واتخذ في مدينة تونس نفسها دار صناعة لأنشاء المراكب البحرية (١) . ثم ان عبيد الله بعث حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع غازياً في أرض المغرب ، فانتهى الى السوس الأقصى وقاتل بني مسوفة ثم تخطاهم الى تخوم السودان وأصاب مغانم شتّى من الذهب والفضة وشيئاً كثيراً من السبي ثم عاد الى القيروان (٢) . وفي جمادى الاولى من سنة ١٢٢ (نيسان من عام ٧٣٩) أغزى عبيد الله بن الحبحاب حبيب بن أبي عبدة نفسه الى جزيرة سقلية وبعث معه ابنه عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة . فنازل العرب سرقوسة أعظم مدن تلك الجزيرة وضربوا عليها الجزية ثم أثخنوا في سائر أنحاء البلاد (٣) .

الثورة في المغرب وأثرها في الاندلس

كان عمر بن عبد الله المرادي عاملاً على طنجة وما والاها من المغرب فأساء السيرة واشتط في جمع الضرائب حتّى زعموا أنه أراد أن يأخذ الخمس ممن كان قد أسلم من البربر. ووجهُ الأمر أن الدولة الإسلامية لما اتسعت قصّرت جبايتها الاولى عن حاجاتها فاضطر الولاة الأمويون في كل مكان الى أن يأخذوا من الناس الضرائب القديمة بأسماء جديدة . ولقد كان الحجاج بن يوسف قد اتهم بأنه كان يضع الجزية على المسلمين من غير العرب . ومثل هذا حدث بلا ريب في المغرب وفي كل مكان .

على أن هذه النقمة الاقتصادية على ولاة ابن الحبحاب ، وعلى عمر بن عبد الله المرادي خاصة ، لم تنقلب ثورة الا بعاملين آخرين : أحدهما انتشار الدعوة الخارجية في المغرب وثانيهما غياب معظم الجنود في غزوة سقلية .

(١) البيان المغرب ١ : ٥١ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٩ ، الاستقصا ١ : ٩٤ .
(٢) فتوح مصر ٢١٧ ، خلدون ٤ : ١٨٩ ، البيان المغرب ١ : ٥١ ، الاستقصا ١ : ٩٤-٩٥ .
(٣) البيان المغرب ١ : ٩١ ، ابن خلدون ٤ : ١٨٩ ، الاستقصا ١ : ٩٥ .

لما انهزم الخوارج في المشرق سقط بعضهم الى المغرب ابتعاداً عن مركز الدولة في دمشق ، فانتشرت دعوة الخوارج الصُفْرية (١) والإباضية (٢) هناك ، ولكن لم تلق نجاحاً سياسياً حتى أيام ابن الحبحاب ، اذ استغل الدعاة من الخوارج نقمة البربر فاستمالوهم وثاروا بهم على ولاة ابن الحبحاب .

ميسرة المضغري يقود الثورة

كان (٣) مَيْسرة المَضْغَري المعروف بالخفير (٤) من قبيلة مضغرة ، وهي من البتر ، وكان شيخ قومه ، فلما تقبل هو دعوة الخوارج الصُفْرية قبلها معه جماعة من قومه . ثم انه حملهم على الخروج والثورة وزحف بهم على طنجة وفيها عمر ابن عبد الله المرادي فقتله وولّى عليها عبد الأعلى بن جريج (٥) الافريقي ، وهو رومي من موالي العرب . ثم انحدر ميسرة الى السوس وقتل واليها اسماعيل ابن عبيد الله بن الحبحاب (٦) .

ولما استولى ميسرة على المغرب من طنجة الى السوس ادّعى الخلافة وأوجب على أتباعه أن يخاطبوه بلقب أمير المؤمنين. ثم اضطرم المغرب كله بالفتن ولم يعد بعد ذلك الى طاعة خلفاء المشرق .

عندئذ بعث ابن الحبحاب الى حبيب بن أبي عبدة يأمره بالقفول من سقليّة

(١) اتباع زياد بن الاصفر يقولون ان أصحاب الذنوب كفرة مشركون ولكنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم كما يقول الازارقة (الفرق بين الفرق للبغدادي ٥٤-٥٥ ، ٧٠ ، راجع ١٩ ، ٤٥) .
(٢) أتباع عبد الله بن إباض ، قالوا بان مخالفيهم كفار ، لا مؤمنون ولا مشركون ولكنهم لا يدينون دين الحق . وقد أجازوا شهادة مخالفيهم ، ولكنهم استحلوا أموالهم من الخيل والسلاح « في الحرب » وحرموها من الذهب والفضة يردونها عليهم إذا غنموها منهم (الفرق بين الفرق ٦١-٦٢) .
(٣) راجع فتوح مصر ٢١٧ وما بعدها ، البيان المغرب ١ : ٥٢ وما بعدها ، الاستقصا ١ : ٩٥-٩٨ .
(٤) في فتوح مصر ص ٢١٨ الفقير المدغري . في البيان المغرب ١ : ٥٢ الحقير .
(٥) البيان المغرب ١ : ٥٢ حديج .
(٦) الاستقصا ١ : ٩٧ .

الى المغرب لمقاتلة ميسرة المضغريّ وجموعه . غير أن ابن الحبحاب لم ينتظر قفول حبيب ، بل بعث خالد بن أبي حبيب (١) في جيش كثيف لقتال ميسرة ؛ ثم وصل حبيب فانضم الى خالد ونزل جيشاهما في وادي الشليف على مقربة من مدينة تيهرت (٢) . ولزم حبيب الضفّة الشرقية ، بينما عبر خالد النهر ثم تابع مسيره غرباً حتى لقي ميسرة على مقربة من طنجة وقاتله قتالاً شديداً آثر ميسرة بعده الانسحاب هرباً من هزيمة تامة . إلاّ أن أصحاب ميسرة عدّوا ذلك منه تبديلاً فخذلوه وقتلوه، كما كان الخوارج الأولون قد قتلوا علي بن ابي طالب لمثل ذلك (٣) . ثم ولى الخوارج على أنفسهم خالد بن حُميد الزناتي وعادوا الى قتال خالد بن أبي حبيب ، على وادي الشليف نفسه ، فانهزم المسلمون وقتل خالد بن أبي حبيب ومن معه كلّهم . وقد قتل في هذه الغزوة حُماة العرب و فرسانهم وكُماتهم ، فسميت تلك الغزوة من أجل ذلك « غزوة الأشراف » (٤) ؛

(٠٠) عبد الملك بن قطن للمرة الثانية

بعد غزوة الأشراف انتقض المغرب كله على ابن الحبحاب . وبلغ الخبر بذلك الى الأندلس فثار أهلها ، والبربر منهم خاصة ، على واليهم عقبة بن الحجاج ؛ وتزعّم تلك الثورة عبد الملك بن قطن ، والي الأندلس قبل عقبة ، ثم استولى على الأندلس وأقام نفسه فيها والياً من جديد برضا أهلها (٥) ، وذلك في صفر من سنة ١٢٣ (كانون الثاني ٧٤١) في أصح الأقوال (٦) .

(١) في الاستقصا ١ : ٤٩ : خالد بن حبيب .
(٢) في المغرب الاوسط « الجزائر اليوم » .
(٣) راجع الحوض الشرقي ٨٤ .
(٤) راجع البيان المغرب ١ : ٥١ - ٥٤ ، الاستقصا ١ : ٩٧ - ٩٨ .
(٥) راجع ابن الاثير ٥ : ١١٧ ، ١١٨ ، وابن خلدون ٤ : ١٩٠ .
(٦) البيان المغرب ١ : ٤٥، ٢ : ٣٠ ، أبن الاثير ٥ : ٢٣٣ ، راجع ٩٠ ؛ ابن خلدون ٤ : ١١٩، راجع ١٩٠ ، ٣ : ١٤١ ، نفح الطيب ١ : ١٤٦ ؛ ٢ : ١٢ ؛ الاستقصا ١ : ٩٨ (جمادى الاولى) .

واختلفت الأقوال في مصير عقبة : قال بعضهم ان عبد الملك بن قطن خلعه ثم قتله . وقال آخرون : بل أخرجه من الأندلس (١) . وقيل أيضاً : ان عقبة اعتزل الأمر واستخلف عبد الملك بن قطن بعده (٢) . ثم ان عقبة توفي في صفر من سنة ١٢٣ ، قيل هلك بالأندلس (٣) في سرقسطة (٤) ، وقيل بل في قرقشونة (٥) من بلاد الفرنجة اذ كان غازياً فيها فهلك في بلاط الشهداء (٦) .

ولاية كلثوم بن عياض على افريقية

وزاد الاضطراب في المغرب ، وعظمت جرأة الناس على السلطان ، فخلعوا ابن الحبحاب نفسه (٧) . وبلغ الخبر بذلك الى هشام بن عبد الملك فغضب وكتب الى ابن الحبحاب بالقدوم عليه . فخرج ابن الحبحاب من افريقية في جمادى الاولى من سنة ١٢٣ (نيسان ٧٤١) . ثم ان هشام بن عبد الملك أرسل الى افريقية كُلثوم بن عِياض القُشيري والياً عليها ، بعد أن عقد له على اثني عشر ألفاً من أهل الشام وكتب الى والي كل بلد ، ما بين الشام وبين افريقية ، أن يخرج مع كلثوم بمن عنده من الجند . فسار ولاة مصر وبَرْقة وطرابلس الغرب معه حتى قدم افريقية في رمضان من سنة ١٢٣ (حزيران ٧٤١) (٨) .

وكذلك عهد هشام الى الجيش بأنه اذا حدث بكلثوم بن عياض حدث

(١) البيان المغرب ٢ : ٣٠ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ١ : ١٤٦ : ٢ : ١٢ .
(٢) البيان المغرب ١ : ٥٣ ، ٢ : ٣٠ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩.
(٣) المعجب ١٣ : ابن خلدون ٤ : ١١٩ .
(٤) في ابن خلدون (٤ : ١١٩) : سرقوسة . وسرقوسة في سقلية . ولعل ذلك وهم .
(٥) نفح الطيب ١ : ١٤٦ .
(٦) البيان المغرب ٢ : ٢٩ .
(٧) البيان المغرب ١ : ٥٤؛ الاستقصا ١ : ٩٨ .
(٨) البيان المغرب ١ : ٥٤ . وجاء في اخبار مجموعة ٣٠-٣١ : (وأخرج هشام بن عبد الملك ثعلبة على جند أهل الاردن ، وندب من أجناد الشام من كل جند ستة آلاف ومن أهل قنسرين ثلاثة آلاف فأخرجه من الشام في سبعة وعشرين الفاً ... ثم أقبل الى مصر فأخرج من أهلها ثلاثة آلاف فتم بعثه ثلاثين الفاً سوى من تبعهم من الناس) .

– وكان كلثوم شيخاً كبيراً (١) – ، فالامير بعده ابن أخيه بَلْج بن بِشْر القشيري ، فان أصيب بَلْج فالأمير بعده ثَعْلَبة بن سَلامة الجُذامي (٢) ؛ فسار كلثوم بن عياض وعلى مقدمته ابن أخيه بلج (٣) ، فلما وصل الى افريقية كان قد أصبح معه ثلاثون ألفاً : عشرة آلاف من صُلْب بني أمية وعشرون ألفاً من سائر العرب . وكان بلج على طلائعه في نحو سبعة آلاف فارس (٤) .

وكان كلثوم بن عياض أعظم حلماً من ابن أخيه بلج ، فانه لما وصل الى افريقية نكب عن عاصمتها القيروان (٥) كيلا يصطدم بالذين يستبدون بادارة البلاد فيزيد في عداوتهم لخلفاء المشرق ، وكيلا يثير الذين يقاتلون الخوارج حِفاظاً من عند أنفسهم فينقلبوا هم عليه أيضاً . أما بلج الشابّ فما كاد يصل الى افريقية حتى أخذ يتورّد أهلها بالسَفَهِ ويذكر كلاماً كثيراً يَغيظُهم به ؛ فانقسم جيش أهل الشام – الجيش القادم بقيادة كلثوم بن عياض – وانحاز من كانوا فيه من أهل مصر الى أهل افريقية ، ثم كتب أهل القيروان الى حبيب بن أبي عبدة ، وكان بتلمسان مواقفاً للبربر ، يشكون اليه بلجا وكلثوماً معاً ، ورفع أهل مصر وأهل افريقية سلاحهم في وجه العرب . ولولا حكمةُ كلثوم بن عياض وحلمه لوقع القتال بين الفريقين (٦) :

ولم يكن كلثوم بن عياض قائداً قديراً ، فقد كان سوء رأيه ورأي بلج – من تتبّع البربر الى أواسط المغرب – من أسباب هلاك جيشهما (٧) . واجتمع كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبدة على وادي الشليف ثم تقدما الى وادي سباو

(١) اخبار مجموعة ٣٠ .
(٢) البيان المغرب ١:٥٥ . راجع ٥٦؛٢:٣٢-٣٣ ؛ جذوة المقتبس ١٧٤ ؛ نفح الطيب ٢: ١٣ . او العاملي (جمهرة انساب ٣٩٤) .
(٣) الاستقصا ١:٩٨ .
(٤) اخبار مجموعة ٣٣ .
(٥) فتوح مصر ٢١٩ .
(٦) ابن الاثير ٥:٩٠ ؛ البيان المغرب ١:٥٤-٥٥ .
(٧) البيان المغرب ١:٥٥ .

فتوجه اليهم خالد بن حُميد الزناتي ونشب القتال بين العرب والبربر على نهر سباو وطال . ثم ان العرب انهزموا هزيمة شديدة ، في ذي الحجة من سنة ١٢٣ (مطلع الخريف من عام ٧٤١م) وقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبدة وسليمان بن أبي المهاجر ووجوه العرب . ونجا من سلم من جيش كلثوم بأنفسهم : أفلت أهل الشام مع بلج الى نواحي سبتة ، وانقلب أهل مصر وأهل افريقية معاً الى افريقية (١) .

كان من سوء حظ بلج وأصحابِه أن لجأوا الى نواحي سبتة ، ذلك لأنهم لجأوا الى رقعة ضيقة من الأرض جميع أهلها من البربر أصحابِ خالد الزِناتيّ . وهكذا كان أهل الشام بين خصومهم وفي أرض لا يعرفونها وبيئة لا يألفونها ، فضاق عليهم الأمر وألحّ عليهم الجوع حتى أكلوا دوابّهم . فكتب بلج عند ذلك الى أمير الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري يسأله أن يبعث اليه والى أصحابه المحصورين في سبتة شيئاً من الميرة يَتَقَوّوْنَ به وأن يرسل اليهم بسفن تنقلهم الى الأندلس . وكان قد انهزم الى افريقية بعد معركة وادي سباو عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الذي كان قد تنافر مع بلج بن بشر قبيل تلك المعركة ، فخوّف عبدَ الملك بن قطن عاقبةَ جواز بلج مع أهل الشام الى الأندلس وقال له: « هؤلاء أهل الشام يقولون لك : ابعث لنا مراكبَ نجوز فيها . وهم ان جازوا اليك لم نأمنهم عليك » . فأصغى عبد الملك بن قطن الى قول عبد الرحمن بن حبيب ومطَل بلجاً وأصحابه بالميرة ولم يردّ عليهم في شأن السفن التي طلبوها للجواز فيها الى الأندلس (٢) . فلما شاع خبرُ ضُرّهم عند رجالات العرب في الأندلس أشفقوا عليهم ، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخميّ بمركبين مشحونين ميرة أمسكت أرماقهم . فلما عرف عبد الملك بذلك ضرب زياداً سبعمائة سوط واتهمه بعد ذلك بتضريب الجند (باثارتهم) عليه فسمل عينيه ثم ضرب عنقه

(١) البيان المغرب ١:٥٥ ؛ الاستقصا ١:٩٩ . راجع ابن الاثير ٥:١١٧؛ ٢٣٣ . ثم راجع تفاصيل المعركة في اخبار مجموعة ؛ ص ٣٢-٣٥ ؛ فتوح مصر ٢١٨-: ٢٢٠ .
(٢) البيان المغرب ١:٥٦؛٢:٣٠ .

وصلبه وصلب عن يمينه كلباً (١) .

دخول بلج الى الاندلس

وشجع انتصار البربر على العرب في المغرب اخوانهم في الأندلس فتفطّنوا لما كانوا عنه غافلين من قبل من الخلاف على العرب ومزاحمتهم في سلطانهم ، فاستفحل أمرهم بالأندلس وكثر ايقاعهم بجنود ابن قطن ثم تغلبوا على الذين كانوا يسكنون منهم في جيليقية وغيرها فقتلوهم أو طردوهم (٢) .

فخاف عبد الملك بن قطن أن يلقى هو والعربُ في الأندلس من البربر ما لقيه كلثوم بن عياض في المغرب . ثم إن عبد الملك بن قطن علم أن البربر قد عزموا على أن يَقْصِدوه الى قرطبة ، فلم يجد أجدى عليه في تلك الحال من أن يستظهر بأصحاب بلج بن بشر على الرغم من تخوّفه منهم ، فكتب الى بلج بذلك ولكنه شرط عليه أن يمكث هو وأصحابه في الأندلس سنة واحدة ثم يخرجوا عنها . فرضي أصحاب بشر بذلك على أن يعيدهم عبد الملك بن قطن ، اذا انتهى الأجل المضروب ، الى شواطئ من افريقية ليس للبربر الخوارج سلطة عليها . فتراضى الجميع على ذلك . ثم ان عبد الملك بن قطن أخذ رهائن من جنود بلج ليستوثق من خروجهم في الوقت المتفق عليه . وكذلك رأى ، زيادةً في الاستيثاق ، أن يؤمّر عليهم ولديه أمية وقطنا (٣) .

وكان دخول بلج بأصحابه الى الأندلس في ذى القعدة من سنة ١٢٣ (٤) ، في مطلع الخريف من عام ٧٤١ ، وكان مع بلج عشرة آلاف من أهل الشام. وأنزل عبد الملك بن قطن أصحاب بلج بجزيرة أم حكيم ، وهي المعروفة بالخضراء (٥) ، وكانوا جياعاً عراة فآواهم أهل الأندلس وكَسَوْهم على أقدار أنفسهم ، فرب

---

(١) الاستقصا ١ : ١٠٠ .

(٢) البيان المغرب ٢ : ٣٠ ؛ الاستقصا ١ : ١٠٠ ؛ راجع تفصيل القتال في اخبار مجموعة ٣٨.

(٣) البيان المغرب ٢ : ٣١ ؛ راجع ابن الاثير ٥ : ١٧٥ ؛ ابن خلدون ٤ : ١٨٩ .

(٤) البيان المغرب ٢ : ٣١ .

(٥) البيان المغرب ٢ : ٣٢ ، راجع الروض المعطار ٧٣.

رجل من أهل الأندلس رأيناه يكسو مائة من أهل الشام ، ورب رجل كسا عشْرة وآخر كسا واحداً فقط (١) .

وكان معظم البربر في غربيّ الأندلس وشماليّها . فسار عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر أولاً إلى قتال البربر القاطنين في شذونة ، وكان المترئس عليهم رجلاً من زناتة . وكانت الوقعة بين جيشي عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر وبين بربر شذونة على وادي لكّه في الأغلب ، في مطلع سنة ١٢٤ للهجرة (أواخر عام ٧٤١م) . وبعد هزيمة البربر في منطقة شذونة عاد عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر شمالاً الى قرطبة ونازلوا بربرها وهزموهم أيضاً . بعدئذ سار بلج مع عبد الملك بن قطن الى طليطلة ، وقد اجتمع حولها معظم البربر يحاصرونها ويشددون الحصار عليها . فالتقى العرب والبربر على وادي سليط ، أحد روافد نهر تاجه ، فانهزم البربر وقتل منهم ألوف كثيرة (٢) . ثم ان العرب تتبّعوا البربر في الأندلس حتى لَحِقَتْ بقايا البربر بالثغور (بأطراف البلاد الشمالية) وخَفَوْا عن العيون (٣) .

حنظلة بن صفوان يلي المغرب

في هذه الأثناء كانت أخبار الأحداث التي جرت في المغرب والأندلس قد بلغت الى هشام بن عبد الملك ، كما كان قد نجا الى الشام نفر من جند كلثوم بن عياض يحملون أخبار الهزيمة . فكتب هشام الى والي مصر حَنْظَلَة بن صَفْوان — وكان يليها منذ سنة ١١٩هـ (٧٣٧م) — يوليه على افريقية والمغرب. وخرج حنظلة من مصر في ثلاثين ألفاً فوصل الى القيروان في سنة ١٢٣ (٤) للهجرة. ثم أمده هشام بعشرين ألفاً . ولم يلبث حنظلة الا يسيراً حتى ثار عليه الخوارج الصفرية بقيادة زعيم لهم أسمه عكّاشة .

---

(١) البيان المغرب ٢ : ٣٠-٣١ ، اخبار مجموعة ٣٩ .

(٢) البيان المغرب ٢ : ٣١ ، راجع ابن الأثير ٥ : ١١٧ .

(٣) الاستقصا ١ : ١٠٠ .

(٤) في فتوح مصر (ص ٢٢١): سنة ١٢٤ (٧٤٢ م) .

كان عكاشة بن أيوب الفزاري (١) وعبد الواحد بن يزيد الهوّاري معسكرَيْنِ على نهر الزاب في أتباعهما من خوارج البربر . فلما علما بمقدم حنظلة سارا اليه : سلك عكاشه طريقاً جنوبية وأخذ عبد الواحد في طريق الجبال من الشمال . وكان من توفيق حنظلة أن سار أولاً الى لقاء عكاشة عند القرن في ظاهر القيروان (٢) وهزمه ثم أسره وضرب عنقه . بعدئذ اتجه نحو عبد الواحد فلقيه عند الأصنام (٣) وكانت الحرب بينهما شديدة وسجالاً حتى خرّ عبد الواحد صريعاً وانهزم جنده ، وذلك في عقب ١٢٤هـ (٤) ، في خريف ٧٤٢م . وكتب حنظلة بخبر هذا النصر إلى هشام ، وهشام يومئذ مريض مرض الموت .

(١٥) ولاية بلج على الاندلس

وتم التغلب على البربر في الأندلس فأقطع عبد الملك بن قطن بلجاً وأصحابه أرضاً في نواحي قرطبة ليسكنوها منفردين ريثما يحل موعد مغادرتهم للاندلس ؛ وقد عُرِفَ أصحاب بلج في الأندلس باسم **الشاميين** تمييزاً لهم من العرب الذين كانوا قد جاءوا مع طارق بن زياد وموسى بن نصير والذين كانوا يعرفون باسم **البلديين** لتبلّدهم (طول مكثهم في الأندلس) .

فلما حال الحول جاء عبد الملك بن قطن يقتضي بلجا وأصحابه ما اتفقوا عليه ، وقال لهم : « اخرجوا على ما شورطتم عليه» (٥) . وكان أصحاب بلج قد قَوُوا واشتدت شوكتهم وثابت همتهم وبَطِروا، فتعللوا عليه وذكّروه

(١) فتوح مصر ٢١٩ ، ٢٢٢ ، راجع ٢٢١ .
(٢) الاستقصا ١ : ١٠١ .
(٣) مكان على نحو مرحلة من مدينة القيروان (فتوح مصر ٢٢٢) .
(٤) راجع في ذلك كله فتوح مصر ٢٢١ وما يليها ، أخبار مجموعة ٣٦-٣٧ ، البيان المغرب ١ : ٥٨-٥٩ .
(٥) البيان المغرب ١ : ٥٦ ، ٢ : ٣١ ، ابن الأثير ٥ : ١١٧ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، الاستقصا ١ : ١٠١ .

صنيعه بهم أيام انحصارهم بسبتة وقتلَه الرجلَ الذي أغاثهم بالميرة . وألح عبد الملك بن قطن علي بلج واستنجزه وعده ، فقال له بلج : « احملنا اذن الى ساحل إلبيرة أو تدمير » . فقال له عبد الملك : « ليست لنا مراكب الا بالجزيرة (الخضراء ، في جنوبي الأندلس) » . فقال له بلج : « إنما تريد أن تردّنا الى البربر ليقتلونا في بلادهم » (١)، ورفض الخروج. وتردد القول بين عبد الملك وبلج ، فوثب أصحاب بلج على ابن قطن فخلعوه وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر . ودخل بلج قصر قرطبة عشية يوم الأربعاء في صدر ذى القعدة من سنة ١٢٤ (اب ٧٤٢) واستولى على الأمارة (٢) . وكان لولاية بلج على الأندلس سَنَدٌ من تسمية هشام بن عبد الملك له قائداً لجيش كلثوم بن عياض اذا هلَكَ كلثوم (٣) .

اعتزال عبد الملك بن قطن ومقتله

لم يرض عبد الملك بن قطن عن تغلّب بلج بن بشر فحاربه طويلاً — قيل في اثني عَشْرَةَ وَقْعةً — ثم أدرك ضعفه فترك القتال واعتزل في بيته في قرطبة (٤)، وكان بلج ، وقت جوازه من سبتة ، قد أعطى ابن قطن رهائن فجعلهم ابن قطن في جزيرة أم حكيم ، وهي جزيرة بلا ماء ، فمات منهم رجل من بني غسّان من أهل دمشق (٥) . وجاء أصحاب بلج اليه وسألوه أن يُعطيَهم عبدَ الملك بن قطن ليقتلوه بالرجل الغساني . فتوقف بلج في ذلك مدة ولم يرض أن يسلمه اليهم . حينئذ ألحّ عليه جنده في المسألة وانضم اليهم اليمانية ، ثم قالوا له جميعاً : « ان أنت لم تدفع الينا عبد الملك بن قطن فلن نطيعك بعدُ أبداً » . ثم

(١) أخبار مجموعة ٤٠-٤١ ، البيان المغرب ٢ : ٣١ ، راجع ابن الأثير ٥ : ١١٧ .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٣١ ، الاستقصا ١ : ١٠١ (سنة ١٢٣) . Lé'vi - P. 1 46
(٣) راجع فوق ، ص ١٤١-١٤٢ ، ثم راجع جذوة المقتبس ١٧٠ .
(٤) البيان المغرب ١ : ٥٦ ، ٢ : ٣٢ .
(٥) البيان المغرب ٢ : ٣١ .

اتهموه بالعصبية لمُضَر (١) .

فلما خاف بلج من تفرق الكلمة أمر بعبد الملك بن قطن فأخرج اليهم ، وهو شيخ هرم في التسعين من عمره (٢) كفَرْخ نَعامة . فلما رأى أصحاب بلج عبدَ الملك بن قطن ثاروا اليه وجعلوا ينادونه ويقولون : « أفلتَّ من سيوفنا يوم الحَرَّة (٣) فطلبتنا بثأرنا في أكل الكلاب والجلود ثم أردتَّ اخراجنا الى القتل (٤). ثم انهم قتلوه وصلبوه، وصلبوا خنزيراً عن يمينه وكلباً عن شماله (٥).

الثأر لابن قطن ومصرع بلج

ولما قُتل عبد الملك بن قطن هرب ابناه أمية وقطن من قرطبة ، فسار أحدهما الى ماردة والآخر الى نواحي سرَقُسْطة وجعلا يحشدان الجيوش انتقاماً لأبيهما . وقد انضم اليهما عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري – وكان من خصوم بلج نازعه يوم قدم بلج على طلائع كلثوم بن عياض الى المغرب كما كان يطمع في ولاية الأندلس مكانه – . وكذلك انضم الى ابني قطن عبد الرحمن بن علقمة اللخمي والي أربونة ، فبلغ الجيش الذي جمعاه في شمالي الأندلس مائة ألف (٦) . ثم انضم اليهما جموع أُخَرُ من البربر الذين كانوا

---

(١) أخبار مجموعة ٤١ .
(٢) راجع اخبار مجموعة ٤٢ ، ابن الأثير ٥ : ٢٣٣ ، نفح الطيب ٢ : ١١ . في مكان آخر من نفح الطيب (١ : ١٤٦) : في السبعين من عمره .
(٣) شهد عبدالملك بن قطن وقعة الحرة التي قادها مسلم بن عقبة المري ثم فتح بعدها المدينة وأباحها ثلاثة ايام ، في ايام يزيد بن معاوية .
(٤) إشارة الى الزمن الذي كانوا فيه محصورين في سبتة ولم يشأ ان يسمح لهم بالجواز الى الأندلس او ان يرسل اليهم مؤونة .
(٥) كان مقتل عبد الملك بن قطن في أوائل ذي القعدة ابن الأثير ٥ : ١١٧ ، من سنة ١٢٤ هـ (راجع أخبار مجموعة ٣٨ ، ثم قارن ١:٥٦ و٢:٣٢-٣٣ من البيان المغرب بصفحة ٢ : ٣١) . أما ابن خلدون (٤ : ١١٩ ، ١٨٩) فمضطرب في تعيين السنة . أوائل العقدة من سنة ١٢٤ = أيلول ٧٤٢ .
(٦) اخبار مجموعة ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ابن الأثير ٥ : ١١٤ ، ٢٣٣ .

يحقدون على بلج لإيقاعه بهم لما استنجد به عليهم عبد الملك بن قطن ، كما انضم اليهما أيضاً جماعة من الفِهْريين ممن كانوا مع بلج نفسه ثم نقموا على بلج غدرَه بعبد الملك بن قطن وهو فهري مثلهم (١) .

وزحف ابنا قطن على قرطبة طالبَيْن بثأر أبيهما ، فخرج اليهما بلج في أقل من عشرين ألفاً . ثم اقتتل الفريقان قتالاً شديداً في مكان شمال قرطبة يدعى أقوه بُرطورا (٢) ، في شوال(*) من سنة ١٢٤ (آب ٧٤٢). وقد انتصر بلج على ابني قطن وامتلأت أيدي جنده بالغنائم . الا أن بلجاً نفسه أصيب في المعركة ، قيل أن عبد الرحمن بن علقمة فوّق اليهم سهماً فأصاب منه مقتلاً . ثم مات بلج بعد بضعة أيام (٣) . وكانت ولاية بلج على الأندلس عاماً أو نحو ذلك (٤) .

(١٦) ثعلبة بن سلامة الجذامي

بعد مَهْلِكِ بلجٍ غاب ثَعْلَبة بن سَلامة (٥) الجُذامي (٦) على امارة

---

(١) ابن خلدون ٤ : ١١٩ .
(٢) أخبار مجموعة ٤٣ ، Alcàntara 243 .
(*) كذا ، بالاستناد الى البيان المغرب (٢:٣٢) ؛ ولكن ذلك يجعل وفاة بلج قبل مقتل عبدالملك ابن قطن (راجع الصفحة السابقة) وهذا لا يصح . ثم ليس هنالك مجال لتقديم دخول بلج الى الاندلس ولا لتأخير مقتله لأن التاريخين المتعلقين بذلك يكاد يقع عليهما الاجماع . ثم ان المدة يجب أن تكون بين الحادثتين سنة ، مما تذكره معظم المصادر. فالمخرج الوحيد إذن أن نقدم مقتل عبد الملك بن قطن ونعتمد قول صاحب اخبار مجموعة (ص ٣٩ ، السطران الاول والثاني) وفيهما أن بلجا كان يجب أن يغادر الاندلس مع أصحابه بعد التغلب على البربر من غير تقييد بمدة . وهذا يحملنا على اغفال رواية ابن عذارى (البيان المغرب ٢:٣٠) المتعلقة بطلب عبد الملك بن قطن من بلج واصحابه لدخول الاندلس : « فكاتبهم وشرط عليهم مقام سنة بالاندلس ثم يخرجون عنها » .
(٣) البيان المغرب ٢ : ٣٢ ، راجع ١ : ٥٦ ، ابن الأثير ٥ : ١٢١-١٢٢ ، ٢٣٣ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ١ : ١٤٦ .
(٤) البيان المغرب ٢ : ٣٢ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩ .
(٥) سلمة (أخبار مجموعة ٤٤) .
(٦) راجع نسبه في جمهرة أنساب العرب ٣٩٤ . ويقال « العاملي » ايضاً (جمهرة أنساب العرب ٣٩٤ ، أعمال الاعلام ٧) .

الأندلس ، بسند من عهد هشام بن عبد الملك لكلثوم بن عياض (١) وبالاتفاق مع أهل الشام، وذلك في شوال(**) من سنة١٢٤ (آب٧٤٢). عندئذ انحاز عنه الفهريون أنصار عبد الملك بن قطن ولم يطيعوه ، كما انحاز عنه أهلد البلد أو البلديون من العرب والبربر (٢) .

ضبط ثعلبة الأندلس في القسم الاول من ولايته وحكمها بالعدل فدانت له ، ثم مالت به عصبيته اليمنية ففسد أمره (٣) وشيكاً . عندئذ ثار البربر في مدينة ماردة فغزاهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر نحو ألف رجل (٤) . ثم أن أهلَ الأندلس الاقدمين (أهلَ البلد ، البلديين) من العرب والبربر سَمَوْا بعد تلك الوقعة لطلب الثأر فساروا اليه من كل صوب وحصروه في مدينة ماردة نفسها . فكتب ثعلبة الى خليفته بقرطبة أن يسرع اليه ببقية أصحابه لنجدته . وقَوِيَ أمر المحاصرين لثعلبة وكثر أتباعهم حتى أصبحوا لا يشكون في الظفر فامتلأوا بذلك عُجْباً وأشَرا . ثم حل عيد الأضحى (١٠ من ذى الحجة ١٢٤= ١٤ تشرين الاول ٧٤٢) فتشاغلوا بأمره ، فأبصر ثعلبة منهم غِرة فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون فهزمهم هزيمة قبيحة وأفشى فيهم القتل وأسر منهم ألف رجل (٥) وسبى ذراريهم وعيالهم . ولم يكن الذين وَلُوا الأندلس قبل ثعلبة يتعرضون للذرية بالسبي (٦) .

وأقبل ثعلبة من ماردة الى قرطبة يحمل من الأسرى والسبي عشرة آلاف أو يزيدون من عرب البلد والبربر حتى نزل في المسارة بظاهر قرطبة وجعل يبيع السبي في النداء ويَعْبَثُ ويَبْطَر : فكان يبيع الشيوخ والاشراف ممن يَنْقُص لا ممن يزيد . وكان في الأسرى اثنان : علي بن الحصين (٧) والحارث

(١) راجع فوق، ص١٤١-١٤٢.

(**) راجع الحاشية (*) على الصفحة ١٤٩ .

(٢) أخبار مجموعة ٤٤ . راجع ابن خلدون ٤ : ١١٩ ، نفح الطيب ١ : ١٤٦، ٢ : ١٣ .

(٣) البيان المغرب ٢ : ٣٣ ، راجع ١ : ٥٦ ؛ ابن خلدون ٤ : ١١٩ ؛ نفح الطيب ١ : ١٤٦، ٢ : ٣ .

(٤) و(٥) يظهر على سرد معارك ثعلبة شيء من التناقض او التداخل .

(٦) البيان المغرب ٢ : ٣٣-٣٤ .

(٧) في اخبار مجموعة (ص ٤٥) : ابو الحسن رجل كان بالاندلس .

بن أسد أحد بني جهينة ـ وهما من أهل المدينة ـ فابتدأ المنادي عليهما بشعرة دنانير ثم لم يزل ينادي : « من ينقص ؟ » حتى باع أحدَهما بعَتود (١) والآخرَ بكلب (٢) .

واستمر ثعلبةُ مدة على هذه الحال من العَبْث والبغي. وكان قد بقي لديه بقية من أسرى فأبرزهم للقتل في يوم جمعة من شهر رجب من سنة ١٢٥ (أيار٧٤٣) :

الاضطراب في المشرق

في هذه الاثناء كانت الخلافة الأموية قد مالت الى الضعف فقويت الدعوة العباسية واضطرب الأمر في المشرق وقل اهتمام الامويين بالأندلس البعيدة لمّا امتلأت أيديهم بالمشاكل التي كانت في خراسان وفي الشام نفسها أيضاً . وفي ربيع الثاني من سنة ١٢٥ (شباط ٧٤٣) توفي هشام بن عبد الملك بعلة الذُبَحة (٣) فخلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان من فتيان بني أمية وظرفائهم منهمكاً في اللهو والشراب ، وكان شاعراً محسناً . فلما أفضت اليه الخلافة لم يزدد الا انهماكاً في الملذات واستهتاراً في المعاصي ، وضم الى ذلك ما ارتكبه من إغضاب أكابر أهله والاساءة اليهم فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته وقتلوه (٤) في رجب من سنة ١٢٦ (نيسان ٧٤٤) .

(١٧) أبو الخطّار حسام بن ضرار الكلبي

وكان أهل الأندلس البلديون والشاميون قد أيِسوا من الاطمئنان في حكم ثعلبة فكتبوا الى والي افريقية حنظلة بن صفوان يسألونه أن يرسل اليهم والياً ، فأرسل اليهم أبا الخطّار حُسام بن ضِرار الكلبي (٥) . وأتفق أن وصل أبو الخطار في الوقت الذي كان ثعلبة يريد فيه أن يقتل الأسرى ، فأمر هو

(١) الحولي (الذي مر عليه حول : عام) من اولاد الماعز .

(٢) البيان المغرب ٢ : ٣٤ ، اخبار مجموعة ٤٥-٤٦ .

(٣) البيان المغرب ١ : ٥٩ .

(٤) الفخري ٩٧ .

(٥) الحسام بن ضرار . . . (راجع نسبه في جمهرة أنساب العرب ٤٢٦-٤٢٧).

باطلاقهم فسمّي عسكره عسكر العافية (١) .

وأدرك أبو الخطار سوء السياسة التي سار بها ثعلبة وجماعة من أصحابه الشاميين فأنزلهم في سفينة أبحرت بهم الى افريقية . ثم ان ثعلبة قفل الى المشرق ولَحِقَ بمروان بن محمد (٢) آخر خلفاء بني أمية في دمشق ، بعد ولاية له على الأندلس دامت عشرة أشهر في أصح الأقوال (٣) .

عبد الرحمن بن حبيب

كان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع قد جاز مع بلج ابن بشر من المغرب الى الأندلس (٤) . فلما اضطربت الأحوال في الأندلس في أيام ثعلبة طَمِحَ عبد الرحمن بن حبيب في أن يتغلب عليها ويَلِيَها وتألّف الشاميين في سبيل ذلك . فلما جاء أبو الخطار أيس عبد الرحمن من ولاية الأندلس . ولم يغفل أبو الخطار عن طموح عبد الرحمن وعما قد يجر من النزاع في الأندلس فأخرجه مع جماعة من أهل الشام كانوا يشايعونه . وغادر عبد الرحمن الأندلس ، في ربيع الاول من سنة ١٢٦ في الأغلب ، ووصل الى تونس في الشهر التالي : في جمادى الاولى من سنة ١٢٦ (٥) ، آذار أو نيسان من عام ٧٤٤ ؛

تفريق الشاميين في الاندلس

رأى أبو الخطار أن أهل الشام يسكنون كلهم في قرطبة وما جاورها وأنهم كثروا « عنده ولم تحملهم قرطبة » (ابن خلدون ٤ : ١١٩) . فاذا نحن صرفنا النظر عن أن ازدحام هؤلاء في منطقة واحدة يثقل الحياة الاقتصادية في تلك

---

(١) البيان المغرب ٢ : ٣٤ ، اخبار مجموعة ٤٥-٤٦ .
(٢) ابن خلدون ٤ : ١٢٠ ، نفح الطيب ١ : ١٤٧ ، جذوة المقتبس ١٧٤ .
(٣) البيان المغرب ٢ : ٣٣ . في ابن خلدون (٤ : ١١٩) ، ونقل ذلك عنه المقري (نفح الطيب ١ : ١٤٦) : ولي سنين أظهر فيها العدل ، ودانت له الاندلس عشرة أشهر . وفي أعمال الاعلام (ص ٧) : « ثم تولى ثعلبة ... خمسة اشهر » .
(٤) راجع فوق ، ص ١١٤ او ما يليها.
(٥) في الاستقصا (١ : ١٠٥) : سنة ١٢٦ ، في أيام يزيد الفاسق أي يزيد بن الوليد (رجب الى ذي الحجة ١٢٦) . وفي البيان المغرب (١ : ٦٠) : سنة ١٢٧ .

المنطقة ، فان وجودهم على مقربة من دار الحكم ينطوي على تهديد مباشر لأبي الخطار ، عاجلاً أو آجلاً . من أجل ذلك فرّقهم أبو الخطار في الأندلس ، قيل بنصيحة أرطباش بن غيطشة (١) ، على الوجه التالي (٢) :

أ) أنزل أهل دمشق في إلبيرة (مقاطعة غَرناطة) — لشبه البيرة بدمشق — وسماها « دمشق » .
ب) أنزل أهل حمص في اشبيلية — لشبه مقاطعة اشبيلية بحمص — وسمّاها « حمص » ؛
ج) أنزل أهل قِنّسرين في مقاطعة جَيّان وسماها قنّسرين .
د) أنزل أهل الأُردن في مقاطعة ريّة (في أُرْشُذونة ومالِقة) وسماها « الأرْدُنّ » ؛
هـ) أنزل أهل فِلَسْطين في شَذونة (وهي مقاطعة شَريش) وسماها « فلسطين » ؛
و) أنزل أهل مصر ، وكانوا كثاراً ، في مكانين : في مقاطعة باجة من جَنوبيّ غربيّ الأندلس ، وفي مقاطعة تُدْمير من جنوبي شرقي الأندلس ؛

وأقطع أبو الخطار أهل الشام ، في الأماكن التي أنزلهم فيها ، أراضيَ مما كان يَمْلِكُ عجم الأندلس (الاسبان الذين لم يعتنقوا الاسلام ولا تعلموا العربية) ثم أعطاهم من أنعام هؤلاء العجم ما يستطيعون أن يعيشوا به (٣) ؛ وهكذا يكون أبو الخطار قد أنزل أهل الشام في أجناد (إقطاعات عسكرية) ، ربما باقتراح من أرطباش أيضاً ، ثم أوجب عليهم أن يستجيبوا له كلما احتاج اليهم فدعاهم (إلى دفاعٍ أو خوضِ معركة) . وقد كان ذلك نظاماً معروفاً في الدولة البيزنطية ، وعند الجرمان في الأغلب ، كما كان معروفاً في الشام (سورية) بالاسم على الأقل منذ العهد البيزنطي . وها هو ينتقل الآن الى الأندلس (٤) .

---

(١) أرطباس بن غيطشة (نفح الطيب ١ : ١٦٨) ، Ardabast, Ardabasto
(٢) البيان المغرب ٢ : ٣٣ ، ابن خلدون ٤ : ١١٩-١٢٠ .
(٣) راجع البيان المغرب ٢ : ٣٣ ، راجع Los Mozàrabes 92 يزعم ان المؤرخين العرب ما ذكروا ذلك ثم يعده خرقاً للمعاهدة التي كانت بين عبد العزيز وتدمير (راجع فوق ، ص ٩٠-٩١) .
(4) Lévi-Provençal I 47-48

ج – دور العصبيات

كان أبو الخطار من أول أمره « أعرابياً » عصبياً مفرطاً في عصبيته . ومع أنه اتبع ، لما وَلِيَ الأندلس ، سياسة جميلة وسار سيرة عادلة حكيمة في طبقات السكان كلها ، فانه سَرْعان ما جانَبَ هذا الطريقَ السويّ ورَجَعَ الى طبيعته الاولى في التعصب لقومه اليمانية على القيسية ثم أفرط في ذلك حتى نفرت منه القلوب واجتمع عليه الخصوم (١) .

الصميل بن حاتم

لم تخف نية أبي الخطار في تفريق أهل الشام في الأندلس على الصُميل بن حاتم قائد جند قنسرين ، فلم يشأ أن ينتقل بقومه من قرطبة الى جيان وان كانت جيان لا تبعد عن قرطبة الا نحو مائة كيلومتر .

والصميل هذا هو الصُميل بن حاتِم بن شَمِرِ بن ذي الجَوْشَن الكِلابي القيسي من أهل الكوفة (٢) . وجَدّه شَمِرُ هو قاتل الحسين بن علي يوم كربلاء . فلما تمكن المختار بن عبيد الله الثقفي (٣) من شمر قتله وهدم داره ، فخرج أولاده عن الكوفة وارتحلوا الى الجزيرة ، في شمالي العراق ، ثم انحدروا الى قنسرين . فلما أنفذ هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض الى المغرب كان الصميل في جيشه ، ثم انه كان على طوالع بلج الذين كانوا على مقدمة أهل الشام لما جاز بلج بهم الى الأندلس . ولقد استطاع الصميل بشجاعته وسخائه أن يرأس قومه في الأندلس (٤) . ومع أن الصميل كان أمياً لا يخطّ (٥) ولا يقرأ الخط ، فانه كان من الدهاة والحلماء الذين يحسنون الصبر على الاساءة

(١) ابن خلدون ٢ : ١٢٠ ، نفح الطيب ١ : ١٤٧ .
(٢) راجع نسب الصميل في جمهرة أنساب العرب ٢٧٠ .
(٣) راجع الحوض الشرقي ٩٧ وما بعدها .
(٤) أخبار مجموعة ٥٦ ، البيان المغرب ٢ : ٣٤ ، نفح الطيب ١ : ١٤٨ ، ٢ : ١٧ .
(٥) أخبار مجموعة ٦٨-٦٩ .

وانتهاز الفرصة للانتقام .

أوجس أبو الخطار خِيفة من الصميل وأراد أن يبعده عن قرطبة بكل سبيل ، وظن أنه اذا حمل أناساً على أن يسيئوا الى الصميل فان الصميل يؤثر حينئذ أن يغادر قرطبة وينأى عن أبي الخطار حفاظاً على كرامته . ولكن أبا الخطار أخطأ التقدير في الصميل . وفي يوم من الأيام دخل الصميل على أبي الخطار في قصر قرطبة ، وحول أبي الخطار الجند ، فأغرى ابو الخطار به نفراً من جنده فشتموه ولكزوه . وقَنَّعَه (١) أحد الجنود فمالت عِمامته . فخرج الصميل على حاله تلك مُغْضَباً ، فأراد أحد الحجّاب أن يُعَرِّضَ به فقال له : « أقِمْ عِمامتك ، يا أبا الجوشن ! » فقال له الصميل : إن كان لي قوم فسيقيمونها » (٢) .

بدء العصبية

العصبية هنا هي النزاع في عصر الولاة على الولاية بين القيسيين واليمانية (بين قيس واليمن) ، بين الذين ينتمون الى عرب الشمال والذين ينتمون الى عرب الجنوب . ولقد ثارت هذه العصبية منذ أيام أبي الخطار إثْرَ الحادثة التي جرت للصميل في حضرة أبي الخطار .

وبعث الصميل الى خِيار قومه فجاءوه ، فشكا اليهم ما لقي على يد أبي الخطار ، فقالوا له : نحن تَبَعٌ لك والرأيُ رأيُك ! غير أن الصميل لم يكن قادراً على أن ينال بقومه وحدَهم من أبي الخطار منالاً ، ذلك لأن قومه القيسية كانوا قليلي العدد في الأندلس ، بينما اليمنية — قوم أبي الخطار — كانوا كثيرين جداً . فقال الصميل لقومه : أريد أن أدعوَ لَخْماً وجُذاماً فنُدْخل رجلاً منهم (معنا) نُقدّمه (للولاية) يكون له الاسمُ ولنا الرَّسْم (٣) . ولم يكن اليمانية على وِفاق فيما بينهم فاستطاع الصميل أن يستميل اليه منهم بني

(١) ضربه بالسوط على رأسه .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٣٤ ، ابن خلدون ٤ : ١٢٠ ، نفح الطيب ١ : ١٤٧ .
(٣) راجع اخبار مجموعة ٥٧ ، البيان المغرب ١ : ٦٢ .

لخم وبني جذام . ثم كتب الى ثُوابة بن سَلامة (١) رئيس بني جذام وزعيم أهل جند فلسطين وعَرَضَ عليه أن يكون أمير الأندلس مكان أبي الخطار ؛ وكان أبو الخطار قد ولّى ثُوابة على اشبيلية وغيرها ثم عزله عنها فغيظ ثوابة وتغير قلبه على أبي الخطار مع أنه يماني مثله . ورضي ثوابة باقتراح الصميل ثم انضم اليه مع قومه وأقارب قومه من لخم . وكذلك انضم الى الحِلْف الجديد جماعات من اليمانية كانوا منحرفين عن أبي الخطار (٢).

في رجب من سنة ١٢٧هـ (نيسان ٧٤٥م) سار الصميل الى قتال أبي الخطار وعلى مقدمة الجيش ثوابة بن سلامة نفسه . وخرج أبو الخطار لقتال ثوابة ، ولكنه لم يكن في عدد كاف من الجند . والتقى الجيشان على وادي لكّه ، بناحية نهر شذونة (٣) فجعل القيسية الذين كانوا في جيش الصميل ينادون اليمانية الذين كانوا في جيش أبي الخطار فيقولون : « لماذا تقاتلونا وقد جعلنا الأمير منكم ؟ » (يقصدون أن أمير الجيش كان ثوابة بن سلامة ، وهو يماني مثل أبي الخطار) . عندئذ تفرق جيش أبي الخطار ، وهرب أبو الخطار نفسه في اتجاه باجة ، من غرب الأندلس ، ولكنه أُسِرَ في الطريق . وكانت ولاية أبي الخطار على الأندلس « أربع سنوات وستة اشهر الى تاريخ ١٢٨ » ، كما في اخبار مجموعة (ص ٥٦) .

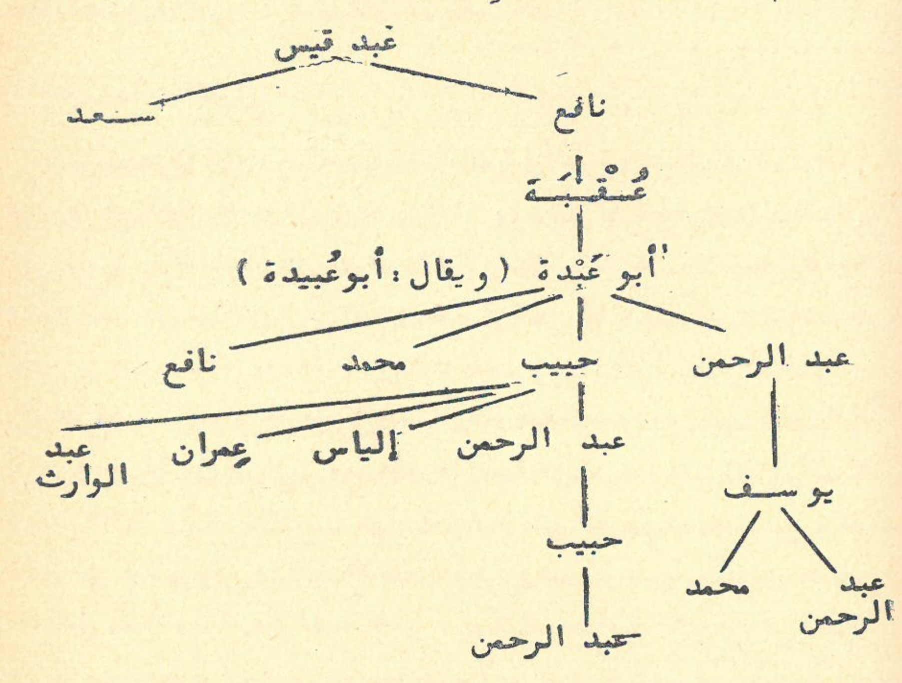
(١٨) ثوابة بن سلامة الجذامي

في تلك الاثناء كان أمية بن عبد الملك بن قطن في قرطبة فأخْرج منها خليفة أبي الخطار وملكها باسم ثوابة . وسار ثوابة الى قرطبة فألقى أبا الخطار في السجن ثم خرج الى الناس فبايعوه بالأمارة (٤) .

(١) ابن الاثير ٥ : ١٦١ .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٣٤-٣٥ ، اخبار مجموعة ٥٧ ، ابن خلدون ٤ : ١٢٠ ، نفح الطيب ١ : ١٤٧ .
(٣) ابن الاثير ٥ : ١٦١ ، اخبار مجموعة ٥٧ .
(٤) البيان المغرب ٢ : ٣٣ ، وفيه (٢ : ٣٥) « ولي ثوابة سنة ١٢٨ » .

استبداد عبد الرحمن بن حبيب بالمغرب وافريقية

لما وصل عبد الرحمن بن حبيب الى المغرب ، بعد خروجه من الأندلس ، دعا جماعة الى مشايعته فأجابوه . فكتب اليه حنظلة بن صفوان والي افريقية يدعوه إلى استئناف الطاعة فأبى ورد عليه يطلب منه أن يُخْلِيَ القيروان وأجّله ثلاثة أيام . وكان حنظلة رجلاً وَرِعاً يكره سفك الدماء ، وكان لا يرى القتال



نسل عقبة بن نافع

الا لكافر أو خارجي ، فترك القيروان في جُمادي الاولى من سنة ١٢٧ (شباط ٧٤٥) عائداً الى المشرق ، فدخل عبد الرحمن بن حبيب الى القيروان في الشهر التالي ثم غلب على المغرب وافريقية . وكتب عبد الرحمن الى الخليفة مروان بن محمد (١) بما فعل ، فأقره مروان على المغرب وافريقية معاً (٢) .

(١) جاء مروان بن محمد الى الخلافة في ٢٦ صفر من سنة ١٢٧ (٧ كانون الاول ٧٤٤) .
(٢) فتوح مصر ٢٢٣-٢٢٤ ، البيان المغرب ١ : ٦٠ ، ٦٢ ، ابن خلدون ٤ : ١٩٠ ، الاستقصا ١ : ١٠٥ .

واكتسب عبدالرحمن بن حبيب باقرار مروان بن محمد له على المغرب وافريقية وجاهة وصل ذكرها الى الأندلس ، فخاطب أهل الأندلس عبد الرحمن في شأن تولية ثوابة عليهم . فكتب عبد الرحمن الى ثوابة بعهده على ولاية الأندلس، منسلخ رجب من سنة ١٢٩ (١٥ نيسان ٧٤٧) ، بعد نحو عام من ولايته ؛ وقام الصميل بأمر ثوابة فكان ثوابة الوالي في الظاهر ، أما الحاكم الحقيقي فكان الصميل (١) .

أحـــداث المغرب

اتسعت حركة الخوارج الصُفْرية والإباضية في المغرب فثار ثابت الصَنْهاجي في قومه صنهاجة وتغلب على باجة . وثار عروة بن الوليد الصفرى (٢) واستولى على تونس . وكذلك ثار ابن عطاف (٣) الأزدي كما ثار عرب الساحل والبربر في الجبال . على أن الثورة التي شغلت عبد الرحمن بن حبيب كانت ثورة عبد الجبار بن قيس المُرادي والحارث بن تليد الحضرمي (٤) الهوّاريين في طرابلس ؛ وقد هزم عبدُ الجبار والحارث كل جيش أرسله عبد الرحمن بن حبيب لقتالهما ، ثم انهما استوليا على طرابلس وما جاورها واستفحل أمرهما في زناتة . وأخيراً اختلفا فاقتتلا وقُتلا كلاهما ، فولى الخوارج على أنفسهم اسماعيل بن زياد النَفوسي فعظم شأنه في تلك الانحاء . وخرج عبد الرحمن بن حبيب لقتال اسماعيل بنفسه وقاتله عند مدينة قابس ، فهلَكَ اسماعيل وكثيرون ممن كانوا معه، وضرب عبد الرحمن بن حبيب أعناق الأسرى . وخمدت نار الخوارج في المغرب وافريقية الى حين (٥) .

---

(١) البيان المغرب ١ : ٦٢ ، راجع ابن خلدون ٤ : ١٢٠ .
(٢) في البيان المغرب (١ : ٦١) : الصدفي .
(٣) في ابن خلدون (٤ : ١٩٠) : عمر بن عطاب .
(٤) في ابن خلدون (٤ : ١٩٠): عبد الجبار بن الحارث (وهو خطأ طبعاً) .
(٥) راجع فتوح مصر ٢٢٣ – ٢٢٤ ، البيـــان المغرب ١ : ٦١ ، ابن خلدون ٤ : ١٩٠ ، الاستقصا ١ : ١٠٥ .

نجاة أبي الخطار من السجن

لم يمكث أبو الخطار طويلاً في السجن ، فان بني قُضاعة (وهم من اليمانية) اجتمعوا وأمّروا عليهم رجلاً منهم يقال له عبد الرحمن بن نُعيم الكلبي . فجمع عبد الرحمن هذا مائتي رجل وأربعين فارساً ثم هاجم قصر قرطبة وأنقذ أبا الخطار من سجنه وسار به الى لَبْلة من غربي الأندلس ، في سنة ١٢٨هـ (١) و ٧٤٦م .

واستجاش أبو الخطار اليمانية ودعاهم الى النُصرة على المضرية ، فاجتمع له منهم عسكر ضخم أقبل به الى قرطبة . فلما خرج له ثوابة عاد القيسية الذين كانوا في جيش ثوابة ، فيما يبدو ، الى ندائهم القديم : « لماذا تقاتلونا وقد جعلنا الأمير منكم ؟ (٢) . فتفرق عسكر أبي الخطار عنه وانهزم أبو الخطار نفسه ثانية ، واستمر ثوابة والصميل في حكم الأندلس :

وتولى ثوابة الأندلس نحو سنة وستة أشهر – من رجب سنة ١٢٧ (نيسان ٧٤٥) الى المحرم من سنة ١٢٩ (أيلول– تشرين الاول ٧٤٦)– في أرجح الأقوال (٣) . وقد أخذ بذلك المستشرق الأسباني أميليو لافوانتي ألقانطرا مخرج كتاب أخبار مجموعة (٤) وتبعه في ذلك بعض المؤرخين الغربيين (٥) . على أن نفراً من المؤرخين العرب لم يضبطوا ولاية ثوابة بتواريخها الصحيحة (٦) :

---

(١) أخبار مجموعة ٥٨ .
(٢) راجع فوق ، ص ١٥٦ .
(٣) أخبار مجموعة ٥٧ ، ابن الاثير ق ٥ : ١٣٦ ، ١٥١ .
(٤) مدريد عام ١٨٦٧ .
(٥) مثلا Lévi-Provençal I 50.
(٦) في أخبار مجموعة ٥٧ : ولي ثوابة سنة ثم مات في سنة ١٢٩ . وفي ابن الاثير (ق ٥ : ١٥١ كانت ولايته سنتين وشهوراً . وفي البيان المغرب : وفي سنة ١٢٧ بويع لثوابة في الاندلس ... وفي سنة ١٢٨ هلك ثوابة في شعبان ، ودولته سنة (١ : ٦٢) ، ولي ثوابة سنة ١٢٨ ... وتوفي في السنة المذكورة وكانت ولايته كما ذكرنا (٢ : ٣٥) . وفي ابن خلدون (٤ : ١٢٠) : جاء ثوابة سنة ١٢٨ وهلك لسنين (لسنتين ؟) من ولايته . وفي أعمال الاعلام (ص ٧) : ملك ثوابة سنتين وشهوراً .

التنازع على ولاية الاندلس

توفي ثوابة فجأة – وكان الخلاف قد وقع في افريقية ، وبنو أمية قد تلاشت أمورهم في المشرق وشُغلوا عن قاصية المغرب بكثرة الخوارج وباستفحال أمر المُسوّدة (الدعاة العباسيين) – فعاد النزاع في الأندلس الى ما كان عليه بين اليمانية والمضرية ثم بين اليمانية أنفسهم .

(١٩) عبد الرحمن بن كثير اللخمي

أراد اليمانية في أول الأمر أن يعيدوا أبا الخطار الى ولاية الأندلس فأبى الصميل وشايعته مضر . ثم اختلف اليمانية فيما بينهم : طلب أبو الخطار الولاية لنفسه واحتج لذلك بأنه صاحب الحق في الولاية التي خلعه منها خصومه القيسيون . فبرز له منافسان : يحيى بن حُريث وعمرو بن ثوابة (١) بن سلامة الجُذاميان ونازعاه في الولاية، ثم قال له يحيى: « أما أقوَمُ بها منك لأن قومي أكثر من قومك (٢) » . وكثر الخلاف وتشاكى الفريقان فبقيت الأندلس أربعة أشهر بلا وال ، الا أن أهل الأندلس كانوا قد قدموا عليهم عبد الرحمن ابن كثير اللخمي ونصّبوه للنظر في الاحكام (٣) خاصة (٤) .

تسوية الصميل وما فيها من الدهاء

عالج الصميل الموقف بدهاء وحكمة وبمكر أيضاً ، فاقترح أن يكون **والي الاندلس عاماً من القيسين وعاماً من اليانيين على التعاقب** . ورضي الجميع بذلك ولكن اختلفوا على الذي ستكون الولاية له في العام الاول : أيكون قيسياً أم يمنياً ؟ وهنا أسعف الصميلَ ذكاؤه فاقترح أن يكون الوالي الاول بعد التسوية

(١) في أخبار مجموعة (ص ٥٧) : ثوابة بن عمرو .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٣٥-٣٦ ، راجع أخبار مجموعة ٥٧ .
(٣) راجع فوق ، ص ١٠٦ .
(٤) البيان المغرب ١ : ٦٢ ، ٢ : ٣٥ - ٣٦ .

قرشياً ، لأن عصبية العرب يومذاك كانت في قريش ، وخلفاء دمشق أصحاب الفتح في الأندلس قرشيون . وكذلك ظهرت الرسالة الاسلامية في قريش . وعلى هذا تكون قريش فوق النزاع العَصَباني الذي يمزّق الأندلس .

(٢٠) يوسف بن عبد الرحمن الفهري

وسمّى الصميلُ لمنصب الولاية في الأندلس يوسفَ بن عبدالرحمن الفهري. وكان مما يحمل الناس على الرضا به أمور منها أنه :

أ) كان ينتسب الى عقبة بن نافع (١) فاتح المغرب وباني مدينة القيروان ، وهذا يجعل له وجاهة بين الناس ويخفف من المقاومة له بينهم عند تنصيبه .

ب) كان متقدماً في السن ، والناس عادة – وخصوصاً في الأزَمات – أكثر انقياداً للمتقدمين في السن منهم للأحداث .

ج) كان في ذلك الحين معتزلاً في بادية إلبيرة مع نفر من أهل الديانة والاظهار للخير (١) ، وذلك مما يجعله بعيداً عن المنازعات الناشبة فتقلّ مقاومة أهل الأندلس له .

د) كان يتنافس في سبيل الولاية على الأندلس بضعة نفر ، فكان من المألوف في مثل هذا الموقف أن يتنحّى المتنافسون المتخاصمون لرجل حياديّ يتمتع بمؤهلات معينة كتلك التي كان يتمتع بها يوسف بن عبد الرحمن الفهري .

على أن تسمية الصميل ليوسف بن عبد الرحمن الفهري لم تكن خالصةً من عناصرَ تَرْجِعُ الى هوى في نفس الصميل :

أ) كان يوسف الفهري قيسياً كالصميل نفسه .

ب) كان عبد الرحمن بن حبيب – والد يوسف الفهري – يطمح الى ولاية الأندلس ، فحال أبو الخطار بينه وبينها . ولا ريب في أن هذا قد ترك شيئاً من

(١) هو يوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبدة بن عقبه بن نافع .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٣٧ .

النقمة في نفس يوسف على أبي الخطار ، ولو لم يكن يوسف يظهره أو يشعر به شعوراً بارزاً . ولقد أحب الصميل أن يستغل هذا العنصر الشخصي فيضمنَ أن يثبت يوسف الفهري بجانبة في وجه أبي الخطار .

ج) سمّى الصميل يوسف الفهري لولاية الأندلس لأنه كان رجلاً ليّناً يستطيع أن يحكم هو الأندلس من ورائه . ولقد سبق أن رأينا الصميل يختار ثوابة بن سلامة الجذامي ليتولى حلف القيسية واليمنية ضد أبي الخطار وولاية الأندلس معاً كيما يكونُ الأسم فقط لثوابة والحظ (الفعل والفائدة) له هو : ولم تخف غاية الصميل في تسمية يوسف الفهري لولاية الأندلس على المؤرخين ، فقال ابن عذاري (١) : « فكان ليوسف الأسم وللصميل الرسم » . وذكر ابن القوطية أن الصميل كان متغلباً على يوسف الفهري طول مدة حكمه . وقال ابن الأثير (٥ : ١٧٩) : «كان اسم الأمارة ليوسف والحكم للصميل » .

د) أما الذي حبك خطة الصميل وسهّل تنفيذها فهو أن الصميل كان لا يسعى لنفسه ظاهراً ، فوثق به الناس وأمِنَتْهُ العصبيات . وهذا يذكرنا بموقف عبد الرحمن بن عَوْف في الشورى بعد مقتل عمر بن الخطاب (٢) ، إلاّ أن موقف ابن عوف كان خالصاً من هوى النفس .

هـ) وأما تنحية عمرو بن ثوابة ويحيى بن حُريث فلم تكن صعبة على الصميل . لقد أقنع الصميل عمرو بن ثوابة بالتخلي عن مطلبه لأن ولاية الأندلس لا يجوز أن تنتقل بالوراثة ، فاذا جاء عمرو بن ثوابة الى ولاية الأندلس — بعد أن كان يليها أبوه — ضج الناس وخصوصاً القيسيةَ وقالوا : استبدتِ اليمانية بولاية الأندلس وقلبتها ملكاً . وكان اقناع يحيى بن حريث أهون ، فقد سعى الصميل الى أن يتولى يحيى كورةَ رية على أن تكون له طُعْمة (٣) . فقنع يحيى بذلك ، وزالت كل منافسة من قِبَلِهِ في وجه يوسف الفهري .

(١) البيان المغرب ٢ : ٣٦ ، راجع ابن الاثير ٥ : ١٧٩ .
(٢) راجع الحوض الشرقي ٧٢-٧٣ .
(٣) البيان المغرب ٢ : ٣٥ .

استيقاظ العصبية

ما كاد الأمر يستقر ليوسف حتى أشار عليه الصميل باتّباع سياسة قيسية وبإقصاء اليمانية كلهم عن مراتب الحكم . فبدأ يوسف ، أولَ ما بدأ ، بعزل يحيى بن حريث عن مِنْطقة ريّة . فغضب يحيى وكاتب أبا الخطار وواطأه على الثورة . ورأى جميع اليمانية (حِمْيَر وكِنْدة ولَخْم وجُذام) أن تكون القيادة ليحيى بن حريث — ولعلهم رأوْا ذلك لأن أبا الخطار انهزم في ثوراته السابقة — فلم يجد أبو الخطار بدأً من الانضمام الى ابن حريث والمحاربة الى جانبه . عندئذ انحازت مُضَر وربيعة الى الصميل ويوسف الفهري .

واتفق في ذلك الحين انقضاءُ عامٍ كامل على ولاية يوسف الفهري ، فجاء اليمنية ، كما يقول ابن خلدون (٤ : ١٢٠) ، « لميعاد إدالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم » ليتولّوا هم الحكم في العام الجديد . ويبدو أن يوسف كان مستعداً لأن يترك الحكم خوفاً من الفتنة وثورة العداوة والبغضاء بين العصبيات (١) . ولكن الصميل أبى ذلك . ولما رفض يوسف أن يتولّى القتال بنفسه تولاّه الصميل ورتب الجنود ثم تقدم الى شَقُنْدة ، (قِبالةَ قصر قرطبة بعِدوة النهر — على الضفة اليسرى) ، ومعه يوسف الفهري (٢) ، فالتقى بجيش ابن حريث وأبي الخطار ، في أوائل سنة ١٣٠ (٣) للهجرة وأواخر ٧٤٧م . وكانت الحرب بين الفئتين شديدة عارمة حتى قال ابن عِذاري (٤) : « فلم يُعْهَدْ حرب مثلها في المسلمين بعد حرب الجمل وصفين » . وانهزم اليمانية هزيمة شديدة وهرب أبو الخطار وابن حريث ، ولكن أُدْركا وأُخِذا أسيرين . ثم ان الصميل ضرب عنقيهما وبدأ يضرب أعناق الأسرى . قالوا (٥) : فلما ضرب أعناق سبعين منهم اعترضه قاسم بن

(١) البيان المغرب ٢ : ٣٦ .
(٢) اخبار مجموعة ٥٩ .
(٣) اخبار مجموعة (ص ٦١) : قبل سنة واحد وثلاثين ومائة .
(٤) البيان المغرب ٢ : ٣٦ .
(٥) اخبار مجموعة ٦٠-٦١ .

فلان أبو عطاء بن حَمَد المُرّي وسأله أن يُغْمد سيفه ويكف عن قتل الأسرى ؛ فلما صده الصميل قال له أبو عطاء : « يا أعرابي ، والله إنْ تقتلنا إلاّ بعداوة صفّين . لَتَكفُنّ أو لأدْعُونّ بدعوة شامية » (١) . فأغمد الصميل سيفه وترك قتل الأسرى .

القحط في الاندلس والمغرب

وأتت على الأندلس خاصة سبع سنوات من القحط تخللها مطر يسير . ففي سنة ١٢٩ للهجرة (٧٤٧م) حدث غلاء في الأسعار في افريقية والمغرب (٢) . وفي السنة التالية كان الوباء والمَوْتان في الأندلس « حتى كاد الخلق أن ينقرض » . ثم أمحلت الأندلس في سنة ١٣١ وعم المَحْل وتمادى الى سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) ؛ وتعاقب سقوط المطر وانحباسه : سنةً مَحْلٌ وسنة غيثٌ . على أن المَحْل الشديد اتصل عاماً أو عامين ؛ وسُقِيَ الناس في سنة ١٣٣ وصلحت حالهم بعض الصلاح (٣) .

وكان من نتائج هذا القحط المتوالي أن جعل المسلمون ينزحون عن شمالي الأندلس ووسطها نحو الجنوب ، ومنهم من جاز البحر الى طنجة وأصيلا وريف البربر . ولم يستطع الأسبان انتهاز الفرصة والنزول في البلاد التي رحل عنها المسلمون لأن القحط كان قد عم أرضهم ايضاً والجوع قد أضعف عزيمتهم (٤) .

الوحشة بين يوسف الفهري والصميل

بعد معركة شَقُنْدة عظم مقام الصميل وتعلقت به قلوب الناس وآمالهم ، لنجدته وسخائه ، فخافه يوسف الفهري وخشي منه على نفسه بعد أن كان قد

---

(١) لاثيرن عليك أهل الشام . إن : ما .

(٢) البيان المغرب ١ :٦٢ .

(٣) البيان المغرب ٢ :٣٧ ؛ ٣٨ ، « واستحكم الجوع والقحط في سنة ١٣٤ و١٣٥ وبعض ١٣٦ .

(٤) أخبار مجموعة ٦٢ .

استبد دونه بحكم البلاد . وأراد يوسف أن يبعد الصميل عن قرطبة ليأمن خطره فولاه على سرقسطة ، في الثغر الأعلى . ولم يَخْفَ مَقْصِدُ يوسف على الصميل ولكنه ذهب الى سرقسطة طائعاً فلما وجد المجاعة فيها متفشية تناسى عصبيته وعمل جاهداً على اغاثة الناس من قيس ومن اليمن على السواء . وظل على ذلك وقلوب الناس تزداد به تعلقاً حتى انجابت سِنُو القحط (١) .

الثورات على يوسف الفهري

سقطت الدولة الأموية في الشام ثم بويع أبو العباس السفاح ، في العراق ، في ١٢ ربيع الثاني من سنة ١٣٢ (٢٨ تشرين الثاني ٧٤٩) فأحدث ذلك تأثيراً كبيراً في المغرب والأندلس :

أ) كان أولَ اثر لسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية أن نجا جماعة من بني أمية بأنفسهم . وبما أن هربهم نحو المشرق لم يكن ممكناً ، لأن الجيوش العباسية كانت قادمة من المشرق ، فان المنجى الوحيد للفارّين كان نحو المغرب ؛ وتتبع العباسيون أولئك الفارّين وقتلوا نفراً منهم ، قتلوا مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في مصر . ثم نجا نفر آخرون ، منهم العاصي وموسى ابنا الوليد ابن يزيد ، ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ومنهم ابنه سليمان وخادمه بدر وخادم لأخته أم الأصبَغ اسمه سالم أبو شجاع . ثم أخذ جماعة من أهل بيت عبد الرحمن يتوافوْنَ اليه (٢) .

لا ريب في أن هؤلاء فرّوا من المشرق الى المغرب خوفَ السيف ولم يكن أحد منهم يفكر يومذاك باستعادة مُلك قديم أو بطلب مُلك جديد . واذا نحن صرفنا النظر عن نفر كانوا يريدون الايقاع بهؤلاء الناجين بأنفسهم بعاملٍ من عصبية ضيقة أو تزَلُفاً الى أرباب الدولة الجديدة ، فان الأمويين وجدوا منزلاً رَحْباً في افريقية . ولكنْ لما أمِنَ هؤلاء على أنفسهم ثم رأوْا الخلاف الناشب

---

(١) البيان المغرب ٢ : ٣٧ ، اخبار مجموعة ٦٢-٦٣ .

(٢) أخبار مجموعة ٤٦-٥٦ ، ابن الاثير ق ٥ :١٧٤ .

في المغرب وفي الأندلس خطر لهم أن ينتهزوا الفرصة ويَسْعَوْا الى الحكم ؛ ولعل لسان بعضهم زلّ فسبق الى ذلك (١) . فلما بلغ ذلك الى أسماع عبد الرحمن بن حبيب أراد أخذ الطريق على بني أمية – وابرزُهم يومذاك هناك عبدُ الرحمن بن معاوية – ففروا جنوباً في شرق الى مكناسة ثم تابعوا فِرارهم شرقاً الى نواحي طرابلس ونزلوا في بني نَفْزة أو نفزاوة (٢) اذ يزعمون أن أم عبد الرحمن بن معاوية كانت جارية منهم (٣) اسمها راح . والغريب أن قبيلة نفزة هذه لم تخطر ببال عبد الرحمن حينما مر بها وهو فارّ غرباً من الهول الأموي .

ب) لما طال استبداد يوسف الفهري ، وهو قيسي ، بحكم الأندلس تحرك اليمانية فيها فكان من ذلك ثورة عبد الرحمن بن عَلْقَمة اللخمي (اليماني) بأربونة من أقصى الشمال الشرقي . ولكن يوسف الفهري تغلب عليه بعد مدة يسيرة (٤) وقتله (٥) . وكذلك ثار عليه ثائر اسمه عروة في مدينة باجة ، فوجه اليه يوسف من هزمه وقتل أتباعه (٦) .

أما الثورة التي أقلقت بال يوسف الفهري فهي الثورة التي قام بها القيسية لأنهم في الدرجة الاولى قومه ، ثم لأنهم وصلوا يدهم فيما بعد بيد أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين . ولما لم تثمر الدعوة العباسية في الأندلس التف أعداء الصميل وأعداء يوسف الفهري حول عبد الرحمن بن معاوية وجاءوا به الى الأندلس .

---

(١) البيان المغرب ١ : ٦١ .
(٢) وقيل اتى قوماً من الزناتيين (ابن الاثير ق ٥:١٩٩ ، اسفل الصفحة) .
(٣) البيان المغرب ٢ : ٤١ .
(٤) البيان المغرب ٢ : ٣٨ .
(٥) في ابن الاثير ق ٥:١٥٣ ، في اخبار سنة ١٢٩ : «حمل رأسه الى يوسف الفهري» .
(٦) البيان المغرب٢ : ٣٨ . في ابن الاثير ق ٥ : ١٥٢ ، في اخبار سنة ١٢٩ : «وخرج عليه عذرة المعروف بالذمي – قيل له ذلك لانه استعان بأهل الذمة – فوجه اليه يوسف عامر بن عمر (انظر الصفحة التالية) فلم يظفر به وعاد مفلولا (مهزوما) ، فسار اليه يوسف بن عبد الرحمن الفهري فقاتله فقتله واستباح عسكره » .

في سنة ١٣٦هـ (١) ثار الحُباب بن رَواحة الزُهري ودعا لنفسه (٢) وحاصر الصميل بجهة سرقسطة نحو سبعة أشهر (٣) . وفي العام نفسه ثار تميم بن معبد – وهو أيضاً من بني زُهرة بن كِلاب كالحُباب بن رَواحة – . ولكن هاتين الثورتين لم تقلقا بال يوسف الفهري كثيراً ولا أثّرتا في الصميل . غير أن الموقف تبدل في سنة ١٣٧هـ (٧٥٥م) حينما ثار فتى شريف من أهل قرطبة ومن رجال مضر اسمه عامر بن عمرو بن وهب العَبْدَري (من بني عبد الدار بن قُصَيّ) ودعا الى سِجِلّ أبي جعفر المنصور (٤) فأجابه رجال من اليمن وناس من البربر وغيرهم (٥) . ثم سار عامر بن عمرو هذا الى سرقسطة وضم جهوده الى جهود تميم بن معبد (٦) وقاما كلاهما بدعوة بني العباس (٧) وشددا الحصار على الصميل .

الجهاد والحروب في جيليقية

لم تثبت أقدام العرب (٨) وراء الوادي الجوفي (نهر دويره) ، وفي جيليقية على الأخص ، ثبوتاً طويلاً أو راسخاً . ولا ريب عندنا في أن دفع العرب عن الأندلس بدأ من هنالك . فبعد بلاي الذي يسميه ابن خلدون (٩) « ابن نافلة » جاء ابنه فافلة (١٠) فملك سنتين من عام ٧٣٧ – ٧٣٩م (١١٩–١٢١هـ) لا

---

(١) في البيان المغرب ٢ : ٤١ « في سنة ١٣٧ » .
(٢) في البيان المغرب ٢ : ٤٢،٤١ « الحبحاب » .
(٣) البيان المغرب ٢:٣٧ .
(٤) جاء المنصور الى الخلافة في ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦ (٩ حزيران ٧٥٤) .
(٥) اخبار مجموعة ٦٤ .
(٦) في البيان المغرب ٢:٤١ أن عامر بن عمرو ضم جهوده الى جهود الحبحاب بن رواحة .
(٧) ابن الاثير ق ٤ : ١٨٧ .
(٨) راجع فوق ، ص ١٠٩–١١٠ .
(٩) ٤ : ١٧٩ . يذكر ابن خلدون أن ابن نافلة هذا ملك تسعة عشر عاماً وهلك سنة ١٣٣ هـ (٧٥١م). وبلاي قد ملك فيما زعموا تسعة عشر عاماً ولكنه توفي عندهم عام ٧٣٦م (١١٩هـ).
(١٠) في ابن خلدون (٤ : ١٧٩) : قافلة مبدوءاً بالقاف .

نكاد نعرف عنهما شيئاً . ثم ولّى الجلالقة على أنفسهم أذفونش بن بطرة ، الذي يعرف في الكتب الأجنبية باسم ألفونسو الاول الكاثوليكي والذي امتد حكمه فيما قالوا ثمانية عشر عاماً (٧٣٩–٧٥٧م = ١٢١–١٣٩هـ) .

واختلفت الأقوال في ألفونسو الاول : ففي دائرة المعارف البريطانية أن ألفونسو الاول ومن جاءوا قبله ليسوا سوى أسماء، وأن ترجمة (١) ألفونسو الاول وتراجم الذين خلفوه الى ألفونسو الخامس مشكوك فيها كلها (٢) . وهنالك من يصدّق بوجود ألفونسو الاول هذا ثم يجعله زعيم غارات همه السلب والنهب ، ومنهم من أراد أن يجعل منه قائداً وطنياً ومؤسس مملكة (٣) . أما ابن خلدون فيرى أنه رأس ملوك الأسبان وأنه من الجلالقة . ثم يقول ابن خلدون : « ويزعم ابن حيان أنه من أعقاب القوط . وعندي أن ذلك ليس بصحيح ، فان أمة القوط قد دَثَرت وغَبَرت وهَلَكت . وقلّ أن يَرْجِع أمرٌ بعد إدباره ، وإنما هو مُلْك مُسْتَجِدّ في أمة أخرى » (٤) .

في سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م) ثار أهل جليقية بالمسلمين الذين كانوا بنواحيهم وتردد يوسف الفهري الى جليقية بالغزو ، ولكن أمر المسلمين كان يضعف في تلك الناحية : قُتل نفر من المسلمين هنالك في الغزوات وجلا جماعات نحو الجنوب وتنصر من كان ضعيف الدين عاجزاً عن أداء الخراج أو عن الثبات للقتال أو عن الضرب في الأرض مهاجراً . ولم تأت سنة ١٣٦هـ (٧٥٣–٧٥٤م) حتى كان المسلمون قد قلوا وراء الوادي الجوفي وضعف شأنهم (٥) .

عزم عبد الرحمن بن معاوية على المجيء الى الاندلس

في عام ١٣٧هـ (٧٥٥م) كان عبد الرحمن بن معاوية لا يزال في سبرة ومعه

---

(١) الترجمة : تاريخ الاشخاص .
(2) Enc. Br. I 734 a.
(3) Cf. Lévi-Provençal I 68.
(٤) ابن خلدون ٤ : ١٩٩–١٨٠ راجع مقدمة ابن خلدون ٢٦٠–٢٦٣ .
(٥) راجع اخبار مجموعة ٦٢ .

خادمه بدر . أما خادم اخته ام الأصبغ أبو الشجاع سالم ، فكان قد فارقه وعاد الى المشرق لوحشة وقعت بينهما . واشتد طلب عبد الرحمن بن حبيب على عبد الرحمن بن معاوية ، فكتب عبد الرحمن بن معاوية الى مواليه في الأندلس على يد خادمه بدر يشكو اليهم ما لقيه في المشرق على يد بني العباس وما يلقاه في افريقية على يد عبد الرحمن بن حبيب ، وطلب منهم أن يهيّئوا له مكاناً لنزوله بينهم ليمتنع بهم من الاضطهاد . ولعل عبد الرحمن بن معاوية لم يكن قد أعلن رأيه في أمر الملك ، وإنْ كان قد أشار في كتابه الذي أرسله مع خادمه بدر إلى ذلك من طَرْف خفيّ .

وفاوض هؤلاء أبا الحجّاج يوسف بن بُخْت — وكان من رجالهم وأنْجادهم ومن أهل جند قنسرين في مقاطعة جيّان — فاتفقوا كلهم على ألا يَبُتّوا في أمر حتى يشاوروا الصميل بن حاتم .

في هذه الاثناء كان الحصار قد اشتد على الصميل بن حاتم في سرقسطة « حتى يئس من الحياة وهم بالالقاء بيده » (بالاستسلام) ، فاستنجد بيوسف الفهري فلم يَنجده يوسف كُرها له وحباً في أن يَهْلِكَ فيستريحَ منه ، ولكنه اعتذر اليه على كل حال محتجاً بأن الناس في شدة من المجاعة التي كانت آخذة بخناق البلاد وبأنْ ليس بحضرته جنود يرسلهم اليه (١) .

« فلما أبطأ على (الصميل) مدد يوسف واشتد الحصار كتب الى قومه من جند قنسرين (في جيان) و (جند) دمشق (في البيرة وغرناطة) يعظّم عليهم الخطب ويناشدهم الرَحِمَ » (٢) فاجتمعوا وساروا لنصرته (٣) ؛ وكان فيهم أبو عثمان عُبيد الله بن عثمان مولى بني أمية ، وعبد الله بن خالد بن أبان بن أسْلَم مولى عثمان بن عفان وعبيد الله بن علي سيد بني كلاب بعد الصميل

---

(١) البيان المغرب ٢ : ٢٧ ، ٤٢ ، أخبار مجموعه ٦٥ .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٤٢ .
(٣) البيان المغرب ٢ : ٤٢–٤٣ ؛ راجع هناك تفاصيل إمداد القيسيين للصميل واسماء القبائل التي أمدته وعدد الرجال والفرسان الذين ساروا في ذلك المدد (انظر ايضاً اخبار مجموعة ٦٣- ٦٦).

ـ وكان هؤلاء يريدون نصرة الصميل من جهة ومفاوضته في شأن عبد الرحمن ابن معاوية من جهة ثانية ـ . وقد رأسوا على أنفسهم سليمان بن شهاب سيد بني كعب بن عامر من أهل جند دمشق ، استئلافاً له ، كما استصحبوا بدراً خادم عبد الرحمن بن معاوية . فلما سمع عامر بن عمرو وتميم بن معبد بالمدد فكوا الحصار عن الصميل (١) .

موقف الصميل من عبد الرحمن بن معاوية

وأسرّ القوم الى الصميل بأمر عبد الرحمن بن معاوية ، ثم جمعوا بينه وبين بدر وأعطَوه كتاباً مختوماً بخاتم عبد الرحمن ـ وكان عبد الرحمن قد أرسل اليهم خاتمه ليختموا به الكتب الى الذين يريدون دعوتهم الى نصرته ـ فقال لهم الصميل : « دعوني أُرَوّي » . ولم يلبث الصميل أن وافق على نصرة عبد الرحمن واقترح أن يزوجه بنته أم موسى (أرملة قطن بن عبد الملك بن قطن) تمكيناً للصلة بينهما . غير أنه عاد فبدّل رأيه خوفاً من أن يخسر نفوذه أمام العصبية الأموية ، ولكنه كتم جميع الذي جرى بينه وبينهم (٢) .

عودة بدر الى عبد الرحمن بن معاوية

فلما يئس دعاة عبد الرحمن من الصميل ، وبالتالي من بني ربيعة ومضر ، مالوا الى مُداخلة اليمانية فوجدوا لديهم رغبة في نصرة عبد الرحمن بن معاوية لعلهم يتَقَوْوا به على الثار من خصومهم القيسية . وعاد بدر بهذه التفاصيل كلها وبخمسمائة دينار الى عبد الرحمن ، في أول سنة ١٣٧هـ (تموز أو آب ٧٥٤) ، ومعه أحد عشر رجلاً من أهل الأندلس ليزكّوا بدراً في ما يقوله أمام عبد الرحمن ، منهم ابو غالب تمّام بن عَلْقمة الثقفي ورجل يقال له شاكر (٣) .

---

(١) البيان المغرب ٢ : ٤٣ ، أخبار مجموعة ٦٩ .
(٢) و(٣) البيان المغرب ٢ : ٤١-٤٤ ، أخبار مجموعة ٦٩-٧٤ .

نجدة يوسف الفهري للصميل

كل هذا ويوسف الفهري لم يدر بعد شيئاً من أمر الدعوة الى عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس . غير أنه كان قد أدرك سوء سياسته في موقفه من الصميل واستيقن أن لا غنى له عنه وخصوصاً بعد أن بدأت الأمور تضطرب عليه من كل صوب . ففي ذي القَعْدة من سنة ١٣٧ (أيار ٧٥٥) جمع يوسف جيشاً يريد أن يصير به الى نجدة الصميل . وفاوض يوسف الفهري أبا عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ـ وهما من أنصار عبد الرحمن بن معاوية (١) ـ في إمداده بأنصارهم فاعتذروا له بأن معظم أنصارهم كانوا قد ساروا لنصرة الصميل وتقطعوا بالحرب وبالشتاء القارس ، ولكنهم سيسعون الى جمع ما يمكنهم من الجنود ويلحقونه بهم الى طليطلة (٢) .

وخرج يوسف الفهري من قرطبة الى جيان قاصداً سرقسطة . ويبدو أنه لما وصل الى طليطلة وجد الصميل آيباً منها ، بعد أن فك عنه الحصار فيها (٣) ؛ في هذه الاثناء (مطلع ١٣٨هـ = صيف ٧٥٥م) أرسل يوسف حملتين ، من طليطلة (*) الى جيليقية والبشكنس وكان اهلهما قد نقضوا الصلح (٤) . وفي تلك الاثناء أيضاً كان يوسف قد قاتل تميم بن معبد وعامر بن عمرو وظفر بهما وحملهما معه أسيرين (٥) . ثم ان يوسف قفل راجعاً الى قرطبة ومعه الصميل ؛

دخول عبد الرحمن بن معاوية الى الاندلس

في ربيع الاول (٦) من سنة ١٣٨ نزل عبد الرحمن بن معاوية بساحل

---

(١) راجع فوق ، ص ١٦٩-١٧٠ .
(٢) أخبار مجموعة ٧٠-٧١ .
(٣) راجع فوق ، ص ١٧٠ .
(*) وقيل من سرقسطة .
(٤) البيان المغرب ٢ : ٤٤ ، اخبار مجموعة ٧٦-٧٧ .
(٥) البيان المغرب ٢ : ٣٨ .
(٦) في غرة ربيع الأول (البيان المغرب ٢ : ٤٤ ، الروض المعطار ١٨٦) ، في ربيع الآخر (اخبار مجموعة ٥٧) .

المُنَكَّب (١) ، فجاءه عبد الله بن خالد وأبو عثمان عبيد الله بن عثمان فنقلاه الى طُرّش (٢) الى منزل أبي الحجاج يوسف بن بُخْت (٣) فأقبل اليه جماعة الأمويين ، وأتاه قوم من أهل اشبيلية فبايعوه (٤) . ثم توالى مجيء الناس اليه من كل مكان وأُخِذَت له البَيْعة في أهل الاجناد (وهم في الأصل شاميون) فاتسعت دعوته (٥) . وأراد خليفة يوسف الفهري على قرطبة أن يقاوم عبد الرحمن بن معاوية فانهزم (٦) .

في هذه الأثناء كان يوسف الفهري راجعاً من سرقسطة ومعه الصميل . وكان معه أيضاً عامرُ بن عمرو وابنه وهبُ والزُهْري (٧) أسيرين. وفي الطريق أدركه الخبرُ بأن الغزوة التي وجهها الى جيليقية بقيادة سليمان بن شهاب قد انهزمت وأن سليمان بن شهاب نفسه قد قُتل . ويبدو أن يوسف والصميل لم يحزنا لمقتل ابن شهاب لأنه لم يكن واضح الولاء ليوسف الفهري . ثم أن الصميل أشار على يوسف الفهري بأن يضرب أعناق عامر والزهري فقتلهما .

ولم يلبث يوسف الفهري الا يسيراً حتى ورد عليه كتاب من قرطبة فيه أن عبد الرحمن بن معاوية قد نزل في الأندلس وأنه قد هَزَمَ جيش قرطبة . وشاع الخبر في جند يوسف فتفرقوا عنه . وأدرك الصميل عجز يوسف الفهري عن مناجزة عبد الرحمن بن معاوية فأشار عليه بالتلطّف له والمكرِ به لأنه صغير السن حديث عهد بنعمة (٨) . فأرسل يوسف الى عبد الرحمن بن معاوية وفداً

---

(١) البيان المغرب ٢ : ٤٤ ، ابن خلدون ٤ : ١٢١ ؛ نفح الطيب ق ١ : ١٥٤ ، (المنكب بين مالقة و المرية) .
(٢) البيان المغرب ٢ : ٤٤ . طرش (بضم الطاء وضم الراء المشددة) من كورة إلبيرة .
(٣) أخبار مجموعة ٧٥ – ٧٦ . وفي ص ٧٨ ، – ٨٠ ، « نزل عند ابي عثمان » .
(٤) راجع قدوم الناس عليه في اخبار مجموعة ٧٦ ، ابن خلدون ٤ : ١٢١ ، نفح الطيب ق ١ : ١٥٤ .
(٥) البيان المغرب ٢ : ٤٤ ، اخبار مجموعة ٧٦ .
(٦) اخبار مجموعة ٧٧ – ٧٨ . لعل خليفته على قرطبة كان ابنه ابا الأسود محمدا .
(٧) تميم بن معبد في الاغلب .
(٨) البيان المغرب ٢ : ٤٥ ، أخبار مجموعة ٧٨-٧٩ ، نفح الطيب ق ١ : ١٥٤ ابن خلدون ٤ : ١٢١ ، في البيان المغرب « قريب عهد بزوال النعمة » .

يحمل اليه هدية ثمينة من مال ولباس وكتب اليه كتاباً هذا بعض ما جاء فيه (١) :

« قد انتهى الينا نزولَك بساحل المنكب وتأبّشُ من تأبّشَ (٢) اليك ونَزَعَ نحوَك من السُرّاق وأهل الخَتْر (٣) والغدْر ونقْض الأيْمان ...... فان كنتَ تريد المال وسَعَةَ الجَناب فإنا أوْلى لك ممن لجأتَ اليه : أكْنِفُك وأُنْزِلك معي حيث تريد . ثم لك عهدُ الله وذِمّتُه ألا أغدرَ بك ولا أُمْكِنَ منك ابنَ عمي صاحبَ افريقية (٤) ولا غيرَه » . وعرض عليه أن يزوّجه ابنته. ثم خيّره بين أن ينزل في جند دمشق (غرناطة وإلبيرة) أو في جند الأردن (في رية) أو أن ينزل بينهما ويكون له الحكمُ عليهما (٥) . فقبل عبد الرحمن بن معاوية الهدية ولم يقبل التزوج ولا الاستقرار في مكان معين .

د – الحرب بين عبد الرحمن ويوسف الفهري

ولما انكشف أمر الدعوة الى عبد الرحمن اضْطُرّ أهلُها الى أن يَشْهَروها ، ثم أقاموا مع عبد الرحمن ستة أشهر – من جُمادى الثانية الى ذي القَعْدة من سنة ١٣٨ (كانون الاول من عام ٧٥٥ الى نَيْسان من عام ٧٥٦) – يُبرمون له الأمور ويكاتبون له الناس . وكان عبد الرحمن يطوف الكُوَر فيبايعه أهلها ؛ ولما تم أمره وعزم على الحرب عبأ أنصاره ونزل بهم على مقربة من قرطبة جنوبَ نهر الوادي الكبير بقرية قُلُنْبَيْرَة من أقليم طشانةمن كورة اشبيلية، يوم الاثنين في السادس من ذى الحجة ، لأن يوسف الفهري كان – فيما يبدو – قد نزل منذ اليوم الاول من ذي الحجة، عند المصارة (٦) بمكان يدعى مدّور صدف (٧)

---

(١) البيان المغرب ٢ : ٤٥-٤٦ .
(٢) تأبش (بفتح التاء والهمزة وضم الباء المشددة) : اجتماع اخلاط من الناس .
(٣) الغدر وأقبح الخديعة .
(٤) يقصد عبد الرحمن بن حبيب المستبد يومذاك بحكم افريقية والمغرب .
(٥) البيان المغرب ٢ : ٤٦ ، اخبار مجموعة ٧٩-٨١ .
(٦) في اخبار مجموعة (ص ٨٦) : المسارة .
(٧) اخبار مجموعة ٨٥ . لعل مدور صدف هو حصن المدور ، على الضفة اليمنى (الشمالية) من النهر الكبير وعلى نحو ثلاثة وعشرين كيلومتر غرب قرطبة .

وتهيأ عبد الرحمن للقتال ثم تقدم نحو المصارة ، وأقام الجيشان ثلاثة أيام مُتناظرَيْنِ يتناوشان والنهرُ بينهما فائضٌ لا يستطيع أحدهما أن يقطعه الى خصمه وفي صباح الخميس ، يوم عَرَفَةَ (٩ ذي الحجة = ١٣ أيار) أصبح النهر وقد انحسر مأوه فجازه عبد الرحمن الى ضِفّته الشّمالية (اليمنى) حيث كان جيش يوسف الفهري . وطلب يوسف الفهري الصلح فترك عبد الرحمن البتّ في ذلك لجيشه فأبى بنو أمية واليمانية الا الحرب . وفي اليوم التالي ، يومِ عيد الأضحى ، نَشِبَ القتال (١) وكثر القتلى في جيش يوسف الفهري قبل ان يرتفع النهار ، ثم انهزم يوسف الفهري نفسه في اتجاه مدينة ماردة ، وانهزم الصميل الى شُوذَر (٢) .

وانطلق عبد الرحمن في أثر يوسف الفهري ، فخالفه يوسف الفهري الى قرطبة وأخذ منها أهله وماله ونجا الى إلبيرة (٣) . ولحق الصميل بيوسف الفهري.

البيعة لعبد الرحمن بن معاوية بالامارة

وفي يوم الأضحى نفسه (٤) استولى عبد الرحمن بن معاوية على قرطبة ودخل القصر وتمت له بَيْعة العامة بقرطبة (٥) بالامارة . في هذه الاثناء كان يوسف الفهري والصميل قد وصلا الى إلبيرة فتحصنا في غرناطة مع جماعة من القيسية . وعلم الأمير عبد الرحمن بذلك فجمع الأجناد وعبأ جيشاً ثم استخلف على قرطبة أبا عثمان عبيد الله بن عثمان وسار الى إلبيرة لقتالها . ووصل خبر الحملة الى يوسف الفهري فأمر ابنه أبا زيد عبد الرحمن بأن يسير لحصار قرطبة . فحاصر عبد الرحمن بن يوسف الفهري قرطبة ثم دخلها وأخذ

---

(١) في ابن الأثير ق ٥ : ٢٠٠ ان القتال بدأ مساء الخميس يوم عرفة ، ٩ ذي الحجة .
(٢) شوذر قرية في كورة جيان (الروض المعطار ١١٧) .
(٣) ابن الاثير ق ٥ : ٢٠٠ . — في البيان المغرب ٢ : ٤٧ « ثم انهزم الفهري واصحابه واستقبل القصر ، فاعترض له عبد الاعلى بن عوسجة وحال بينه وبين دخوله ورده عنه ، فولى منهزماً الى سفح جبل قرطبة ... وتمادى يوسف الفهري في الفرار الى البيرة » .
(٤) الجمعة ، ١٠ ذي الحجة ١٣٨ = ١٣ ايار ٧٥٦ . (٥) البيان المغرب ٢ : ٤٧ .

أبا عثمان أسيراً وسار به مكبّلاً حتى قدم به على أبيه يوسف بإلبيرة (١) .

ولكن الأمير عبد الرحمن لم يُلْقِ بالاً الى ذلك ، بل تابع مسيره « لم يُعَرِّجْ على شيء حتى بلغ إلبيرة ، الى قرية من فحصها (٢) يقال لها أرملة (٣) فتراسلا ، ودعاه يوسف والصميل الى أن يُسَلِّما له الأمرَ على أن يأمنا في أموالهما ومنازلهما وأن يأمنَ الناسُ كلهم وتهدأ أمور الرعية فأجابهما واصطلحا في سنة أربعين (٤) ، وكُتب بينهما كتاب صلح ». وجرى الصلح بينهما على ما يلي :

(أ) يطلق كل واحد منهما من في يديه من الأسرى .

(ب) يسكن يوسف الفهري منزله بالمدينة (قرطبة) ويسكن الصميل داره بالرَّبَض (الضاحية الجنوبية) .

(ج) يجعل يوسف الفهري ابنيه عبدَ الرحمن ومحمداً رهينةً في يد الأمير عبد الرحمن على أن يَحْبِسَهما حبساً جميلاً معه في قصر قرطبة حتى تهدأ الأمور . فاذا صلحت (الأمور) ردّهما .

ثم هدأت الأحوال ودخل يوسف الفهري في عسكر الامير (عبد الرحمن) كأحد رجاله ، فأنزله الأمير على ماله وأطلق له عياله » . واستقرت الأمور على ذلك الى حين (٥) .

الدعوة العباسية في افريقية

لما قامت دولة بني العباس نهض عبد الرحمن بن حبيب بدعوتها ولبس السواد وبعث بطاعته الى السفّاح اكتساباً لوجاهة عند أهل الدولة الجديدة وتثبيتاً لمركزه عند أهل افريقية فأقرّه السفاح على افريقية (٦) . ثم جاء أبو جعفر المنصور الى

---

(١) اخبار مجموعة ٩٢-٩٣ . (٢) الفحص : كل مكان صالح للسكنى .
(٣) أرملة بفتح الهمزة وكسر الميم اسم لقريتين كانتا قرب غرناطة .
(٤) اي سنة ١٤٠ هـ. كذا في اخبار مجموعة ص ٩٣ . والأصوب ما ذكره ابن عذاري (البيان المغرب ٢ : ٤٨) من ان ذلك كان سنة ١٣٩ هـ = ٧٥٦ م .
(٥) البيان المغرب ٢ : ٤٧-٤٨ ، اخبار مجموعة ٩١-٩٤ ، ابن الأثير ق ٥ : ٢٠٠ .
(٦) البيان المغرب ١ : ٦٤ ، ابن خلدون ٤ : ١٩٠ .

الخلافة فكتب اليه عبد الرحمن بن حبيب فرد عليه المنصور يطلب منه مع الطاعة خَراجاً (أموالاً) . فقطع عبد الرحمن الدعوة للعباسيين فأصبحت افريقية والمغرب منذ ذلك الحين مستقلين عن الأندلس وعن المشرق (١) .

وغادر عبد الرحمن بن معاوية الأموي إفريقية الى الأندلس وظل عبد الرحمن بن حبيب يخشى الأمويين الذين كانوا لا يزالون عنده في افريقية فقتل العاصيَ وموسى ابني الوليد بن يزيد ، فامتعضت ابنة عمهما – وكانت زوجة لإلياس بن حبيب – فأغرت زوجها بأخيه عبد الرحمن . وانضاف الى ذلك طمع الياس وعبد الوارث بمكان أخيهما عبد الرحمن فائتمرا به . ولم يغب عن عبد الرحمن بن حبيب ما كان يُضْمِره أخواه فأراد أن يبعدهما عن القيروان ، فولّى الياس على مدينة تونس (مكان أخيه عِمْران) . فلما أراد الياس أن يغادر القيروان الى تونس كان عبد الرحمن مريضاً فتظاهر بالدخول عليه لتوديعه وقتَله، في آخر سنة ١٣٧هـ (حزيران ٧٥٤) ، ثم استبد بحكم افريقية والمغرب مكانه (٢) .

لما قُتِلَ عبد الرحمن بن حبيب جمع أبنُه حبيبٌ وأخوه عِمْران (وكانا معاً في تونس) أنصارهما وسارا الى القيروان لقتال الياس ، في مطلع سنة ١٣٨هـ (تموز ٧٥٤) ، ولكنهما اصطلحا على ما يلي :

(أ) يتولى عمران بن حبيب تونس وصفطورة والجزيرة ، أي الشمال الشرقي من القطر التونسي .

(ب) يتولى حبيب بن عبد الرحمن قفصة وقسطيلية ونفزاوة من بلاد الجريد ، أي جنوبيّ القطر التونسي .

(ج) يتولى الياس سائر افريقية والمغرب كله .

مقتل الياس بن حبيب

غير أن الياس كان قد أضمر الشر لأخيه عِمْران ولابن أخيه حبيب بن عبد

(١) البيان المغرب ١ : ٦٧ ، ابن خلدون ٤ : ١٩٠ .
(٢) البيان المغرب ١ : ٦٧-٦٨ ، ابن خلدون ٤ : ١٩٠ ، الاستقصا ١ : ١٠٧ .

الرحمن فتظاهر بالخروج لتشييعهما (كما كان قد تظاهر من قبل بالدخول على أخيه عبد الرحمن لتوديعه ثم قتله) . وفي أثناء الطريق وثب عليهما واعتقلهما ، ووجّه محمد بن المُغيرة والياً على تونس . ثم أن إلياس عاد الى القيروان وبعث بطاعته الى أبي جعفر المنصور (١) .

فاجتمع أنصار عبد الرحمن بن حبيب وطرقوا سليمان بن زياد عامل الياس على طَبَرْقة (جاءوا اليه ليلاً) فأسروه ثم أنقذوا حبيباً من سجنه وساروا به الى البر (٢) . فخرج عندئذ الياس في طلب ابن أخيه حبيب ، فخالفه حبيب الى القيروان ليستوليَ عليها . فعاد الياس مسرعاً الى القيروان وقاتل ابن أخيه حبيبا ولكنه سقط قتيلا بيد حبيب نفسه ، في آخر سنة ١٣٨هـ (٣) ، في أيار من عام ٧٥٥.

سيادة الاباضية ومقتل حبيب بن عبد الرحمن

بعد مقتل إلياس بن حبيب هرب أخوه عبد الوارث ومن كان معه من أنصار الياس الى بَطْنٍ من البربر يقال لهم وَرْفَجّومة من نَفْزة . فكتب حبيب بن عبد الرحمن الى عاصم بن جميل أمير ورفجومة – وكان كاهناً ويدّعي النبوة – يأمره بتوجيه عبد الوارث ومن معه فلم يقبل . فخرج حبيب الى قتاله فانهزم . واستفحل أمر عاصم وشايعه جماعة من نفزاوة منهم عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي ويزيد بن سكوم الولهاصي – وكانا على رأي الأباضية – وقاموا كلهم ، في أول الأمر ، بالدعوة العباسية وأظهروا الطاعة لأبي جعفر المنصور ، بينما كان حبيب بن عبد الرحمن مخالفاً للعباسيين .

ثم زحف عاصم بن جميل وأخوه مكرم ومن كان معهم من بني ورفجومة على القيروان فدخلوها وهرب منها حبيب الى جبل أوراس . فاستخلف عاصم على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد اليَفْرَنيّ وسار الى قتال حبيب ، ولكن

(١) البيان المغرب ١ : ٦٨ ، ابن خلدون ٤ : ١٩١ .
(٢) داخل البلاد .
(٣) البيان المغرب ١ : ٦٩ ، ابن خلدون ٤ : ١٩١ .

حبيباً هزم عاصماً وقتله ثم أقبل الى القيروان يريد أن يستردها ، فخرج اليه عبد الملك بن أبي الجعد وقاتله وقتله في المحرم من سنة ١٤٠ (١) للهجرة ، في حزيران من عام ٧٥٧ .

واستطالت دعوة الخوارج الاباضية في افريقية والمغرب حتى استطاعوا ، في نحو الزمن الذي نقص هنا أخباره ، أن ينشئوا لهم دولة في تاهرت (أو تيهرت) هي الدولة الرستمية .

(١) البيان المغرب ١ : ٧٠ ، راجع ابن خلدون ٤ : ١٩١، ٦ : ١١١-١١٢ ، الاستقصا ١ : ١٠٩ .

الحياة في عصر الولاة

لما نزل العرب في الأندلس وجدوا فيها القوط والروم والايبيريين واليهود . أما القوط فكانوا الطبقة الحاكمة ، منهم الملوك والنبلاء وأصحاب الأراضي . وكان القوط نصارى على المذهب الكاثوليكي ، ويبدو أنه كان فيهم بقايا على المذهب الاريوسي . كما أنه كان هنالك بقايا من الفاندال والسوابيين ، وهم جرمان كالقوط ، على المذهبين الكاثوليكي والاريوسي أيضاً . وهؤلاء كلهم كانوا أهل مدن ينزلون القواعد المهمة كطليطلة واشبيلية وماردة وقرطبة . وكان الروم (البيزنطيون) بقايا من أيام السيطرة الرومية على الشواطئ الشرقية والجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة ، وكانوا ينزلون المدن أيضاً .

أما الكثرة المطلقة من أهل البلاد فكان سكانها « الأسبان » الذين كانوا بلا ريب مزيجاً من موجات بشرية متلاحقة يغلب عليها العنصر الكَلْتي ويطلق عليهم هنا أسم « الإيبيريين » ، نسبةً الى نهر أَبْرُهْ الذي عُرِفَتْ شبه الجزيرة كلّها باسمه : إبارية أو ايبيرية . وكان هؤلاء زراعاً في الاكثر وأهل مهن . وكذلك كانوا الطبقة التي استعبدها الحاكمون والمتصلون بالطبقات الحاكمة .

وأما اليهود فكانوا طارئين على ايبيرية ، مثلهم في كل مكان ، ولم يكن لهم صلة جنسية أو دينية بسائر سكان ايبيرية . وكانت الحياة الاقتصادية في أيديهم : يقدّمون القروضَ للطبقات الحاكمة ويبتزون المال من الطبقات المحكومة ، ثم كانوا يقرضون المال لجميع الناس بالربا ويتاجرون بالرقيق .

المسلمون في الاندلس

كانت جيوش الفتح في الأندلس تتألف من أقلية عربية ومن أكثرية بربرية وكانت كلها من المسلمين . وسَرْعان ما اصطبغت ايبيرية كلها بالاسلام واتخذت اللغة العربية لغة عامة لها . وحدث في الأندلس ما حدث في كل مكان نزل فيه العرب : لقد انتشرت الحضارة الاسلامية التي جاء بها العرب بين الذين اعتنقوا الاسلام وبين الذين آثروا أن يظلوا على أديان آبائهم .

طبقات السكان في الاندلس

كان سكان الأندلس في عصر الولاة طبقات متميزة ، ذلك لأن العرب حملوا معهم الى الأندلس عصبياتهم الجاهلية التي كان الأسلام قد جاء ، فيما جاء به ، بالقضاء عليها . هذه الطبقات كانت مقسمة دينياً وجنسياً واجتماعياً كما يلي :

١) المسلمون

وهم أهل الدولة الجديدة من الفاتحين المسلمين ومن الذين اعتنقوا الأسلام ايماناً واحتساباً أو رياء وجرّاً لوجاهة سياسية أو منفعة اقتصادية . وكان يطلق على هؤلاء كلهم اسم الأندلسيين أو أهل الأندلس .

أ) **العرب** : وهم قسمان ، أو عصبيتان متخاصمتان : **القيسية** و **اليمنية**. وكان العرب من حيث تاريخ نزولهم في الأندلس قسمين : **البلديين** أو **أهل البلد** أي القدماء الذين جاءوا في موجات الفتح الاولى مع طارق بن زياد وموسى بن نصير (١) . وكان منهم أيضاً **الشاميون** الذين جاءوا مع بلج بن بشر ، عُرفوا بهذا الأسم لأنهم كانوا يسكنون قبل مجيئهم الى الأندلس في بلاد الشام كحمص ودمشق والأردن وفلسطين . وقد نزل العرب في الأندلس في الاكثر على الشواطئ الشرقية والشرقية الجنوبية ، وهي الشواطئ الدافئة التي تشبه في مُناخها

(١) المفهوم من ذلك ان البربر ايضاً يشركون العرب في التسمية باسم « البلديين » (راجع فوق ، ص ١٥٠) .

البلاد التي جاءوا منها . على أن جماعات منهم نزلت في غربي الأندلس وفي شماليها.(١) **وكان القيسية أقل عدداً من اليمنية ولكنهم كانوا أهل الوجاهة والحكم، وكانوا ينتصرون في كل نزاع يخوضونه مع خصومهم اليمنيين** . وكذلك كان ثمت شيء من العداء بين البلديين وبين الشاميين . وكان الشاميون ، على كل حال ، أقل عدداً من البلديين .

ب) **البربر** لما عم الفتح العربي في المغرب دخل جميع أهله في الأسلام . وكان البربر فرعين كبيرين : البُتْرُ والبَرانِسُ ، وكان بين ذينك الفرعين من العصبية مثل ما كان بين القيسية واليمنية . **غير أن البربر في الاندلس كانوا في اكثر الاحيان ينحازون الى اليمنية ويقاتلون معهم القيسية ، ولم يكن يقاتل بعضهم بعضاً** . ونزل البربر في المناطق الجبلية من الأندلس ، في الجوف (الوسط) والغرب لشبه تلك المناطق بالبلاد التي جاءوا منها في جبال الأطلس في الاكثر .

ج) **المولدون** . المولدون في المشرق هم الذين يولدون من أبوين مختلفي الجنس البشري، على أن يكون أحد الابوين عربياً . **أما في الاندلس فكان اسم « المولدون » يطلق على الاسبان الذين دخلوا في الاسلام** . ويبدو أن المسلمين الذين دخلوا هم في الاسلام كانوا يدعون **المسالمة** أو المسالمين. أما أولادهم الذين نشأوا على الاسلام فكانوا يدعون **المولّدين** . فالمولدون هم إذن — بهذا النظر — نسل المسالمة .

٢) النصارى

كان العرب يسمون الأسبان الذين كانوا يسكنون في المناطق التي لم تدخل قط في الحكم الاسلامي ، والتي كانت تخرج من الحكم الاسلامي مرة بعد مرة، **نصارى**. وربما سمّوهم **قوطا** أو **روما** أو **فرنجة**، لأن النصرانية كانت تَعُمّهم

(١) أخبار مجموعة ٣٨ ، البيان المغرب ١ : ٣٠ .

ولم يكونوا يقصدون أن يفرقوا بينهم جنسياً أو قومياً . وكذلك سموهم **العَجَم** لأنهم كانوا يُعجِمون في الكلام (١)، كما سمّوا من قبل أهل فارس عَجَماً وعُجْماً . وسمّوهم أيضاً **العُلوج** (٢) .

والبلاد التي كان يسكنها هؤلاء كانت **دار حرب** ، وكان المسلمون في حالة حرب دائمة معهم ، سواء أكانت الحرب واقعةً بينهم فعلاً أو مُطِلّةً عليهم منهم فقط . وكانت المناطق التي كانت تفصل بين مساكن الفريقين تدعى **الثُّغور** وتقسم ثلاثةَ أقسام : **الثغر الاعلى** أو **الاقصى** أو **الشمالي** ، في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، ثم **الثغر الجوفي** أو **الاوسط** ، ثم **الثغر الادنى** في الجنوب الغربي منها .

أ) **الذمّيون**: وكان النصارى خاصة من الذين ارْتَضَوُا العيشَ في الأندلس داخلين في الحكم العربي يدعون ، كما كان يدعى أندادهم في المشرق ، **الذمّيين أو أهل الذمة**. وكذلك كانوا يدعون **المعاهدين** (أو المعاهدة) لمكان المعاهدات التي عقدها رؤساؤهم في زمن الفتح (٣) . وكذلك كانوا يدعَوْنَ **اهل الكتاب** .

ج) فاذا كان النصارى الذين يعيشون في الأندلس (القسم العربي من شبه جزيرة إبارية) لا يعرفون اللغة العربية فهم **عجم الاندلس** ، واذا كانوا في افريقية فهم **عجم أفريقية** (٤) .

ج) وأما اذا كان هؤلاء يعرفون اللغة العربية ويتكلمونها فهم **المستعربون**.

٣) اليهود

واليهود كانوا أيضاً أهل ذمة كالنصارى ، وقد رقيت منزلتهم بعد الفتح

(١) أعجم الرجل : مالت لغته الى العجمة (بضم العين) : كانت غير مفهومة .
(٢) العلج (بكسر العين وسكون اللام) : الرجل من كفار العجم .
(٣) راجع فوق ، ص ٩٠-٩١ .
(٤) البيان المغرب ١ : ٣٨ .

العربي للمعونة التي كانوا قد أسدَوْها للعرب في فتح الأندلس. ثم أن العرب لم يضطهدوا اليهود دينياً ولا كانوا يأخذون منهم أموالاً بغير حق كما كان يفعل القوط. وكان اليهود يعيشون في معظم المدن الأندلسية الكبيرة ، كعادتهم في كل مكان.

٤) الكفار

وكان في الأندلس الى ذلك الحين جماعات من الكفار يعبدون الأصنام ولم يكونوا يتمتعون بشيء مما كان يتمتع به أهل الكتاب ، الذميون — من النصارى واليهود (١) .

الحياة السياسية والادارية

كان عصر الولاة في الأندلس عصر فتح ثم عصر نزاع بين أهل العصبيات المختلفة . من أجل ذلك لم ينشأ فيه حركات يمكن تأريخها . كانت الأندلس من الناحية الشرعية جزءاً من الامبرطورية العربية الأموية ، ولكنّ بعد الأندلس عن دمشق وضعف الدولة الأموية الذي بدأ بعد فتح الأندلس بوقت قصير جداً ، جعلا سلطة الأمويين على الاندلس سلطة اسمية في معظم الأحيان. كان الوالي على الأندلس يأتي أحياناً قليلة من دمشق رأساً . وكان في أحيان كثيرة يأتي من قبل والي افريقية الذي كان يعينه الخليفة من دمشق . وأحياناً كان أهل الأندلس يعينون على أنفسهم والياً من عند أنفسهم . وأحياناً أخرى كان الولاة ينصبون أنفسهم على الأندلس استبداداً .

ولم نعرف في عصر الولاة « حكومة » بالمعنى الحديث ولا بالمعنى الذي كان معروفاً في الدولة الأموية في ذلك الحين ، أو في أيام عمر بن الخطاب من قبل : تنظيماً للجيش وللمال ولسجلات الدولة على الأقل (٢) . لقد كانت

(١) راجع فوق ، ص ١٣٧ ، Los Mozàrabes 62 .
(٢) راجع الحوض الشرقي ٧٠-٧٢ ، ٨٧-٨٨ ، ١٠٤-١٠٥ ، ١٠٧-١٠٨ ، ١١١-١١٣ ، ثم ١٣١-١٤٤ .

« حكومة الأندلس في عصر الولاة » حكومة عسكرية استبدادية ، فكان الوالي هو الحاكمَ والقائدَ والقاضيَ . وكان الوالي يعين « عمالاً » على المدن المختلفة مسؤولين تجاهه وحده . أما اذا غادر العاصمة قرطبة لشأن من شؤونه فانه كان يعين « خليفة له فيها » . ثم ان هؤلاء العمال كانوا في الاكثر أقارب للوالي أو أصدقاء له أو من أهل عصبيته.

ترك العرب للنصارى في الأندلس حرية سياسية واسعة : تركوا لهم القضاء فيما بينهم وشيئاً من الادارة المحلية المستقلة الخاصة بهم (١) . ولا ريب في أن حياة النصارى الدينية واستمرار الابرشيات والاسقفيات في قواعد الأندلس المهمة مع وجود لغة لهم لا يعرفها العرب ولا يعرفون مثلها قد سهّل لهم انشاء مثل هذه الحكومة (٢) .

وكان للنصارى منذ عصر الولاة قضاء خاص بهم يحكمون فيه بموجب القانون القوطي . وكان قاضيهم يسمى قاضي النصارى وقاضي العجم . وسرعان ما أخذت الدولة الاسلامية في الأندلس تشعر بوطأة هذا التنظيم الاداري للمسيحيين . وكذلك كان لليهود تنظيم قضائي واداري على غرار ماكان للنصارى(٣)

الحياة الدينية

قال المقري في نفح الطيب (٢ : ١٨٥) : « واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح » . ولا ريب في أن هذا وهم من المقري ، ذلك لأن الأوزاعي ولد سنة ٨٨هـ (٧٠٧م) ، قبل فتح الأندلس بأربع سنوات . والصواب أن يقال أن أهل الأندلس كانوا في عصر الولاة على مذهب السلف وأهل الحديث ، أي أنهم كانوا يقلدون

(1) Cf. Los Mozàrabes 93 .

(٢) كان الحاكم بأمر النصارى يدعى القومس Conde, Comes, Comitas .

(3) Los Mozàrabes 59.

الصحابة من غير تقيد بمذهب فقهي مخصوص لأن المذاهب الفقهية لم تكن قد وجدت بعد .

وكانت التقوى مستولية على النفوس في الأندلس وفي افريقية والمغرب بين المسلمين الاولين وبين الذين دخلوا في الاسلام من البربر والأسبان، وكان روح الجهاد متمكناً من القلوب (١). على أنه كان ثمت جماعات من الأسبان لم يدخلوا في الاسلام الا جراً لمنفعة . ثم ان نفراً من هؤلاء كانوا يسكنون في جليقية فارتدوا عن الاسلام لما ألحّ عليهم الغزو النصراني من الشمال ولم يكونوا يستطيعون له دفعاً بغير ذلك (٢) . ولا نعلم فسقاً ظاهراً في عصر الولاة الا ما ذكر صاحب أخبار مجموعة من أن الصميل بن حاتم كان مدمناً للخمر لا يصبر عنها (٣) .

وانتشر مذهب الخوارج من الاباضية والصفرية (٤) والازارقة (٥) في افريقية والمغرب ، ولكنه لم يتخط البحر الى الأندلس قط .

وكان لنصارى الأندلس تنظيم ديني يشرف عليه رجال الدين منهم : كان لهم ثلاث مطرانيات (أبرشيات) في طليطلة واشبيلية وماردة ، كما كان لهم ثماني عشرة أسقفية . أما الأديرة فكانت كثيرة جداً ، كان منها حول قرطبة وحدها أكثر من خمسة عشر ديراً (٦) .

وبنى المسلمون المساجد في كل مكان نزلوا فيه . غير أنهم في بعض الأحيان كانوا يجعلون من الكنائس مساجد في الامكنة التي يدخل جميع أهلها في الاسلام، أو كانوا يقسمون الكنائس بين الذين دخلوا في الاسلام وبين الذين اختاروا أن يبقوا على النصرانية من أهل البلد الواحد . ولقد هدم العرب عدداً من الكنائس

(١) راجع البيان المغرب ١ : ٢١، ٢٣ ، ٢ : ٣٧ .

(٢) راجع اخبار مجموعة ٦٢ .

(٣) اخبار مجموعة ٧١.

(٤) البيان المغرب ١ : ٢٨ الخ .

(٥) البيان المغرب ١ : ٣٢ .

(٦) Los Mozarabes 58.

التي كان أهلها يتخذون منها حصوناً يحاربون من ورائها . على أن العرب كانوا يسمحون أحياناً ببناء كنائس جديدة .

الحياة الاجتماعية

كانت الحياة في افريقية والمغرب حضرية وبدوية . الا أن الحياة البدوية في المغرب كانت تختلف عن الحياة البدوية في المشرق اختلافاً ظاهراً . ان البدو في المشرق أهل رحلة دائمة يربون الحيوانات التي تقدر على هذه الرحلة كالأبل والغنم (الضأن والمعزى) والخيل . أما في المغرب فالبدو هم أهل الريف : يرحلون عادة بين مكانين ويعملون في الفلاحة بالاضافية الى تربية الماشية (١) . أما في الأندلس فلم تكن الحياة البدوية معروفة ، وأن كان العرب في عصر الولاة قد سلكوا مسلكاً بدوياً في شكل الحكم وفي العصبية والثأر .

وكان النصارى واليهود يعيشون في أحياء خاصة بهم ، في المدن ، ولم يكن لهؤلاء زي خاص بهم يختلفون به عمن سواهم (٢) كما كانت العادة في المشرق .

وظل المولدون في الأندلس هم الفلاحين في الاكثر وأصحابَ المِهَن والحِرَف ، ولكنهم اكتسبوا مساواة بالمسلمين وارتفعت منزلتهم وعظم شأنهم لأنهم كانوا أكثرية المسلمين في الأندلس . على أن جماعات منهم لم تكن مخلصة في اسلامها .

وكثر اختلاط الانساب في الأندلس . **وكان الغالب أن يتزوج العربي بربرية أو مولدة أو نصرانية أيضاً. ولم يكن من المألوف أن تتزوج العربية مولداً**، ذلك لأن عدد العرب ، وبالتالي عدد العربيات ، كان في الأندلس قليلاً جداً .

وكان المولدون يتخذون عادة أسماء عربية ويلّفقون لأنفسهم أنساباً شرقية . ثم أنهم سرعان ما اتخذوا اللغة العربية والعادات العربية والزي العربي تمييزاً

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، راجع مثلا ٢١٢-٢١٤ .

(2) cf. Los Mozàrabes 65.

لأنفسهم من الذين لم يدخلوا في الاسلام (١) . وكان المستعرِبون يفعلون ذلك أحياناً .

الحياة الادبية والفكرية

لم يُؤثَر عن عصر الولاة أدب ، مع الايقان بأن العرب في ذلك العصر ، في افريقية والمغرب وفي الأندلس ، كانوا في حاجة الى خطابة والى شعر يستعملونهما في حياتهما العصبية على الأقل . أما ما رَوَوْا عن طارق بن زياد من خطبة له بعد ما زعموا من احراق السفن (٢) ومن أبيات له (٣) فمنحول كله .

ولما ولي عبيدة بن عبد الرحمن افريقية والمغرب سنة ١١٢هـ أخذ أصحابَ بشر بن صفوان فأغرمهم وعذبهم ، وكان فيهم أبو الخطار (٤) فكتب أبو الخطار الى هشام بن عبد الملك من افريقية يشكو اليه ذلك ويشير الى العصبية (٥) :

أفأتم ، بني مروان ، قيساً دماءنا ، وفي الله — ان لم تنصفوا — حكم عدل.
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط (٦) ، ولم تعلموا من كان تم (٧) له الفضل !

ولما حوصر الصميل بن حاتم في سرقسطة بالأندلس وسار اليه قومه لنجدته قدّموا رسولاً من قبلهم وقالوا له : ادخل في جملة المحاصرين للسور . فاذا وصلت اليه فارم اليه هذه الحجارة . وبعثوا معه حجارة في كل واحد منها بيتان هما :

---

(١) ibid. 56.

(٢) راجع فوق ، ص ٨٣-٨٤ .

(٣) نفح الطيب ١ : ١٦٧ ، راجع مختارات من الشعر الأندلسي ، جمعها وحققها الدكتور أ. ر. (عبدالرحمن) نيكل ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٤٩ ، ص ٩ .

ركبنا سفينا بالمجاز مقيّرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى ...

راجع ايضاً : Hispano - Arabic Poetry 17

(٤) راجع فوق ، ص ١٢٢-١٢٣ .

(٥) البيان المغرب ١ : ٥٠ (ثلاثة ابيات) . راجع اختلاف روايتها في الحاشية .

(٦) راجع الحوض الشرقي ، ص ٩٩ .

(٧) كذا في الاصل . لعلها : ثَمّ .

الا ابشر بالسلامة ، يا جداو ، أتاك الغوث وانقطع الحصار :
أتتك بنات أعوجَ (١) ملجَّمات عليها الأكرمون وهم نزار .

ففي هذه الأبيات خصائص مشرقية تذكّرنا شعر شعراء النقائض في الدولة الأموية في الشام .

أما في الناحية الفكرية والعقلية فلم يرو لنا شيءٌ من عصر الولاة .

(١) أعوج : فرس لبني هلال تنسب اليه الأعوجيات (الخيل الكريمة) – بنات أعوج : خيل من نسل أعوج .

عدد من أسماء الاماكن الاندلسية والفرنجية وما يقابلها في الاسبانية خاصة (١) ،

وقد روعي في اختيارها ورودها في هذا الكتاب (٢) :

أبّذة	Ubeda	اشبيلية	Sevilla
ابره	Ebro	اقليم البحيرة	Lago de la Janda
أربونة	Narbona	أقوة برطورة	Acua Bortora
أرجونة	Arjona	ألبة	Alava
أسجة ، استجة (٣)	Ecija	إلبيرة	Elvira
أرشذونة	Archidona	أمايا	Amaya
أرغون	Aragon	أوبيط ، أوبيت	Oviedo
أركش	Arcos	أوريولة	Orihuela
أرملة	Armilla	باجة	Beja
استرقة ، استورقة	Astorga	البحيرة	Lago
الاشبونة ، اشبونة	Lisboa, Lisbona	برباط	Barbate

(١) هذه الأسماء مختارة من الكتب التالية :

Ajbar Machmua (Traduccion espanola por Emilio Lafuente y Alcàntara) , Madrid 1867.

Contribucion a la Toponimia àrabe de Espana, por Miguel Asin Palacios, II edicion, Madrid 1944.

La Péninsule Ibérique ... , Traduction annotée par E. Lévi-Provençal, Leiden 1938.

راجع الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية للامير شكيب ارسلان ، جزءان ، مصر ١٩٣٦ .

(٢) هذا الاسماء مضبوطة بالشكل في اماكنها .

(٣) وردت مرة واحدة بضم الهمزة والتاء (وهو خطأ) والصواب بكسرها .

Barcelona	برشلونة
Burgos	برغش
Badajoz	بطليوس
Valencia	بلنسية
Calzada de los Martires	بلاط الشهداء
Pamplona	بنبلونة
Bordeaux	بورديل
Tago	**تاجه**
Todmir	تدمير
Tudela	تطيلة
Gibraltar	**جبل طارق**
Algeciras	الجزيرة الخضراء
La isla del Jucar	جزيرة شقر
Tarifa, Traducta Julia	**جزيرة طريف**
Jaen	جيان
Galicia	جيليقية ، جلّيقية
Denia	**دانية**
Duero	دويره (الوادي الجوفي)
Ronda	**رندة**
Rodano	رودنة
Rayya, Regio	رية
Sagrajas	**الزلاقة**
Zaragoza	**سرقسطة**
Siracusa	سيرقوسه
Zamora	سمورة ، صمورة

Santiago	**شانت ياقب**
Sidonia	شذونة
Jerez	شريش
Secunda	شقندة
Jucar	شقر
Segura	شقورة
Silbes	شلب
Saltés	شلطيش
Sierra Nevada	شلير
Santaver	شنتبرية
Santarem	شنترين
Santa Maria	شنتمرية
Genil, Xenil	شنيل
Jodar	شوذر
Sierra	**الصخرة**
Tarçil	**طرسيل**
Torrox	طرش
Tarazona	طرسونة
Tortosa	طرطوشة
Tarragona	طرّكونة
Tocina	طشانة
Talavera	طلبيرة
Talamanca	طلمنكة
Toledo	طليطلة
Granada	**غرناطة** ، أغرناطة

Desfiladero de Tarik	**فج طارق**
Cadiz	**قادس**
Cartago	قرطاجنة افريقية
Carteia	قرطاجنة الجزيرة
Cartagena	قرطاجنة الخلفاء
Cordova	قرطبة
Carmona	قرمونة
Carcassone	قرقشونة
Cacella	قسطلة دراج
Castilla	قشتاله
Coimbra	قلمرية
Calatayud	قلعة أيوب
Calatrava	قلعة رباح
Colomera	قلنبيرة
Calahorra	قلهرّة
Coria	قورية ، كورية
Lérida	**لاردة**
Niebla	لبلة
Alicante	لقنت
Lugo	**لك**
Lyon	لوذون
Lorqui, Lorca	لورقة ، لورقي
Loja	لوشة
Léon	ليون
Mérida	**ماردة**

Malaga	مالقة
Almeida	المائدة
Madrid	مجريط
Almodovar, Almudafar	المدور
Medinaceli	مدينة سالم
Medina Sidonia	مدينة شذونة
Murcia	مرسية
Almeria	المرية
Angostura de Algeciras	مضيق الجزيرة
Almun(i)écar	المنكب
Minorca	منورقة
Moron	موررور
Mallorca, majorca	ميورقة
Navarre	نبارّة
	النهر الكبير = الوادي الكبير
Guadiana	**وادي انه**
Guadaira	وادي أيره
Gudarranqua	وادي البحر
Guadalajara	وادي الحجارة
Guadarrama	وادي الرمل
Guazalate	وادي سليط
Guadalquivir	الوادي الكبير
Guadalete	وادي لكه ، بكه
Huesca	وشقة
Evora	**يابرة**
Ibiza	يابسة

مصادر ومراجع

أخبار مجموعة (لمؤلف مجهول) ، نشره أميليو لافوانتي ألقانطرا ، مدريد ١٨٦٧ .

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تأليف أحمد السلاوى الناصري ، الجزء الاول ، الدار البيضاء ١٩٥٤ .

تاريخ اسبانية الاسلامية أو كتاب أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . تأليف لسان الدين بن الخطيب ، بيروت ١٩٥٦ .

كتاب الأغاني ، لأبي الفرج الاصفهاني ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب .

البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغرب ، تأليف أبي عبد الله محمد بن عِذاري المراكشي ، جزآن ، ليدن ١٩٤٨ — ١٩٥١ .

تاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي ، مصر ١٣٠٦—١٣٠٧ .

تاريخ افتتاح الأندلس ، تأليف ابي بكر محمد بن عمر بن القوطية ، مصر .

تاريخ الرسل والملوك ، تأليف محمد بن جرير الطبري ، ليدن ١٨٧٩—١٩٠١

تاريخ العرب (مطول) ، تأليف الدكتور فيليب حتّي ، بيروت ١٩٥٠—١٩٥٢ .

تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس ، تأليف أبي الوليد عبد الله بن محمد ابن الفرضي ، القاهرة ١٩٥٤ .

تاريخ غزوات العرب ، تأليف الأمير شكيب ارسلان ، مصر ١٩٥٢ .

تاريخ الكامل ، تأليف ابي الحسن علي... المعروف بابن الأثير ، ليدن ١٨٥١ — ١٨٧١ (١) .

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تأليف ابي عبد الله محمد الحميدي ، القاهرة ١٣٧٢ه = ١٩٥٢م .

كتاب جمهرة أنساب العرب ، لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي ، القاهرة ١٩٤٣ .

الحوض الشرقي = العرب والاسلام في الحوض الشرقي .

---

(١) هنالك اشارات مأخوذة من الجزء الخامس طبع مصر (المطبعة الكبرى ١٢٩٠ ه) ميزت بالحرف ق ، مثلا ابن الاثيرق ٥ : ١٠٠ .

دولة الاسلام في الأندلس ، تأليف محمد عبد الله عنان ، العصر الاول ، القاهرة ١٣٦٢ه = ١٩٤٣م .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تأليف أبي الحسن علي بن بسام ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٣٩ه = ١٩٤٥م .

صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تأليف ابي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري ، القاهرة ١٩٣٧ .

الروم وصلتهم بالعرب ، تأليف الدكتور أسد رستم ، جزآن ، بيروت ١٩٥٥ — ١٩٥٦ .

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، تأليف أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال ، القاهرة ١٩٥٠ .

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ... تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، مصر ١٢٨٤ه .

العرب والاسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، (الى سقوط الدولة الاموية) ، تأليف الدكتور عمر فروخ ، بيروت ١٩٥٨ .

فتوح البلدان لأبي العباس احمد بن يحيى البلاذري ، ليدن ١٨٦٦ .

فتوح مصر وأخبارها ، تأليف ابي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، ليدن ١٩٢٠ .

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، تأليف محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، مصر ١٣٤٠ه .

القاموس المحيط ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي ، الطبعة الثانية ، مصر ١٣٤٤ه .

معجم البلدان لياقوت الحموي ، ليبزغ ١٨٦٦—١٨٧١ .

مختارات من الشعر الاندلسي ، تأليف أ.ر. نيكل ، بيروت ١٩٤٩ .

المسلمون في صقلية ، للدكتور مارتينو ماريو مورينو ، بيروت ١٩٥٧ .

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، تأليف أحمد توفيق المدني ، تونس والجزائر ١٣٦٥ه .

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تأليف عبد الواحد المراكشي ، مصر ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م :
مقدمة ابن خلدون ، تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، بيروت ١٩٥٦ :
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تأليف أحمد المقري ،ليدن ١٨٥٥ —١٨٥٩ (١) .

Ajbar Machmua (Anonymous), traducida y anotada por Emilio Lafuente y Alcàntara, Madrid 1867.
Contribucion a la toponimia àrabe de Espana, por Miguel Asin Palacios, segunda edicion, Madrid 1944.
Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie, Paris(nouvelle édition) 1859.
Cambridge Mediaeval History, Vol. II, Cambridge 1913.
Encyclopaedia Britannica, 11 th. ed., New York, 1911.
Encyclopaedia of Islam, Leiden & London 1913-34
Encyclopaedia of Islam (new edition).
Enciclopedia Italiana , 1919-1939.
Der Grosse Brockhaus, Wiesbaden 1953-55.
Hispano-Arabic Poetry and its relations with the Old Provençal Troubadours, Baltimore 1946.
Historia de Espana, por Ramon Menéndez Pidal (editor), tomo III (Espana Visigoda), Madrid 1940.
History of the Arabs, by Dr. Philip K. Hitti, Fourth ed., London 1949.
Invasions des Sarazins en France etc., par M. Reinaud, Paris 1836.
Larousse du XX e Siècle, Paris 1928-33.
Los Mozàrabes, por Isidor de la Gagigas, Madrid 1947-49.
Oxford Dictionary on Historical Principles, Oxford 1888-1933.
Vie et Mort de Byzance, par Louis Brehier, Paris 1947.

(١) هنالك عدد من الاشارات الى الجزء الأول من طبعة القاهرة ميز باضافة الحرف ق .

فهرست أبجدي لاعلام الاشخاص

د–ذ–ر–ز

س–ش–ص–ط

ع–غ

هـ—و—ي

نخبة من دراسات وكتب

للدكتور عمر فروخ

عضو المجمع العلمي بدمشق

عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

دراسات قصيرة		الثمن بالقروش اللبناني
١ ــ الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية)	٤٠
٢ ــ عمر ابن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية)	٧٥
٣ ــ عبد الله بن المقفع	(الطبعة الثانية)	٤٠
٤ ــ الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية)	١٠٠
٥ ــ ابن الرومي	(الطبعة الثانية)	٥٠
٦ ــ احمد شوقي	(الطبعة الثانية)	٦٠
٧ ــ ابن خلدون	(الطبعة الثانية)	٥٠
٨ ــ اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية	(الطبعة الثانية)	٧٥
٩ ــ شعراء البلاط الأموي	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٠ ــ الفارابيان : الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١١ ــ اربعة ادباء معاصرون	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٢ ــ خمسة شعراء جاهليون	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٣ ــ بشار بن برد	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٤ ــ نهج البلاغة	(الطبعة الثانية)	٥٠

١٥ ــ اخوان الصفا	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٦ ــ ابن باجه	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٧ ــ ابن طفيل		١٢٥
١٨ ــ التصوف في الاسلام		٢٠٠
١٩ ــ الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب		١٥٠
٢٠ ــ موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية		١٠٠
٢١ ــ ابو فراس		١٥٠

دراسات أخر

ابو نواس : دراسة ونقد	(الطبعة الثالثة)	١٥٠
ابو نواس : مختارات		٥٠
ابو تمام		١٠٠
حكيم المعرة	(الطبعة الثانية)	٢٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة	(الطبعة الثانية)	٣٠٠
الاسلام على مفترق الطرق	(الطبعة الرابعة)	١٥٠
نحو التعاون العربي		١٠٠
دفاعاً عن العلم		(نفد)
دفاعاً عن الوطن		٥٠
الأسرة في الشرع الاسلامي		٤٠٠

600 — Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis zum Tode Umars, 1-23 d. H. (622-644 n. Ch. Leipzig 1937.

التبشير والاستعمار في البلاد العربية	٢٥٠
شاعران معاصران (ابراهيم طوقان وابو القاسم الشابي)	٣٠٠
العرب والاسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط (الى سقوط الدولة الأموية)	٣٠٠
العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط (الى آخر عصر الولاة : ١٣٨هـ = ٧٥٦م) .	٤٠٠

طبع هذا الكتاب
على
مطبعة دار الكتب - بيروت

وانتهى طبعه في
١١ رمضان ١٣٧٨
٢١ آذار ١٩٥٩